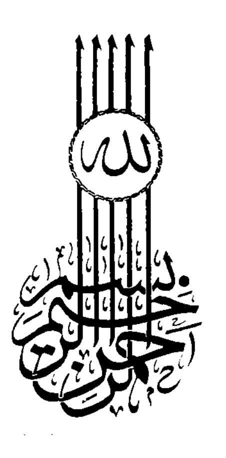
موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية



جمعه ووثق نصوصه وخرّج أحاديثه

يسري السيد محمد

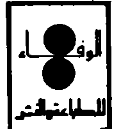
الجزء الأول




جامع الآداب

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠

E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

إهداء

إلى اللذين ربيانى صغيرا

وبذلا النفس والنفيس

والدىَّ الكرام

جزاهما الله كل خير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك،وأشهد أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله ﷺ .

وبعد :

كما ترى ـ حفظك الله تعالى ـ هذا العمل الذى بين يديك ضمن المشروع الذى أخذ أكثر من خمسة عشر عاماً بين الفهرسة والترتيب والتحقيق،مع ما يعترى الإنسان عموماً من مشاغل الحياة وهمومها ، ويعترى المسلم خصوصاً هَمٌّ من نوع خاص ألا وهو هَمُّ الحال ، حاله مع ربه تعالى بين الطاعة والمعارف التى بها تنال محبة الله تعالى ، وبين العقبات التى تارة يغرسها الشيطان ،وتارة النفس، وأخرى شياطين الإنس.

وحاله مع الناس بين المحب المعين ،وبين المبغض الصارف عن الحق ، وبين أصحاب معاول الظلم والهدم والإرجاف ، الصادِّين عن الله ورسوله .

وحاله مع نفسه تارة يفطمها عن الشر بالخير ، وتارة تقوده إلى هلكته ،نعوذ بالله .

والسعيد حقاً من كانت نفسه لوامة ،ثم ارتقى بها إلى المطمئنة ، ولا يخلص إلى هذا حتى يخلع عنها ثوب الأمر بالسوء ، وأحوال النفس من العجائب والغرائب بمكان .

ولله در إمامنا ابن القيم ، فهو بحق الطبيب النفسانى الذى شرح هذه النفس ،وبين داءها ودواءها بالجواب الكافى ، ولو تدبر المتدبر لوجد أن « مدارج السالكين » ما هو إلا درجات لهذه النفس .

فكان من الضرورى وضع منهاج ضابط لأحوال النفس، حتى لا تتداوى بالعلل التى يلبسها الشيطان على بعضهم فيظنها دواء ، ويترك دواءها لجهله بنفعه .

ولا يخرج هذا المنهاج وهذا الضابط عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

وهذا أمر يدعيه كل أحد ، لكن الفيصل عندنا ما ذكره الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبى ﷺ ». نعم ، هذا الذى يجب أن يكون القصد والغاية .

والمتتبع بنظر الإنصاف ورجاحة العقل السليم ليرى كلام ابن القيم لا يخرج عن هذا

الأصل ،كما بيَّنا هذا فى مقدمة « بدائع التفسير »،و« جامع الفقه» وسنزيده بياناً فى مقدمة « البدائع فى علوم القرآن ».

ومن هنا كان هذا البناء الذى نسأل الله تعالى إتمامه وقبوله منا ، حيث رتبنا كلام الإمام ابن القيم وفق هذه الأبواب المعهودة لهذه العلوم ،والتى انتظمت أبوابها وفصولها وفوائدها ومسائلها فى الكتب التالية :

١ـ التوبة . ٢ـ العلم والعلماء .
٣ـ لطائف الكلم. ٤ـ الفتيا وآداب المفتين .
٥ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ٦ـ الدعوة إلى الله عز وجل .
٧ـ الأذكار . ٨ـ اللباس والزينة .
٩ـ الرؤيا . ١٠ـ السلوك والزهد .
١١ـ النسب . ١٢ـ الخصائص .
١٣ـ الطب . ١٤ـ المفاضلات .
١٥ـ الأدب . ١٦ـ الفروق والمفارقات .

وستجد ـ أخى القارئ ـ وأنت تسبح فى هذا النهر الكريم درراً عليك بالتقاطها ، ووروداً عليك بضمها ، لعل الله تعالى ينفعك بها .

ولم نشأ صناعة ترجمة للإمام ابن القيم ، حيث كتبنا عنه فى « بدائع التفسير » و« جامع الفقه » ما فيه كفاية للمسترشد .

وقد سلكت فى تحقيق الكتاب نفس المنهج السابق ذكره فى مقدمة كتابى « بدائع التفسير» حيث اعتمدت فى التصحيح والتضعيف على كلام أئمة هذا الشأن ،وبالنسبة للسنن الأربعة (أبى داود ـ الترمذى ـ النسائى ـ ابن ماجه) فقد اعتمدت تصحيح أو تضعيف شيخنا العلامة الألبانى ، فما كان منها ضعيفا أشرت إليه ، وإن سكتُّ فهو من الصحيح أو الحسن ، مع ترك الاستطالة والتمادى والتخريج الذى لا حاجة فيه للقارئ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهرم فى جمادى الأولى ١٤٢٣هـ وكتبه
يوليو ٢٠٠٢م **يسرى السيد محمد الكولى**



كتاب التوبة

فصل
فى حاجة العبد إلى التوبة

ومنزل « التوبة » أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هى بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها فى النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [النور] وهذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة « لعلَّ » المشعرة بالترجى ، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم .

قال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (١١) ﴾ [الحجرات] قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثَمَّ قسم ثالث البتة . وأوقع اسم « الظالم » على من لم يتب ، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » [(١)] ، وكان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة [(٢)] ، وما صلى قط بعد إذ أنزلت عليه : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى »[(٣)] ، وصح عنه ﷺ أنه قال : « لن ينجى أحدا منكم عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » [(٤)] .

---

(١) مسلم (٢٧٠٢ / ٤٢) فى الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة ، باب : استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وأحمد ٤ / ٢٦١ ، ٥ / ٤١١ بلفظ : « مائة مرة » .

وفى البخارى (٦٣٠٧) فى الدعوات، باب: استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة ، بدون لفظ: « يا أيها الناس » .

(٢) الترمذى (٣٤٣٤) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا قام من المجلس ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) البخارى (٤٩٦٧) فى التفسير ، باب : سورة : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، ومسلم (٤٨٤ / ٢١٩) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، والنسائى (١١٢٢ ، ١١٢٣) فى التطبيق ، باب (٦٤) ، وأحمد ٦ / ٤٣ ، ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٩٠ .

(٤) البخارى (٦٤٦٣) فى الرقاق ، باب : القصد والمداومة على العمل بدون قوله : « وفضل » ، ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ... إلخ ، وأحمد ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٨ .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها [١] .

فصل
فى حقيقة التوبة

إن حقيقة « التوبة » الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره . فهى رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها ، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر ؛ ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] ، فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وقال تعالى ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات] وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم ، وزوال اسم « الظلم » عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين ، فالناس قسمان : تائب وظالم ، ليس إلا ، فالتائبون هم: ﴿ **الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ١١٢] فحفظ حدود الله جزء التوبة ، والتوبة هى مجموع هذه الأمور . وإنما سمى تائبا : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، كما تقدم .

فإذا : « التوبة » هى حقيقة دين الإسلام ، والدين كله داخل فى مسمى « التوبة » وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

فإذا : « التوبة » هى الرجوع مما يكره الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا ، ويدخل فى مسماها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وتتناول جميع المقامات ؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته ـ كما تقدم ـ وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق . والأمر والتوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها [٢] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٨ ، ١٧٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

فصل
فى اشتمال الفاتحة على بيان التوبة النصوص

ولما كانت « التوبة » هى رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم . ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن . فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علما وشهودا وحالا ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح ، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها . فإن الأول : جهل ينافى معرفة الهدى ، والثانى : غَى ينافى قصده وإرادته . فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا .

قال فى المنازل [1] : « وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وقعودك على الإصرار عن تداركه ، مع تيقنك نظر الحق إليه » .

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة : انخلاعه عن اعتصامه بالله ؛ فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران] ، فلـو كملت عصمته بالله لم يخـذله أبدا . قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] أى متى اعتصمتم به تولاكم ، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد ، وعداوتهما أضر من عدواة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج ، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله .

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له،وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك . فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده ، واشتدت عليه مفارقته ، وعلم أن الهُلك كل الهلك بعده ـ وهو حقيقة الخذلان ـ فما خَلَّى اللهُ بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك،وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يكلك الله إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها . والتوفيق : ألا يكلك الله إلى نفسك .

---

(١) يقصد الإمام الهروى .

وله ـ سبحانه ـ فى هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته ـ حكم وأسرار .

وعلى الاحتمالين فترجع « التوبة » إلى اعتصامك به وعصمته لك .

قوله : « وفرحك عند الظفر به » .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله . وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها . والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا ، ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به . ومتى خلى قلبه من هذا الحزن ، واشتدت غبطته وسروره ، فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ؛ فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام .

وهذه النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها . وهى موضع مخوف جدا ، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد فى استدراكه .

قوله : « وقعودك على الإصرار عن تداركه » .

الإصرار : هو الاستقرار على المخالفة ، والعزم على المعاودة ، وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير . وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنبا أكبر منه ، ثم الثانى كذلك ، ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك .

فالإصرار على المعصية معصية أخرى ، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها ، وذلك علامة الهلاك .

وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية ، فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين . فلذلك يشترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرا ـ ولا يزال ـ إليه مطلعا عليه ، يراه جهرة عند مواقعة الذنب ؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافرا بنظر الله إليه جاحدا له . فتوبته دخوله فى الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله .

فصل
فى شرائط التوبة

قال [١] : « وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار » .

فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى ، والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة ، فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم . فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه . وفى المسند : « الندم توبة » [٢] .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ؛ فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار محاجة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلت عَتْبك باعتـــذار ولكنى أقولُ كما تقـــول
وأطرق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الخُلُقُ الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لى ، وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلا به ، ولا إنكارا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان من غلبة الهوى ،

---

(١) أى صاحب المنازل .

(٢) أحمد ١ / ٣٧٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٥٦٨) : « إسناده صحيح » .

وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعا فى مغفرتك واتكالا على عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعا فى سعة حلمك ورحمتك ، وغرَّنى بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخى على ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك . ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية .

فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفى الحديث : « تملقوا لله »[١] ، وفى الصحيح : «لا أحد أحب إليه العذر من الله »[٢] ، وإن كان معنى ذلك الإعذار . كما قال فى آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » . وقال تعالى : ﴿ **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝** ﴾ [المرسلات] ، فإنه من تمام عدله وإحسانه أن أعذر إلى عباده . وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه . فهو أيضا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفى الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره »[٣] فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

وأما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة الله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله . كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ** ﴾ [آل عمران : ١٤] قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟ قالوا : ما المراد بها ؟ قال : إقامة أعذار الخليقة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه . وإنما المراد بها : التزهيد فى هذا الفانى الذاهب ، والترغيب فى الباقى الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يزين له ما يلعب به ، فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل « زينا للناس » .

والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝** ﴾ [الأنعام] ، وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ** ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، وفى الحديث : « بعثت هاديا وداعيا ، وليس إلى من الهداية

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخارى (٧٤١٦) فى التوحيد ، باب : قول النبى ﷺ : « ولا شخص أغير من الله » ، ومسلم (٢٧٦٠ / ٣٥) التوبة ، باب : غيرة الله تعالى ... إلخ ، و (١٤٩٩ / ١٧) فى اللعان ، وأحمد ٤ / ٢٤٨ .

(٣) أبو يعلى (٤٣٣٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٠١ : « فيه الربيع بن سليمان الأزدى ، وهو ضعيف » .

شيء ، وبعث إبليس مغويا ومزينا . وليس إليه من الضلالة شيء » [١] ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرا ، وإلى الشيطان تسببا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شيء . وفى بعض الآثار :« إن العبد إذا أذنب . فقال : يارب ، هذا قضاؤك ، وأنت قادر على ، وأنت حكمت على ، وأنت كتب على . يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه . وإذا قال : يارب ، أنا ظلمت ، وأنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك . وإذا عمل حسنة فقال : يارب أنا عملتها ، وأنا تصدقت، وأنا صليت ، وأنا أطعمت . يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك ، وأنا وفقتك . وإذا قال : يارب ، أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت على . يقول الله : وأنت عملتها . وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف ، فذلك مناف للتوبة ، واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

فصل
فى حقائق التوبة

قال صاحب المنازل : « وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، وطلب أعذار الخليقة » .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبى ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » [٢] .

فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها ، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها ، فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلا ـ لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه

---

(١) الكامل فى ضعفاء الرجال ٣ / ٣٩ ، والضعفاء الكبير ٢ / ٩ ، والموضوعات لابن الجوزى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، وتنزيه الشريعة ١ / ٣١٥ ، بلفظ : « بعثت داعيا ومبلغا » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وكشف الأستار ١ / ٢٦ (٣٢) ، قال البزار : « تفرد به يوسف وهو لين الحديث » ، وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٦٢ : « وفيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء .

فصل

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله ، فتاب للحال لا خوفا من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلبا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفا من الله ، وتعظيما له ولحرماته ، وإجلالا له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة . فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضا : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشورا بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن مكر الله طرفة عين ؛ فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿ **أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** (٣٠) ﴾ [فصلت] فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندما وخوفا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ،

وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ **لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [التوبة : ١١٠] قال : تقطعها بالتوبة . ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذا حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا ، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين . فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد . وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحا ذليلا خاشعا ، كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء ، ولا منه مهربا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه . وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد . وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جبره بها . وما أقربه بها من سيده ! فليس شىء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال : « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه » .

يامــن ألــوذ بـه فيما أؤمّلــه ... ومن أعوذ به مما أحـــــاذره
لا يَجبُر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة . فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة . وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشىء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم

منها أو دونها . ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها . فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم ، ومنّهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك . فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ، ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه . فهى رحمة فى حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة فى حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

فصل

وأما طلب أعذار الخليقة : فهذا له وجهان : وجه محمود ، ووجه مذموم حرام .

فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ؛ نظرا إلى الحكم القدرى ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر .

وهذا القدر ينتهى إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلى القدر ، الفانين فى شهوده . وهو درب خطر جدا ، قليل المنفعة ، لا ينجى وحده .

وأظن هذا مراد صاحب المنازل ؛ لأنه قال بعد ذلك :

« مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ؛ لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ، وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم : كان مضادا لله فى أمره ، عاذرا من لم يعذره الله ، طالبا عذر من لامه الله وأمر بلومه . وليست هذه موافقة لله ، بل موافقته لوم هذا ، واعتقاد أنه لا عذر له عند الله ، ولا فى نفس الأمر . فالله عز وجل قد أعذر إليه ، وأزال عذره بالكلية ، ولو كان معذورا فى نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتة ؛ فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب ، إزالة لأعذار خلقه ؛ لئلا يكون لهم عليه حجة .

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه . فلله الحجة البالغة ، ومن له عذر من خلقه - كالطفل الذى لا يميز ، والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصم الأعمى الذى لا يبصر ولا يسمع - فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا

ذنب البتة . وله فيهم حكم آخر فى المعاد ، يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم . فمن أطاع الرسول منهم ، أدخله الجنة ، ومن عصاه أدخله النار . حكى ذلك أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والحديث فى مقالاته . وفيه عدة أحاديث بعضها فى مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع ، وحديث أبى هريرة .

ومن طعن فى هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء لا دار تكليف : فهذه الأحاديث مخالفة للعقل ، فهو جاهل ؛ فإن التكليف إنما ينقطع بدخول دار القرار ، الجنة أو النار ، وإلا فالتكليف واقع فى البرزخ وفى العرصات ؛ ولهذا يدعوهم إلى السجود له فى الموقف ، فيسجد المؤمنون له طوعا واختيارا ، ويحال بين الكفار والمنافقين وبين السجود .

والمقصود : أنه لا عذر لأحد البتة فى معصية الله ، ومخالفة أمره . مع علمه بذلك ، وتمكنه من الفعل والترك . ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم ، لا فى الدنيا ولا فى العقبى .

فهذا أحد المعنيين فى قوله : « إن من حقائق التوبة : طلب أعذار الخليقة » .

المعنى الثانى : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم فى إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر فى ذلك إلى الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر فى حقك ، لا فى حق ربك ، فهذا حق . وهو من شأن سادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكمل ، يفنى أحدهم عن حقه ، ويستوفى حق ربه ، ينظر فى التفريط فى حقه ، وفى الجناية عليه إلى القدر ، وينظر فى حق الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذر فى حقه ، ويمحو عنهم العذر ويطلبه فى حق الله .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله لنفسه قط ، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء ، حتى ينتقم لله (١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها أيضا : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما ، ولا دابة ، ولا شيئا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله (٢) .

وقال أنس رضي الله عنه : خدمت النبى ﷺ عشر سنين ، فما قال لى لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء لم أصنعه : لم لم تصنعه ؟ وكان إذا عاتبنى بعض أهله يقول : « دعوه .

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٦ / ٢٣٥) فى الجنائز ، باب : التكبير على الجنائز .

(٢) أبو داود (٤٧٨٦) فى الأدب ، باب : فى التجاوز فى الأمر ، وابن ماجه (١٩٨٤) فى النكاح ، باب : ضرب النساء .

فلو قضى شىء لكان » [١] .

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حق الله [٢] ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه فى الجماعة [٣] ، ولم يقل : لو قضى لهم الصلاة لكانت .

وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا [٤] ،ولم يحتج فى ذلك لهما بالقدر .

وكذلك فعله فى العرنيين الذين قتلوا راعيه ، واستاقوا الذود ،وكفروا بعد إسلامهم [٥]. ولم يقل: قدر عليهم ،بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. وسمرت أعينهم. وتركوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون،حتى ماتوا عطشا . إلى غير ذلك مما يطول بسطه .

وكان رسول الله ﷺ أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر على ترك أمره ، ويقبل الاحتجاج به من أحد ، ومع هذا فعذر أنسا بالقدر فى حقه ، وقال : « لو قضى شىء لكان » فصلوات الله وسلامه عليه .

فهذا المعنى الثانى ـ وإن كان حقا ـ لكن ليس هو من شرائط التوبة ، ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ؛ فإنه لو لم يقم أعذارهم فى إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئا من توبته ، فما أراد إلا المعنى الأول ، وقد عرفت ما فيه .

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر ، ويقيم عليهم حكم الأمر ، فينظر بعين القدر ويعذرهم بها ، وينظر بعين الأمر ويحملهم عليها بموجبها ، فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر .

فهذا ـ وإن كان حقا لابد منه ـ فلا وجه لعذرهم ، وليس عذرهم من التوبة فى شىء البتة . ولو كان صحيحا ـ فضلا عن كونه باطلا ـ فلا هم معذورون ، ولا طلب عذرهم من حقائق التوبة ، بل التحقيق : أن الغيرة لله ، والغضب له ، من حقائق التوبة ،

---

(١) أحمد (٣ / ٢٣١) ، والسنة لابن أبى عاصم (١ / ١٥٧) رقم (٣٥٥) ، وقال العلامة الألبانى فى ظلال الجنة فى تخريج السنة : « إسناده صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجه » .

(٢) البخارى (٦٨٨٧) فى الحدود ، باب : إقامة الحدود على الشريف والوضيع ، ومسلم (٨/١٦٨٨) فى الحدود ، باب : قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود .

(٣) البخارى (٦٤٤) فى الأذان ، باب : وجوب صلاة الجماعة ، ومسلم (٦٥١ / ٢٥١) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : فضل صلاة الجماعة ، وبيان التشديد فى التخلف عنها .

(٤) البخارى (٦٨١٤) فى الحدود ، باب : رجم المحصن ، والبخارى أيضا (٦٨٢٧ ، ٦٨٢٨) فى الحدود ، باب : الاعتراف بالزنا ، ومسلم (١٦٩٥ / ٢٢) فى الحدود ، باب : من اعترف على نفسه بالزنا .

(٥) البخارى (٦٨٩٩) فى الديات ، باب : القسامة ، ومسلم (١٦٧١ / ٩) فى القسامة ، باب : حكم المحاربين والمرتدين .

فتعطيل عذر الخليقة فى مخالفة الأمر والنهى ، وشدة الغضب : هو من علامات تعظيم الحرمة . وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهى (١) .

فصل
فى سرائر حقيقة التوبة

قال صاحب المنازل : « وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التَّقيَّة من العزَّة، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة ؛ لأن التائب داخل فى الجميع من قوله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [النور] فأمر التائب بالتوبة » .

تمييز التقية من العزة : أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله ، وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ، فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله . ويترك معصية الله على نور من الله ، ويخاف عقاب الله ، لا يريد بذلك عز الطاعة ، فإن للطاعة وللتوبة عزا ظاهرا وباطنا ، فلا يكون مقصوده العزة ، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة ، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة ، وفى بعض الآثار : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا : فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى : فقد اكتسبت به العزة ، ولكن ما عملت فيما لى عليك ؟ قال : يارب ، وما لك على بعد هذا ؟ قال : هل واليت فى وليا ، أو عاديت فىَّ عدوا ؟ » .

يعنى أن الراحة والعز حظك ، وقد نلتهما بالزهد والعبادة . ولكن أين القيام بحقى ، وهو الموالاة فىَّ والمعاداة فىّ ؟ فالشأن فى التفريق فى الأوامر بين حظك وحق ربك علما وحالاً. وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم فى ذلك ، ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم ، وهم فى الصادقين كالصادقين فى الناس .

فصل

وأما نسيان الجناية : فهذا موضع تفصيل ، فقد اختلف فيه أرباب الطريق .

فمنهم : من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحا ، فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له ؛ ولهذا قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا .

ومنهم : من رأى أن الأولى ألا ينسى ذنبه ، بل لا يزال جاعلا له نصب عينيه يلاحظه كل وقت ، فيحدث له ذلك انكسارا وذلا وخضوعا ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته .

(١) مدارج السالكين (١ / ١٨٠ ـ ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧) .

قالوا : ولهذا نقش داود الخطيئة فى كفه ، وكان ينظر إليها ويبكى [١].

قالوا : ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .

ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدى الله عز وجل ، خاشعا ذليلا خائفا . وهذه طريق العبودية .

والصواب : التفصيل فى هذه المسألة ، وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوى ، ورقيقة من العجب ونسيان المنة ، وَخَطَفَتْهُ نفسهُ عن حقيقة فقره ونقصه ، فذكر الذنب أنفع له ، وإن كان فى حال مشاهدته منة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه . وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات ، فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عن ذلك ، ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له ، أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة ، والشوق : إلى وحشة الإساءة ، وحصر الجناية .

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله ،منَّ بها عليه ؛ ليؤمنه بها من مقت الدعوى ، وحجاب الكبر الخفى الذى لا يشعر به . فهذا لون وهذا لون .

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، وبالله التوفيق ، وهو المستعان .

فصل

وأما التوبة من التوبة : فهى من المجملات التى يراد بها حق وباطل ، ويكون مراد المتكلم بها حقا ، فيطلقه من غير تمييز .

فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات ، بل هى كفر ، إن أخذت على ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان ، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان ؟ .

ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته ، ولو خلى ونفسه لم تسمح بها البتة ، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به ، وغفل عن منة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغفلة . ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هى التوبة ،

(١) كل ما لم يثبت عن نبى من أنبياء الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بالكتاب والسنة لا يحتج به ؛ إلا إذا كان فى مقام التبجيل لهم والله أعلم .

ولا جزءا منها ، ولا شرطا لها ، بل هى جناية أخرى عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى . فما تاب إلا من ذنب ، أولا وآخرا . فكيف يقال : يتوب من التوبة ؟

هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح فى نفسه ، بل قد يكون فى التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك ، وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها .

وهذا أيضا ليس من التوبة ، وإنما هو توبة من عدم التوبة ، فإن القدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها ، والقدر المفقود : هو الذى يحتاج أن يتوب منه .

فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين .

نعم . ههنا وجه ثالث لطيف جدا ، وهو أن من حصل له مقام أنس بالله ، وصفا وقته مع الله ، بحيث يكون إقباله على الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شىء له ، حتى نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها ، وطالع الجناية واشتغل بها عن الله . فهذا نقص ينبغى له أن يتوب إلى الله منه ، وهو توبة من هذه التوبة ؛ لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء ، والله أعلم [1] .

فصل
فى لطائف أسرار التوبة

قال صاحب المنازل : « ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها : أن ينظر الجناية والقضية ، فيعرف مراد الله فيها ؛ إذ خلاَّك وإتيانها ؛ فإن الله عز وجل إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين :

أحدهما : أن يعرف عزته فى قضائه ، وبره فى ستره ، وحلمه فى إمهال راكبه ، وكرمه فى قبول العذر منه ، وفضله فى مغفرته .

الثانى : أن يقيم على عبده حجة عدله . فيعاقبه على ذنبه بحجته .

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور :

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه ، فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة ، والإقرار على نفسه بالذنب .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠١ ـ ٢٠٤) .

الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد ، فيحدث له ذلك خوفا وخشية ، تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها ، وتخليته بينه وبينها ، وتقديرها عليه ، وأنه لو شاء لعصمه منها ، فيحدث له ذلك أنواعا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته وعفوه ، وحلمه وكرمه ، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء ، لا تحصل بدون لوازمها البتة . ويعلم ارتباط الخلق والأمر ، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته ، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات ، وأثرها فى الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه ، متعلق به لابد منه .

وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان ، وأسرار القدر والحكمة ، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

فمن بعضها : ما ذكره الشيخ : « أن يعرف العبد عزته فى قضائه » ، وهو أنه - سبحانه - العزيز الذى يقضى بما يشاء ، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه ، بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء ، وحال بين العبد وقلبه ، وجعله مريدا شائيا لما شاء منه العزيز الحكيم . وهذا من كمال العزة . إذ لا يقدر على ذلك إلا الله . وغاية المخلوق : أن يتصرف فى بدنك وظاهرك ، وأما جعلك مريدا شائيا لما يشاؤه منك ويريد، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة .

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه ، وتمكن شهوده منه ، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له ؛ لأنه يصير مع الله لا مع نفسه .

ومن معرفة عزته فى قضائه : أن يعرف أنه مدبَّر مقهور ، ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته . ولا توفيق له إلا بمعونته ، فهو ذليل حقير ، فى قبضة عزيز حميد .

ومن شهود عزته أيضا فى قضائه : أن يشهد أن الكمال والحمد ، والغناء التام ، والعزة ، كلها لله ، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم ، والعيب والظلم والحاجة ، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله ، وحمده وغناه . وكذلك بالعكس ، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة .

ومنها : أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هى معصية . فإذا شهد جريان الحكم، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له ، مريد بإرادته ومشيئته واختياره ، فكأنه مختار غير مختار ، مريد غير مريد ، شاء غير شاء ، فهذا يشهد عزة الله وعظمته ، وكمال قدرته .

ومنها : أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه . وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه « البر » وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة ، فيبقى مع الله سبحانه ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجناياته ، وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقا ، بل فى هذه الحال ، فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذى لا يعجل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب : أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فوتها ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار لا بالقدر ؛ فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم . فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها ، أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله فى مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلا محمودا ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضا شكرا له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحا وابتهاجا به ، ومعرفة له باسمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبدا بمقتضاها . وذلك أكمل فى العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن يكمّل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه ؛ فإن النفس فيها مضاهات للربوبية ، ولو قدرت لقالت كقول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر ، وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية ، وهو أربع مراتب :

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق : وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات

والأرض جميعا محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغنى عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحدا .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية : وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة : فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى حكم الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب ، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية : فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع ، كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفا وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقرا وفاقة .

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذى يشير إليه القوم ، وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر ، بل هو لب العبودية وسرها . وحصوله أنفع شىء للعبد ، وأحب شىء إلى الله .

فلابد من تقدير لوازمه : من أسباب الضعف ، والحاجة ، وأسباب العبودية والطاعة ، وأسباب المحبة والإنابة ، وأسباب المعصية والمخالفة ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والغاية من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه ، مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته ، ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده ، والحكمة مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وقد فتح لك الباب ، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل ، وإلا فرد الباب وارجع بسلام .

ومنها : أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها . فاسم « السميع ، البصير » يقتضى مسموعا ومبصرا ، واسم « الرزاق » يقتضى مرزوقا ، واسم « الرحيم » يقتضى مرحوما ، وكذلك أسماء « الغفور ، والعفو ، والتواب ، والحليم » يقتضى من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، ويحلم . ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات ؛ إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال ، ونعوت جلال ، وأفعال حكمة وإحسان وجود ، فلابد من ظهور آثارها فى العالم . وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، ثم

يستغفرون فيغفر لهم »[١] .

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوما ، فمن يرزق الرزاق سبحانه ؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم ، فلمن يغفر ؟ وعمن يعفو ؟ وعلى من يتوب ويحلم ؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت ، والعبيد أغنياء معافون ، فأين السؤال والتضرع والابتهال ؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة ، والتخصيص ، بالإنعام والإكرام ؟[٢]

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ، ودلهم عليه بأنواع الدلالات ، وفتح لهم إليه جميع الطرقات ، ثم نصب إليه الصراط المستقيم ، وعرفهم به ودلهم عليه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

ومنها : السر الأعظم ، الذى لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، ولا ينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد ، بل شهدته قلوب خواص العباد ، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له ، وطمأنينة به وشوقا إليه ، ولهجا بذكره ، وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه ، ومطالعة لسر العبودية ، وإشرافا على حقيقة الإلهية ، وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم ، كان على راحلة بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال ـ من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى ، وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » هذا لفظ مسلم[٣] .

وفى الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ،ونحوه ، لا يؤاخذ به ؛ ولهذا لم يكن هذا كافرا بقوله : « أنت عبدى ، وأنا ربك » .

فصل

قوله « الثانى : أن يقيم على عبده حجة عدله ، فيعاقبه على ذنبه بحجته » .

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان . أطاع أم عصى . فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وبلوغ ذلك إليه ، وتمكنه من العلم به .

---

(١) مسلم (٢٧٤٨ / ٩) فى التوبة ، باب : سقوط الذنوب بالاستغفار .

(٢) وأيضًا لو افترضنا انعدام الحيوان بجملته ، لكان سبحانه وتعالى ولا يزال رازقًا سميعًا بصيرًا عفوًا غفورًا . فهذه أسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى من كمال غناه وهو الغنى بذاته .

(٣) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

سواء علم أو جهل . فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه . فقصر عنه ولم يعرفه . فقد قامت عليه الحجة . والله سبحانه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه . فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه . قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** (١٥) ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** (٨) **قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الملك] ،وقال : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** (١١٧) ﴾ [هود] .

وفى الآية قولان :

أحدهما : ما كان ليهلكها بظلم منهم .

الثانى : ما كان ليهلكها بظلم منه .

والمعنى على القول الأول : ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم ، وهم مصلحون الآن ؛ أى : إنهم بعد أن أصلحوا وتابوا ، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم .

وعلى القول الثانى : إنه لم يكن ظالما لهم فى إهلاكهم ، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون ، وإنما أهلكهم وهم ظالمون ، فهم الظالمون لمخالفتهم ، وهو العادل فى إهلاكهم ، والقولان فى آية الأنعام أيضا : ﴿ **ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** (١٣١) ﴾ [الأنعام] .

قيل : لم يكن مهلكهم بظلمهم ، وشركهم وهم غافلون ، لم ينذروا ولم يأتهم رسول .

وقيل : لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول ، فيكون قد ظلمهم ، فإنه ـ سبحانه ـ لا يأخذ أحدا ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنبًا إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسل .

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب ، علم أن الله ـ سبحانه ـ قدره سببا مقتضيا لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعة سببا مقتضيا للثواب ، وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر ، كجعل السم سببا للموت ، والنار سببا للإحراق ، والماء سببا للإغراق .

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك ـ وقد عرف أنه سبب الهلاك ـ فهلك فالحجة مركبة عليه ، والمؤاخذة لازمة له ، كالحريق مثلا . والذنب ، كالنار ، وإتيانه له ، كتقديمه نفسه للنار ، وملاحظة الحكم فيما لا يجدى عليه شيئا ، فإنما الذى يشهده عند قيام الحجة عليه : ملاحظة الأمر ، لا ملاحظة القدر .

فجعل صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين ، بل هو من ملاحظة الجناية والأمر ، لكن مراده : أن سر التقدير أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود ، كالشوك الذى لا يصلح إلا للنار ، والشجرة تشتمل على الثمر والشوك ، فاقتضى عدله ـ سبحانه ـ أن يسوق هذا العبد إلى مالا يصلح إلا له ، وأن يقيم عليه حجة عدله ، فإن قدر عليه الذنب فواقعه ، فاستحق ما خلق له ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)** ﴾ [يس] .

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الناس قسمان : حى قابل للانتفاع ، يقبل الإنذار وينتفع به ، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به ؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة ، فيحق عليه القول بالعذاب ، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه ، لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان ؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل ، وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول ، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال : لو جاءنى رسول منك لامتثلت أمرك ، فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه ، فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى ، فعوقب بكونه غير فاعل ، فحق عليه القول : أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)** ﴾ [يونس] وحق عليه العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)** ﴾ [غافر] .

فالكلمة التى حقت كلمتان : كلمة الإضلال ، وكلمة العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)** ﴾ [الزمر] وكلمته ـ سبحانه ـ إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم ، فحقت عليهم كلمة حجته ، وكلمة عدله بعقوبته .

وحاصل هذا كله : أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم ، لا مع مراد أنفسهم . فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم ، فاستحقوا كرامته ، وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده ، وعلم ـ سبحانه ـ منهم : أنهم لا يؤثرون مراده البتة ، وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم ، فأمرهم ونهاهم . فظهر بأمره ونهيه من القدر الذى قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده ، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله ، فعاقبهم بظلمهم .

فصل

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلى خمسة (١) أمور : نظر إلى الأمر والنهى ، ونظر إلى الحكم والقضاء ، وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين (٢) .

النظر الرابع (٣) : النظر إلى محل الجناية ومصدرها . وهو النفس الأمارة بالسوء ، ويفيده نظره إليها أمورا .

منها : أن يعرف أنها جاهلة ظالمة ، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع فى استقامته واعتداله البتة ، فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم ، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها .

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه ربها ومولاها ، وألا يكله إليها طرفة عين ؛ فإنه إن وكله إليها هلك ، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه ، وقال النبى ﷺ لحصين بن المنذر : « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » (٤) وفى خطبة الحاجة : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » (٥) . وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ⑨ ﴾ [الحشر] وقال ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف : ٥٣] .

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه : علم أنها منبع كل شر ، ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها ففضل من الله منَّ به عليها ، لم يكن منها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ⑦ ﴾ [الحجرات] ، فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها ، ولكن هو الله الذى مَنَّ بهما ، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿ **فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** ﴾ [الحجرات: ٨] ، « عليم » بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه ، ويثمر عنده ، « حكيم » فلا

---

(١) فى المطبوعة : « أربعة » وهو خطأ .

(٢) كما تقدم ما يتعلق بالنظر الثالث : النظر إلى الوعد والوعيد .

(٣) فى المطبوعة : « الثالث » وهو خطأ .

(٤) الترمذى (٣٤٨٣) فى الدعوات ، باب : (٧٠) ، وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) أبو داود (١٠٩٧) فى الصلاة ، باب : الرجل يخطب على قوس ، وضعفه الألبانى .

يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه .

ومنها : ما ذكره صاحب المنازل فقال :

« اللطيفة الثانية : أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال ؛ لأنه يسير بين مشاهدة المنة ، وتطلب عيب النفس والعمل » .

يريد : أن من له بصيرة بنفسه ، وبصيرة بحقوق الله ، وهو صادق فى طلبه : لم يبق له نظره فى سيئاته البتة ، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض ، والفقر الصرف ؛ لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله ، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله ، فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله ، فإن خلص له عمل وحال مع الله ، وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه به ، ومجرد فضله ، وأنه ليس من نفسه ، ولا هى أهل لذاك، فهو دائما مشاهد لمنة الله عليه ، ولعيوب نفسه وعمله ؛ لأنه متى تطلبها رآها .

وهذا من أجلّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد ؛ ولذلك كان سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (١) .

فتضمن هذا الاستغفار : الاعتراف من العبد بربوبية الله ، وإلهيته وتوحيده ، والاعتراف بأنه خالقه ، العالم به . إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه ، والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته ، لا مهرب له منه ، ولا ولى له سواه ، ثم التزام الدخول تحت عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذى عهده إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك بحسب استطاعتى ، لا بحسب أداء حقك ، فإنه غير مقدور للبشر ، وإنما هو جهد المقل ، وقدر الطاقة ؛ ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب ، ولأهل معصيتك بالعقاب ، فأنا مقيم على عهدك ، مصدق بوعدك ، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك ، فإنك إن لم تُعِذْنى من شره ، وإلا أحاطت بى الهلكة ، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك ، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك على ، وأقر وألتزم وأبخع بذنبى ، فمنك النعمة والإحسان والفضل ، ومنى الذنب والإساءة ، فأسألك أن تغفر لى بمحو ذنبى ، وأن تعفينى من شره ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار . وهو متضمن لمحض العبودية ، فأى حسنة

(١) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب : أفضل الاستغفار .

تبقى للبصير الصادق ، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنة الله عليه ؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه .

فصل

النظر الخامس [١] : نظرة إلى الآمر له بالمعصية ، المزين له فعلها ، الحاض له عليها ، وهو شيطانه الموكل به .

فيفيده النظر إليه ، وملاحظته : اتخاذه عدوا ، وكمال الاحتراز منه ، والتحفظ واليقظة ، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر ؛ فإنه يريد أن يظفر به فى عقبه من سبع عقبات ، بعضها أصعب من بعض ، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها :

العقبة الأولى : عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه ، وبصفات كماله ، وبما أخبرت به رسله عنه ، فإنه إن ظفر به فى هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح ، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسلم معه نور الإيمان طلبه على :

العقبة الثانية : وهى عقبة البدعة ، إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل الله به رسوله ، وأنزل به كتابه ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله : من الأوضاع والرسوم المحدثة فى الدين ، التى لا يقبل الله منها شيئا . والبدعتان فى الغالب متلازمتان ، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، كما قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس ، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى .

وقال شيخنا : تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة .

فإن قطع هذه العقبة ، وخلص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة ، وما مضى عليه السلف الأخيار ، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب ، فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل ، وبغوه الغوائل ، وقالوا : مبتدع محدث .

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على :

---

(١) فى المطبوعة : « الرابع » وهو خطأ .

العقبة الثالثة : وهى عقبة الكبائر ، فإن ظفر به فيها زينها له ، وحسنها فى عينه ، وسوَّف به ، وفتح له باب الإرجاء ، وقال له : الإيمان هو نفس التصديق ، فلا تقدح فيه الأعمال ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق ، وهى قوله : « لا يَضُرُّ مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة » ، والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه ؛ لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله ، وصاحبها لا يتوب منها ، ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم ، ومعاداة صريح السنة ، ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنة ، وتولية من عزله الله ورسوله ، وعزل من ولاه الله ورسوله ، واعتبار ما رده الله ورسوله ، ورد ما اعتبره ، وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه ، وإثبات مانفاه ، ونفى ماأثبته . وتكذيب الصادق ، وتصديق الكاذب ، ومعارضة الحق بالباطل ، وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، والإلحاد فى دين الله ، وتعمية الحق على القلوب ، وطلب العوج لصراط الله المستقيم ، وفتح باب تبديل الدين جملة .

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها ، حتى ينسلخ صاحبها من الدين ، كما تنسل الشعرة من العجين . فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون فى ظلمة العمى ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴿٤٠﴾﴾ [النور] .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها ، طلبه على :

العقبة الرابعة : وهى عقبة الصغائر ، فكال له منها بالقفزان ، وقال : ماعليك إذا اجتنبت الكبائر ماغشيت من اللمم ، أو ماعلمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه ، فالإصرار على الذنب أقبح منه ، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب » ، ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض ، فأعوزهم الحطب ، فجعل هذا يجىء بعود ، وهذا بعود ، حتى جمعوا حطبا كثيرا ، فأوقدوا نارا ، وأنضجوا خبزتهم ، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه [١] .

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار ، وأتبع السيئة الحسنة ، طلبه على :

---

(١) أحمد (٥ / ٣٣١) ، وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١١ / ٣٢٩) فى كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من محقرات الذنوب ، وقال : « أخرجه أحمد بسند حسن » .

العقبة الخامسة : وهى عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها ، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ماينال منه : تقويته الأرباح ، والمكاسب العظيمة . والمنازل العالية . ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئا من القربات ، ولكنه جاهل بالسعر .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم المشترى ، وقدر مايعوض به التاجر ، فبخل بأوقاته ، وضن بأنفاسه أن تذهب فى غير ربح ، طلبه العدو على :

العقبة السادسة : وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، فأمره بها ، وحسنها فى عينه ، وزينها له ، وأراه مافيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسبا وربحا ؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب ، طمع فى تخسيره كماله وفضله ، ودرجاته العالية . فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه ، وبالمرضى عن الأرضى له .

ولكن أين صاحب هذه العقبة ؟ فهم الأفراد فى العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأول .

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها فى الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤوسها وسيدها ومسودها ، فإن فى الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ، ورئيسا ومرؤوسا وذروة وما دونها ، كما فى الحديث الصحيح : « سيد الاستغفار : أن يقول العبد : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت » الحديث (١) ، وفى الحديث الآخر : « الجهاد ذروة سنام الأمر » (٢) وفى الأثر الآخر : « إن الأعمال تفاخرت ، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله ، وكان للصدقة مزية فى الفخر عليهن » ، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذى حق حقه .

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها ، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسول الله وأنبياؤه ، وأكرم الخلق عليه ، وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٢) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ماجاء فى حرمة الصلاة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة .

الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبته فى الخير ، فكلما علت علمت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله ، وظاهر عليه بجنده ، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط ، وهذه العقبة لاحيلة له فى التخلص منها ، فإنه كلما جد فى الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جد العدو فى إغراء السفهاء به ، فهو فى هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب ، وأخذ فى محاربة العدو لله وبالله ، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين ، وهى تسمى عبودية المراغمة ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له ، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه :

أحدها قوله : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾ [النساء : ١٠٠] سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغما ، يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، وإغاظته ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [التوبة] وقال تعالى فى مثل رسول الله ﷺ وأتباعه : ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له ، فموافقته فيها من كمال العبودية . وشرع النبى ﷺ للمصلى إذا سها فى صلاته سجدتين ، وقال : « إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان »[1] وفى رواية : « ترغيما للشيطان »[2] وسماها : « المرغمتين » .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر ، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة ، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين والخيلاء ، والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله ؛ لما فى ذلك من إرغام العدو ، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول .

وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه فى الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى .

(١ ، ٢) مسلم (٥٧١ / ٨٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : السهو فى الصلاة والسجود له ، وأبو داود (١٠٢٤) فى الصلاة ، باب : إذا صلى خمسا ، وابن ماجه (١٢١٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ماجاء فيمن شك فى صلاته فرجع إلى اليقين .

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار « التوبة » لا تستهزئ بها ، فلعلك لا تظفر بها فى مصنف آخر البتة ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق .

فصل
فى تصحيح الفهم للتوبة

قال صاحب المنازل : « اللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ؛ لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

هذا الكلام ـ إن أخذ على ظاهره ـ فهو من أبطل الباطل ، الذى لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنسب إلى لازم هذا الكلام ، ولكن من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ومن ذا الذى لم تزل به القدم ، ولم يكب به الجواد [1].

ومعنى هذا : أن العبد مادام فى مقام التفرقة ، فإنه يستحسن بعض الأفعال . ويستقبح بعضها ، نظرا إلى ذواتها وما افترقت فيه ، فإذا تجاوزها نظر إلى مصدرها الأول ، وصدورها عن عين الحكم ، واجتماعها كلها فى تلك العين ، وانسحاب ذيل المشيئة عليها ، ووحدة المصدر، وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة فهى بالنسبة إلى مصدر الحكم وعين المشيئة ، لا توصف بحسن ولا قبح ؛ إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون ، وجريانها عليه ، فهى بمنزلة نور الشمس واحد فى نفسه غير متلون. ولا يوصف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة. فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال ؛ لإضافته إليها،واتصاله بها،فيرى أحمر وأصفر وأخضر. وهو برىء من ذلك كله ، إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول ، المجرد عن القوابل. فهذا أحسن مايحمل عليه كلامه .

على أن له محملا آخر مبنيا على أصول فاسدة ؛ وهى أن إرادة الرب تعالى هى عين محبته ورضاه ، فكل ماشاءه فقد أحبه ورضيه ،وكل ما لم يشأه فهو مسخوط له مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو مالم يشأه ، والمحبوب المرضى هو ماشاءه .

هذا أصل عقيدة القدرية الجبرية ، المنكرين للحكم والتعليل والأسباب ، وتحسين العقل وتقبيحه ، وأن الأفعال كلها سواء ، لا يختص بعضها بما صار حسنا لأجله ، وبعضها بما صار قبيحا لأجله ، ويجوز فى العقل أن يأمر بما نهى عنه، وينهى عما أمر به ، ولا

---

(١) هذا الإنكار على المؤلف من باب إنكار الإمام أحمد رضي الله عنه ، على بعض كلام المحاسبى رحمه الله تعالى حين سمعه ، ولعل هذا وذاك من الاحتياط فى فهم الدين فهمًا يخرجه إلى التكلف والتنطع فى الفهم والمشقة فى التكليف ، ولهذا يجب أن نقف فى فهم الشرع على حدود الشرع .

وانظر من ص (٥٥) عند قول ابن القيم : والواجب . . . إلخ .

يكون ذلك مناقضا للحكمة ؛إذ الحكمة ترجع عندهم إلى مطابقة العلم الأزلى لمعلومه ، والإرادة الأزلية لمرادها ، والقدرة لمقدورها .

فإذا : الأفعال بالنسبة إلى المشيئة والإرادة مستوية ، لا توصف بحسن ولا قبح . فإذا تعلق بها الأمر والنهى صارت حينئذ حسنة وقبيحة ، وليس حسنها وقبيحها أمرا زائدا على كونها مأمورا بها ومنهيا عنها . فعلى هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهى إلى جمع المشيئة والحكم ، لم يستحسن حسنة ، ولم يستقبح قبيحة ، فإذا نزل فرق الأمر؛ صح له الاستحسان والاستقباح .

فهذا محمل ثان لكلامه .

وله محمل ثالث ـ هو أبعد الناس منه ، ولكن قد حمل عليه ـ وهو أن السالك مادام محجوبا عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية ، رأى الأفعال بعين الحسن والقبح ، فرأى منها الطاعة والمعصية ، فإذا ترقى إلى شهود الحقيقة الأولى ، وهى الحقيقة الكونية ، ورأى شمول الحكم الكونى للكائنات وإحاطته بها ، وعدم خروج ذرة منها عنه ، زال عنه استقباح شىء من الأفعال ، وشهدها كلها طاعات للأقدار والمشيئة . وفى مثل هذا الحال يقول : إن كنت عصيت الأمر ، فقد أطعت الإرادة ، ويقول :

أصبحت منفعلا لما تختاره منى ففعلى كله طاعات

فإذا ترقى مرتبة أخرى ، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد ـ كما زال عنه فى المرتبة الثانية : الفرق بين المحبوب والمسخوط ، والمأمور والمحظور ـ قال : ما ثم طاعة ، ولا معصية؛ إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة ، والمطيع عين المطاع ، فما ههنا غير . فالوحدة المطلقة تنفى الطاعة والمعصية ، فالصعود من وحدة الفعل إلى وحدة الوجود ، يزيل عنه ـ بزعمه ـ توهم الانقسام إلى طاعة ومعصية ، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلى وحدة الحكم ، يزيل عنه ثبوت المعصية .

وهذا عند القوم من الأسرار التى لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم . وأهل الوصول منهم .

لكن صاحب المنازل برىء من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفر لهم ، بل مخرج لهم من جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك ؛ لأنهم يحملون كلامه عليه ، ويظنونه منهم [1] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠٤ ـ ٢٠٩ ، ٢١٧ ـ ٢٢٩) .

فصل
ومن لطائف أسرار التوبة أيضا

أن مشاهدة حكمة الله فى أقضيته وأقداره التى يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم ، هى من ألطف ماتكلم فيه الناس وأدقه وأغمضه ، وفى ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ، ونحن نشير إلى بعضها :

فمنها : أنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين ، حتى إنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها [(١)] وليس فى أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح ، ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح .

ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه ممتنع ، وهل يوجد ملزوم بدون لازمه ، أو غاية بدون وسيلتها ؟ وهذا معنى قول بعض العارفين : ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه . فالتوبة هى غاية كمال كل آدمى ، وإنما كان كمال أبيهم بها ، فكم بين حاله وقد قيل له : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾** ﴾ [طه] ، وبين قوله : ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾** ﴾ [طه]، فالحال الأولى حال أكل وشرب وتمتع ، والحال الأخرى حال اجتباء واصطفاء وهداية ، فيا بعد ما بينهما . ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها ، كما قال تعالى : ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [الأحزاب : ٧٣] ، فكمال الآدمى فى هذه الدار بالتوبة النصوح ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة ، وهذا الكمال مرتب على كماله الأول . والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ لمحبته التوبة وفرحه بها يقضى على عبده بالذنب ، ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة ، وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ يحب أن يتفضل عليهم ، ويتم عليهم نعمه ، ويريهم مواقع بره وكرمه ، فلمحبته الإفضال والإنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع ، وأكثرها فى سائر الوجوه الظاهرة والباطنة . ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ، ويعفو عمن ظلم ، ويغفر لمن أذنب ، ويتوب على من تاب إليه ، ويقبل عذر من اعتذر إليه .

---

(١) سبق تخريجه ص٢٩ .

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة ، وهو أولى بها منهم وأحق ، وكان له فى تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول ، فسبحانه وبحمده.

وحكى بعض العارفين أنه قال: طفت فى ليلة مطيرة شديدة الظلمة ، وقد خلا الطواف وطابت نفسى، فوقفت عند الملتزم ، ودعوت الله فقلت : اللهم اعصمنى حتى لا أعصيك. فهتف بى هاتف: أنت تسألنى العصمة، وكل عبادى يسألونى العصمة، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ، ولمن أغفر ؟ قال : فبقيت ليلتى إلى الصباح أستغفر الله ؛ حياء منه .

هذا ولو شاء الله عز وجل ألا يعصى فى الأرض طرفة عين لم يعص ، ولكن اقتضت مشيئته ماهو موجب حكمته سبحانه ، فمن أجهل بالله ممن يقول : إنه يعصى قسرا بغير اختياره ومشيئته ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ له الأسماء الحسنى ، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر لابد من ترتبه عليه ، كترتب المرزوق والرزق على الرازق ، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ، ونظائر ذلك فى جميع الأسماء . فلو لم يكن فى عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه ، لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها ، وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها فى الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها، فكما أن اسمه الخالق يقتضى مخلوقا ، والبارئ يقتضى مبروءًا، والمصور يقتضى مصورا ولابد ، فأسماؤه الغفار التواب تقتضى مغفورًا له ما يغفره له ، وكذلك من يتوب عليه وأمورا يتوب عليه من أجلها ، ومن يحلم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو ، فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها . وهذا باب أوسع من أن يدرك ، واللبيب يكتفى منه باليسير ، وغليظ الحجاب فى واد ونحن فى واد :

وإن كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفى شيحه من خزامه

فتأمل ظهور هذين الاسمين : اسم الرزاق واسم الغفار فى الخليقة ترى ما يعجب العقول ، وتأمل آثارهما حق التأمل فى أعظم مجامع الخليقة ، وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ، ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلا ، فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة ، فإما متصلا بنشأته الثانية ، وإما مختصا بهذه النشأة .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ يعرف عباده عزه فى قضائه ، وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته ، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ، ولا مفر له منه ، بل هو فى قبضة مالكه وسيده ، وأنه عبده ، وابن عبده ، وابن أمته ، ناصيته بيده ، ماض فيه حكمه ، عدل فيه

قضاؤه .

ومنها : أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته ، وأنه كالوليد الطفل فى حاجته إلى من يحفظه ويصونه ، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولابد ، وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله ، إفساد شأنه كله ، وأن مولاه وسيده إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط ، فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله . فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألا يكل الله العبد إلى نفسه ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينه وبين نفسه .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته واستعانته به من شر نفسه ، وكيد عدوه ، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف ، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ، ومنها مالاتدركه العبارة ، وإنما يدرك بوجوده ، فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب ، ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائيا عنه ، وهذا الذى أثمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة « لله أفرح بتوبة عبده » ، وأسرار هذا الوجه يضيق عنها القلب واللسان ، فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شامخ بأنفه ، كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال فى نفسه فحجبته عن معبوده وإلهه ، وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات ، فهو لا يرى نفسه إلا مسيئا ، كما لا يرى ربه إلا محسنا ، فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدراؤه على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه ، وطأطأ منه ما ارتفع من غيره ، فقلبه واقف بين يدى ربه وقوف ناكس الرأس ، خاشع خاضع غاض البصر ، خاشع الصوت ، هادئ الحركات ، قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات ، فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمة والله المستعان .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته ، فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد ، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة ، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل ؛ فهو ذليل لعزه ، وذليل لقهره ، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه ، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه ، فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك معبدا له ، وذليلا تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس فى جلب كل ما ينفعه ، ودفع كل ما يضره ، وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب ، يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما :

أحدهما : ذل المحبة وهو خاصة المحبة ولبها ، بل روحها وقوامها وحقيقتها ، وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن ، وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب ، والتودد ، والتملق ، والإيثار ، والرضا ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والتندم ، وتحمل العظائم ، مالا يستخرجه الخوف وحده ، ولا الرجاء وحده ، كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبى من طاعته مالا يستخرجه خوفه ، أو كما قال ، فهذا ذل المحبين .

الثانى : ذل المعصية ، فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسوم ، وتلاشت الأنفس ، واضمحلت القوى ، وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرعونات ، وطاحت الشطحانات ، ومحى من القلب واللسان أنا وأنا ، واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر ، وتجرد الشهودان ، فلم يبق إلا شهود العز والجلال ، الشهود المحض الذى تفرد به ذو الجلال والإكرام ، الذى لا يشاركه أحد من خلقه فى ذرة من ذراته ، وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار ، فيشهد غاية ذله وانكساره ، وعزة محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه ، فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهدها فيه بالفعل ، وقد شهد مقابلها هناك ، فلله أى مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك ، وأى قرب حظى به ، وأى نعيم أدركه ، وأى روح باشره . فتأمل الآن موقع الكسرة التى حصلت له بالمعصية فى هذا الموطن ما أعجبها ، وما أعظم موقعها ، كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأمانى الباطلة ، ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ماعمل ، ثم أوجبت له استكثار قليل مايرد عليه من ربه ، لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك ، وأنه لا يستحقه ، واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا ، فهو لا يزال محسنا وعند نفسه المسيء المذنب ، متكسرا ذللا خاضعا ، لا يرتفع له رأس ، ولا يقام له صدر ، وإنما ساقه إلى هذا الذل ، والذى أورثه إياه مباشرة الذائب ، فأى شيء أنفع له من هذا الدواء .

لعل عتبك محمود عواقبه ❊ وربما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه : أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه ، وتعاظمت نفسه ، وظن أنه وأنه ، أى عظيما ، فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت إليه نفسه وذل وخضع ، وتيقن أنه وأنه ، أى عبدا ذليلا .

ومنها : أن العبد يعرف حقيقة نفسه ، وأنها الظالمة ، وأن ما صدر منها من شر فقد

صدر من أهله ومعدنه ، إذ الجهل والظلم منبع الشر كله ، وأن كل مافيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى ، هو الذى زكاها به ، وأعطاها إياه لا منها ، فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعى ظلمه وجهله ، فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو ، وتأتى بأنواع الخير والبر ، ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والخبث . وكان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (١) . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتب له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة ؛ منها : أنه يأنف من نقصها ويجتهد فى كمالها ، ومنها : أنه يعلم فقرها دائما إلى من يتولاها ويحفظها ، ومنها : أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التى ادعاها أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات ، فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها ، لم يقعوا فيما وقعوا فيه .

ومنها : تعريفه ـ سبحانه ـ عبده سعة حلمه وكرمه فى ستره عليه ، وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده ، فلم يطب له معهم عيش أبدا ، ولكن جلله بستره ، وغشاه بحلمه ، وقيض له من يحفظه وهو فى حالته تلك ، بل كان شاهدا وهو يبارزه بالمعاصى والآثام ، وهو مع ذلك يحرسه بعينه التى لاتنام ، وقد جاء فى بعض الآثار : « يقول الله تعالى : أنا الجواد الكريم ، من أعظم منى جودا وكرما ، عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلوهم فى منازلهم » ، فأى حلم أعظم من هذا الحلم ، وأى كرم أوسع من هذا الكرم ، فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض فى أماكنها ،وتأمل قوله تعالى : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ﴾** الآية [فاطر : ٤١] ، هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة ، فلولا حلمه ومغفرته لزالتا عن أماكنهما ، ومن هذا قوله : **﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) ﴾** [مريم] .

ومنها : تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته ، وأنه رهين بحقه ، فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة ، فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته ، كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

ومنها : تعريفه عبده كرمه ـ سبحانه ـ فى قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته ،

---

(١) مسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) فى الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ، وأحمد (٤ / ٣٧١) .

فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ، ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخرا ، فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقا ، وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا ، فله الفضل فى التوبة والكرم أولا وآخرا ، لا إله إلا هو .

ومنها : إقامة حجة عدله على عبده ؛ ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة ، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال : من أين هذا ؟ ولا من أين أتيت ؟ ولا بأى ذنب أصبت ؟ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه ، وما يعفو الله عنه أكثر ، وما نزل بلاء قط إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة ؛ ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده ، يكفر بها من خطاياهم ، فهى من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ، ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم ؛ نعمته عليه فيما يكره ، أو نعمته عليه فيما يحب ، وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه ، وإذا كان للذنوب عقوبات ولابد ، فكل ما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده ، وأيسر وأسهل بكثير .

ومنها : أن يعامل العبد بنى جنسه فى إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به فى إساءته وزلاته وذنوبه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فمن عفا عفا الله عنه ، ومن سامح أخاه فى إساءته إليه سامحه الله فى سيئاته ، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ، ومن استقصى استقصى عليه . ولا تنس حال الذى قبضت الملائكة روحه فقيل له : هل عملت خيرا ؟ هل عملت حسنة ؟ قال : ما أعلمه ، قيل : تذكر ، قال : كنت أبايع الناس، فكنت أنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر ، أو قال : كنت آمر فتيانى أن يتجاوزوا فى السكة ، فقال الله : نحن أحق بذلك منك [1] ، وتجاوز الله عنه ، فالله عز وجل يعامل العبد فى ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس فى ذنوبهم ، فإذا عرف العبد ذلك كان فى ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ماهو أنفع الأشياء له .

ومنها : أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء اليه ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها ، تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى ، وأنه ـ سبحانه ـ يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه ، كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه ، والله أوسع فضلا وأكرم وأجزل عطاء ، فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه ، فليتأمل هو حاله مع الله كيف هى مع فرط إحسانه إليه ، وحاجته هو إلى ربه ، وهو هكذا له ، فإذا كان العبد هكذا

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم بطرقه (١٥٦٠ /٢٦ ـ ٢٩)،و (١٥٦١/ ٣٠) فى المساقاة ، باب: فضل إنظار المعسر.

لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة .

ومنها : أنه يقيم معاذير الخلائق ، وتتسع رحمته لهم ، ويتفرج بطانه ، ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف ، وأكل بعضه بعضا ، ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم ، وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء ، فإنه حينئذ يرمى نفسه واحدا منهم ، فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه ، وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه ، فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ، ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم ، فأين هذا من حاله الأولى ، وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء ، لا يجد فى قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة ، فالذنب فى حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته ، ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم ، طاعة لله ورحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، إذ هو عين مصلحتهم ، لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

ومنها : أن يخلع صولة الطاعة من قلبه ، وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذى ليس له ، ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة ، فلو دامت تلك الصولة والعزة فى قلبه لخيف عليه ماهو من أعظم الآفات ، كما فى الحديث : « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب » (١) أو كما قال ﷺ . فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار ، كما قيل : يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استخرج منك داء العجب ، وألبست رداء العبودية . يا آدم ، لا تجزع من قولى لك : اخرج منها ، فلك خلقتها ، ولكن انزل إلى دار المجاهدة ، وابذر بذر العبودية ، فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه .

لا يوحشنك ذاك العتب أن له ... لطفا يريك الرضا فى حالة الغضب

فبينما هو لابس ثوب الإذلال الذى لا يليق بمثله ، تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب الذل الذى لا يليق بالعبد غيره ، فما لبس العبد ثوبا أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من ثوب العبودية ، وهو ثوب المذلة الذى لا عز له بغيره .

ومنها : أن لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية ؛ من الخشية والخوف والإشفاق ، وتوابعها من المحبة والإنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها ، وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها ، فكل ما قيضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له ، فهو من أسباب رحمته له ، ورُبّ ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوجل والإنابة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيجه له كثير من

---

(١) الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٧٢) فى الزهد،باب:ما جاء فى العجب ، وقال : « رواه البزار ، وإسناده جيد ».

الطاعات، وكم من ذنب كان سببا لاستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن طرق الغى ، وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه،وكان عنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها، فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التى لو دامت لترامت به إلى الفساد والعطب ، وأن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب وألطف منه،لحقيق بأن يكون الحب كله له،والطاعات كلها ل،وأن يذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر.

ومنها : أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله فى توفيقه له وحفظه إياه ، فإنه من تربى فى العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى ، ولا يعرف مقدار النعمة ، فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم فى الحقيقة ، وإن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم ، وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى ، فهم أهل النعمة المطلقة ، وإن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه ، وإن ذلك ليس من كرامته على ربه ، وإن وسع الله عليه فى الدنيا ومد له من أسبابها ، فإنهم أهل الابتلاء على الحقيقة ، فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه فى بلية وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب ، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة ، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله ، وأن يمتعه الله بعافيته .

ومنها : أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة من المقامات التى لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر ، فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته ، فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها ، بل يزال يتقلب فى بركتها وآثارها مالم ينقضها ويفسدها .

ومنها : أن الله ـ سبحانه ـ يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح ، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فلا ينسى الفرحة التى يظفر بها عند التوبة النصوح ، وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحا وأنت لا تدرى بسبب ذلك الفرح ما هو ، وهذا أمر لا يحس به إلا حى القلب ، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ، ولا يعرف فرحا غيره ، فوازن إذا بين هذين الفرحين ، وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب ، فمن يشترى فرحة ساعة بغم الأبد ! وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ، ووازن بين هذا وهذا ، ثم اختر ما يليق بك ويناسبك ، وكل يعمل على شاكلته ، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه .

ومنها : أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه فى حق ربه ، استكثر القليل من نعم ربه

عليه ، ولا قليل منه ؛ لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسيء مثله ، واستقل الكثير من عمله ؛ لعلمه بأن الذى ينبغى أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به ، فهو دائما مستقل لعلمه كائنا ما كان ، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت ، ولو لم يكن فى فوائد الذنب إلا هذا لكفى به ، فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغى أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها ، وأنه لا يقدر أن يتكلم ، وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته ، بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكماله ، وأنه كان ينبغى له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك ، ولكنه مظلوم مبخوس الحظ ، وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتا عنده ، وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون فى سفال ، فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم ، أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ، ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم ، وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والانقطاع إليه ، والتلذذ بمناجاته ، والطمأنينة بذكره ، وقرة العين بخشيته ، والرضاء به ، فيعاذا بالله من زوال نعمته ، وتحول عافيته ، وفجأة نقمته ، ومن جميع سخطه .

ومنها : أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكامنه ، ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم ، ومن أين يخرجون عليه ، وفى أى وقت يخرجون ، فهو قد استعد لهم وتأهب ، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم ، فلو أنه مر عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ، ويجتاحوه جملة .

ومنها : أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه ، معرضا عنه ، مشتغلا ببعض مهماته ، فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته ، وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما ، كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء ، بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما، والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ، ولى هاربا ، والجراحات فى أكتافه ، وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق ، فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوه ، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه ، ولا عدو أعدى له من الشيطان ، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين فى حلبة المجد جد فى أخذ الثأر ، وغاظ عدوه كل الغيظ ، وأضناه ، كما جاء عن بعض السلف : إن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره .

ومنها : أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى فى علاجهم ودوائهم ، والطبيب الذى عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذى إنما عرفه

وصفا ، هذا فى أمراض الأبدان ، وكذلك فى أمراض القلوب وأدوائها ، وهذا معنى قول بعض الصوفية : أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات ، وقال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية . ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه ، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له ، وجهادا لأعدائه ، وتكلما بإعلامه ، وتحذيرا من خلافه ؛ لكمال علمهم بضده ، فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه ، فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهادا بمعرفتهم بضده ، وذلك بمنزلة من كان فى حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة ، فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور ، فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه ، وليس حال هذا كمن ولد فى الأمن والعافية والغنى والسرور ، فإنه لم يشعر بغيره ، وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضده وهو لا يشعر ، وربما ظن أن كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضى به إلى السلامة والأمن والعافية ، فيكون هلاكه على يدى نفسه وهو لا يشعر ، وما أكثر هذا الضرب من الناس ، فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين ، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ، كان أحرى أن تدوم له النعمة ، مالم يؤثر أسباب زوالها على علم ، وفى مثل هذا قال القائل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا ، أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه ، فإذا تكلم فى الشر وأسبابه ظننته من شر الناس ، فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس ، والمقصود : أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها ، وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده ،فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله ، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ، علم أنه لا يصلح ، فوضعه فى مرتبته التى تليق به وإن استغاث استغاثة الملهوف ، وتقلق تقلق المكروب ، ودعا دعاء المضطر ، وعلم أنه قد فاتته حياته حقا ، فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه ، علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه ، فعظمت به فرحته ، وكملت به لذته ، وتمت به نعمته ، واتصل به سروره ، وعلم حينئذ مقداره ، فعض عليه بالنواجذ ، وثنى عليه الخناصر ، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض

المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك ، فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر .

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا | بعشك فادرج طالبا عشك البالى

ولا تك ممن مـــد باعـا إلى جنـا | فقصر عنه قال ذا ليس بالحالــى

فالعبد إذا بلى بعد الأنس بالوحشة وبعد القرب بنار البعاد ، اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنت وأنَّت وتصدعت ، وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا ، ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه ، فإن هذه الذكرى تمنعها القرار ، وتهيج منها البلابل ، كما قال القائل ـ وقد فاته طواف الوداع ، فركب الأخطار ورجع إليه :

ولما تذكرت المنازل بالحمـــى | ولم يقض لى تسليمة المتزود

تيقنت أن العيش ليس بنافعى | إذا أنا لم أنظر إليها بموعـــد

وإن استمر أعراضها ، ولم تحن إلى مهدها الأول ، ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها إلى مراجعة قربها من ربها ، فهى ممن إذا غاب لم يطلب ، وإذا أبق لم يسترجع ، وإذا جنى لم يستعتب ، وهذه هى النفوس التى لم تؤهل لما هنالك ، وبحسب المعترض هذا الحرمان ، فإنه يكفيه ، وذلك ذنب عقابه فيه .

ومنها : أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الإنسان ، وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما ، وبهما وقعت المحنة والابتلاء ، وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى ، والهبوط إلى أسفل سافلين ، فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار ، أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ، ولن يجعل الله من شهوته مصروفة إلى ما أعد له فى دار النعيم ، وغضبه حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه ، كمن جعل شهوته مصروفة فى هواه وأمانيه العاجلة ، وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسننه ، بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الكلمة ، وهذه حال أكثر الرؤساء ـ أعاذنا الله منها ـ فلن يجعل الله هذين الصنفين فى دار واحدة ، فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين ، وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود : أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ، ولابد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره ، فلابد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصى ، فلابد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ، ولو لم يخلقا فى الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا ، فالترتب من موجبات الإنسانية ، كما قال

النبى ﷺ : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »(١) فأما من اكتنفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ ، فهم أقل أفراد النوع الإنسانى ، وهم خلاصته ولبه .

ومنها : أن الله ـ سبحانه ـ إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته ، ورفعها من قلبه ولسانه ، فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ، ونسى طاعاته ، وجعل همه كله بذنبه ، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد ، أو غدا أو راح ، فيكون هذا عين الرحمة فى حقه ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم ، وتاب واستغفر ، وتضرع وأناب إلى الله ، وذل له وانكسر ، وعمل لها أعمالا ، فتكون سبب الرحمة فى حقه ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ، ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ، ويتكبر بها ، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها ، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار . فعلامة السعادة : أن تكون حسنات العبد خلف ظهره ، وسيئاته نصب عينيه ، وعلامة الشقاوة : أن يجعل حسناته نصب عينيه ، وسيئاته خلف ظهره ، والله المستعان .

ومنها : أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه موجب له ألا يرى لنفسه على أحد فضلا ، ولا له على أحد حقا ، فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ، ويحرم ما حرم الله ورسوله ، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم إياها ، ويذمهم على ترك القيام بها ، فإنها عنده أخس قدرا ، وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها ، أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها ، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه ، فاستراح هذا فى نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله ، فما أطيب عيشه وما أنعم باله ، وما أقر عينه ، وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ، ساخطا عليهم ، وهم عليه أسخط .

ومنها : أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها ، فإنه فى شغل بعيب نفسه ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة ، كما أن الأول من أمارات السعادة .

ومنها : أنه إذا وقع فى الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين ، وشهد أن المصيبة

(١) الترمذى (٢٤٩٩) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٤٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) فى الزهد ، باب : ذكر التوبة ، وحسنه الألبانى.

واحدة ، والجميع مشتركون فى الحاجة ، بل فى الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته ، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم ، كذلك هو أيضا ينبغى أن يستغفر لأخيه المسلم ، فيصير هجيراه : رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات ، وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة ، فيجعل له منه وردا لا يخل به . وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلا عظيما لا أحفظه ، وربما كان من جملة أوراده التى لا يخل بها ، وسمعته يقول : إن جعله بين السجدتين جائز ، فإذا شهد العبد أن إخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله ، وحقيق بهذا ألا يساعد ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وقد قال بعض السلف : إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] وامتحن هاروت وماروت بما امتحنهما به ، جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبنى آدم وتدعو الله لهم .

ومنها : أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئا خاطئا مفرطا ، مع فرط إحسان الله إليه فى كل طرفه عين وبره به ودفعه عنه ، وشدة حاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه نفسا واحدا وهذه حاله معه ، فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب ، وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة ، وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه ، وهو مع ربه ليس كذلك . وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم ، ويعفو عنه ويسامحه ، ويغضى عن الاستقصاء فى طلب حقه .
فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهى علامة كونه رحمة فى حقه ، ومن اجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهى والله علامة الشقاوة ، وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ؛ ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه ، وتتداعى السيئات فى حق مثل هذا وتتألف ، فيتولد من الذنب الواحد ماشاء الله من المتالف والمعاطب التى يهوى بها فى دركات العذاب ، والمصيبة كل المصيبة الذنب الذى يتولد من الذنب ، ثم يتولد من الاثنين ثالث ، ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا ، ومن لم يكن له فقه نفس فى هذا الباب هلك من حيث لا يشعر ، فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض ، يتلو بعضها بعضا ، ويثمر بعضها بعضا . قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها . وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد ، والله المستعان (١) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٨٦ ـ ٢٩٩) .

فصل
فى أقسام التوبة

١ ـ توبة العامة :

قال صاحب المنازل : « فتوبة العامة الاستكثار من الطاعة . وهو يدعو إلى جحود نعمة الستر والإمهال ، ورؤية الحق على الله . والاستغناء ـ الذى هو عين الجبروت ـ والتوثب على الله » .

« العامة » عندهم : من عدا باب الجمع والفناء ، وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم. وهذا مرادهم بالعامة ، ويسمونهم : « أهل الفرق » ويسميهم غلاتهم : « المحجوبين » .

ومراده : أن توبتهم مدخولة عند الخواص منقوصة ، فإن توبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات ، أى رؤيتهم كثرتها ، وذلك يتضمن ثلاث مفاسد عند الخاصة :

إحداها : أن حسناتهم التى يأتون بها : سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم ـ باستكثارها ـ عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها : هم جاحدون نعمة الله فى سترها عليهم وإمهالهم ، كستره على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله ، لكن أهل الذنوب مقرون بستره وإمهاله ، وهؤلاء جاحدون لذلك ؛ لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات ، دون مطالعة عيب النفس والعمل ، والتفتيش على دسائسهما ، وأن الحامل لهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها ؛ ولو تفرغوا لتفتيشها ، ومحاسبة النفس عليها ، والتمييز بين مافيها من الحظ والحق ، لشغلهم ذلك عن استكثارها ، ولأجل هذا كان من عدم الحضور والمراقبة والجمعية فى العمل ، خف عليه واستكثر منه . فكثر فى عينه ، وصار بمنزلة العادة ، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب ، وتنقيتها من الكدر ، وما فى ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب ، وجمعية القلب والهم على الله بكليته : وجد له ثقلا كالجبال ، وقل فى عينه ، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله ، والقيام بأعبائه ، والتلذذ والتنعم به مع ثقله .

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغى ، فانظر وقت أخذك فى القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها . وفهم ما أريد بكل آية ، وحظك من الخطاب بها ، وتنزيلها على

أدواء قلبك والتقيد بها ، كيف تدرك الختمة ـ أو أكثرها ، أو ما قرأت منها ـ بسهولة وخفة ، مستكثرا من القراءة ، فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد ، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك ، والاستشفاء به ، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين ، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة : لم تكد أن تصلى غيرهما إلا بجهد ، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب . فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هى توبة العامة .

المفسدة الثانية : رؤية فاعلها أن له حقا على الله فى مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان . ولهذا كثرت فى عينه مع غفلته عن أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار ، وأنه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته .

الثالثة : استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، بما يشهدون من استحقاق المغفرة ، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم ، فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم ، واستكثارهم منها لذلك ، وكثرتها فى عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، وذلك عين الجبروت والتوثب على الله .

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح ، من غير حضور ولا مراقبة ، ولا إقبال على الله ، قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها ، مع أنه قليل المنفعة دنيا وأخرى ، كثير المؤنة ، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود . فإنه ـ وإن كثر ـ متعب غير مفيد ، فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة ، فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها .

وهكذا ينبغى أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع ، كالطواف ، وأعمال المناسك ونحوها .

فإن انضاف إلى ذلك إحسان ظنه بها ، واستكثارها ، وعدم التفاته إلى عيوبها ونقائصها ، والتوبة إلى الله ، واستغفاره منها : جاءت تلك المفاسد التى ذكرها وما هو أكثر منها .

ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله وطاعته ، وتوثب عليه ، وأورثته الطاعات جبروتا وحجبا عن رؤيته عيوب نفسه وعمله ، وكثرت حسناته فى عينه ، فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى ، وأبعدهم عن العبودية ، وأقربهم إلى الهلاك ، لا من استكثر من الباقيات

الصالحات ، ومن مثل ما وصى به النبى ﷺ من سأله مرافقته فى الجنة . فقال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » (١) ومن قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات] . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون . وقال النبى ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنو ، كما ينفى الكير خبث الحديد » (٢) ، وقال لمن سأله أن يوصيه بشىء يتشبث به : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٣) .

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثارا منها .

وفى الحديث الصحيح الإلهى : « ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » (٤) .

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته ، لا لأهل الفناء المستغرقين فى شهود الربوبية .

وقال ﷺ لآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » (٥) .

٢ ـ توبة الأوساط :

قال (٦) : « وتوبة الأوساط : من استقلال العبد المعصية ، وهو عين الجرأة والمبارزة ، ومحض التزين بالحمية ، والاسترسال للقطيعة » .

يريد : أن استقلال المعصية ذنب ؛ كما أن استكثار الطاعة ذنب . والعارف من صغرت حسناته فى عينه ، وعظمت ذنوبه عنده ، وكلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت

---

(١) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٢) الترمذى (٨١٠) فى الحج ، باب : ما جاء فى ثواب الحج والعمرة ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٢٨٨٧) فى المناسك ، باب : فضل الحج والعمرة ، وأحمد (١ / ٢٥) .

(٣) الترمذى (٣٣٧٥) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى فضل الذكر ، وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه (٣٧٩٣) فى الأدب ، باب : فضل الذكر .

(٤) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

(٥) مسلم (٤٨٨ / ٢٢٥) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٦) أى صاحب المنازل .

عند الله ، وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قلت وصغرت عند الله ، وسيئاتك بالعكس . ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية : تلاشت حسناته عنده ، وصغرت جدا فى عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه ، وأن الذى يليق بعزته ، ويصلح له من العبودية : أمر آخر ، وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها ؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه ، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين . وإذا كثرت فى عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله ، غير عارف به وبما ينبغى له ، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه ، وتعظم فى عينه ؛ لمشاهدته الحق ومستحقه ، وتقصيره فى القيام به ، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه .

إذا عرف هذا ، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله ، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه . وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها ، وخفت على قلبه ، وذلك نوع مبارزة .

وأما قوله: « ومحض التزين بالحمية » ،أى: بالمحاماة عن النفس، وإظهار براءة ساحتها ، لاسيما إن انضاف إلى ذلك مشاهدة الحقيقة ، والاحتجاج بالقدر . وقوله : وأى ذنب لى ، والمحرك لى غيرى ، والفاعل فى سواى ؟ وإنما أنا كالميت بين يدى الغاسل ؟ وما حيلة من ليس له حيلة ، وما قدرة من ليس له قدرة ؟ ونحو هذا مما يتضمن الجرأة على الله ومبارزته ، والمحاماة عن النفس ، واستصغار ذنوبه ومعاصيه إذا أضافها إلى الحكم . فيسترسل إذًا للقطيعة ، وهى المقاطعة لربه ، والانقطاع عنه ، فيصير خصما لله مع نفسه وشيطانه . وهذا حال المحتجين بالقدر على الذنوب ، فإنهم خصماء الله عز وجل ، وهم مع الشياطين والنفوس على الله ، وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله ؟

فإن قلت : فكيف كانت توبة العامة من استكثار الطاعات ؟ وتوبة من هم أخص منهم وأعلى درجة من استقلال المعصية ؟ وهلا كان الأمر بالضد ؟

قلت : الأوساط لما كانوا أشد طلبا لعيوب النفس والعمل ، وأكثر تفتيشا عليها : انكشف لهم من ذنوبهم ومعاصيهم ما لم ينكشف للعامة ؛ إذ حرص العامة على الاستكثار من الطاعات ؛ ولذلك كثرت فى أعينهم ، وحرص هؤلاء على تنقية أنفسهم من الآفات ، والتفتيش على عيوب الأعمال ، فاستقلال السيئات آفة هؤلاء ، وقاطع طريقهم ، واستكثار الحسنات وعظمها فى قلوب أولئك آفتهم ، وقاطع طريقهم . فذكر ما هو الأخص الأغلب على كل واحدة من الطائفتين .

٣ ـ توبة الخواص :

قال : « وتوبة الخواص : من تضييع الوقت ؛ فإنه يفضى إلى درك النقيصة ويطفئ نور المراقبة ، ويكدر عين الصحبة » .

ليس مراده بتضييع الوقت : إضاعته فى الاشتغال بمعصية أو لغو ، أو الإعراض عن واجبه وفرضه ، فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنى لم يكونوا من الخواص ، بل هذه توبة العامة بعينها . و « الوقت » عند القوم : أخص منه فى لغة العرب ، حتى إن منهم من يقول : « الوقت : هو الحق » ، ومنهم من يقول : « استغراق رسم العبد فى وجود الحق » ، يشيرون إلى الفناء فى حضرة الجمع . والغالب على اصطلاحهم : أنه من الإقبال على الله بالمراقبة ، والحضور والفناء فى الوحدانية . ويقولون : هو صاحب وقت مع الله . فخصوا « الوقت » بهذا الاسم تخصيصا للفظ العام ببعض أفراده ، وإلا فكل من هو مشغول بأمر يعنى به فإن فى شهوده وطلبه ، فله وقت معه ، بل أوقاته مستغرقة فيه .

فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص الذى هو وقت وجد صادق ، وحال صحيحة مع الله لا يكدرها الأغيار .

والقصد : أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة ، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ، فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولا بد ، فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، إما إلى أمام وإما إلى وراء ، وليس فى الطبيعة ، ولا فى الشريعة وقوف البتة ، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طى إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر ، وليس فى الطريق واقف البتة ، وإنما يتخالفون فى جهة المسير ، وفى السرعة والبطء ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المدثر] ولم يذكر واقفا ، إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد فى طلب شىء لابد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض إلى طلبه .

قلت : لابد من ذلك ، ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجم نفسه ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته سير ، ولا تضره الوقفة . فإن « لكل عمل شرة ، ولكل شرة

فترة »[١] .

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخره ولا بد ، فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب وجمز واشتد سعيا ليلحق الركب ، وإن استمر مع داعى التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعى الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركا ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض ، فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه ، وتخليصه ، وإلا فهو فى تأخر إلى الممات ، راجع القهقرى ، ناكص على عقبيه ، أو مول ظهره ، ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله .

وقوله : « ويطفئ نور المراقبة » : يعنى أن المراقبة تعطى نورا كاشفا لحقائق المعرفة والعبودية ، وإضاعة الوقت تغطى ذلك النور ، وتكدر عين الصحبة مع الله ، فإن صاحب الوقت مع صحبة الله ، وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله ، فإن كان مع الله كان الله معه ، فإذا أضاع وقته كدر عين هذه المعية الخاصة ، وتعرض لقطع هذه الصحبة ، فلا شىء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله ، ويخشى عليه إن لم يتداركه بالرجوع : أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة ، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته ، وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه ، ويكون حاله شبيها بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة ، حتى إذا عاينوها وشاهدوا مافيها ، صرفت وجوههم عنها إلى النار ،فإذن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التى تدعو إلى هذه الأمور.

٤ ـ توبة المحبين الصادقين :

وفوق هذا مقام آخر من التوبة ، أرفع منه وأخص . لا يعرفه إلا الخواص المحبون ، الذين يستقلون فى حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها ، ويرون شأن محبوبهم أعظم ، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له ، فهم أشد شىء احتقارا لها ، وإزراء عليها ، وإذا غفلوا عن مراد

---

(١) الترمذى (٢٤٥٣) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٢١) ، وقال : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، وأحمد (٢ / ١٦٥) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٦٥٣٩) : « إسناده صحيح » ، والسنة لابن أبى عاصم (١ / ٢٨) رقم (٥١) وقال الشيخ الألبانى : « إسناده صحيح على شرط الشيخين » وبقية الحديث : « فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » .

محبوبهم منهم ، ولم يوفوه حقه ، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها ، فالتوبة لا تفارقهم أبدا ، وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون ﴿ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف] ، وكلما ازدادوا حبا له ازدادوا معرفة بحقه ، وشهودا لتقصيرهم ، فعظمت لذلك توبتهم ؛ ولذلك كان خوفهم أشد ، وإزراؤهم على أنفسهم أعظم ، وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم .

وبالجملة : فتوبة المحبين الصادقين العارفين بربهم وبحقه : هى التوبة ، وسواهم محجوب عنها ، وفوق هذه توبة أخرى ، الأولى بنا الإضراب عنها صفحا .

فصل
فيما يتم به مقام التوبة

قال صاحب المنازل : « ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق ، ثم رؤية علة التوبة ، ثم التوبة من رؤية تلك العلة » .

التوبة مما دون الله : أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى ، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته ، فيكون كله له وبه .

وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة ، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالا وتعظيما ، وذلا وخضوعا وانكسارا بين يديه ، وافتقارا إليه .

فإذا صح له ذلك بقيت عليه عندهم بقية أخرى ، هى علة فى توبته ، وهى شعوره بها ، ورؤيته لها ، وعدم فنائه عنها ، وذلك بالنسبة إلى مقامه وحاله ذنب ، فيتوب من هذه الرؤية .

فهاهنا ثلاثة أمور : توبته مما سوى الله ، ورؤيته هذه التوبة ، وهى علتها . وتوبته من رؤية تلك الرؤية ، وهذا عند القوم الغاية التى لا شىء بعدها ، والنهاية التى لا تكون إلا لخاصة الخاصة،ولعمر الله إن رؤية العبد فعله ، واحتجابه به عن ربه ، ومشاهدته له : علة فى طريقه موجبة للتوبة .

وأما رؤيته له واقعا بمنة الله وفضله ، وحوله وقوته وإعانته : فهذا أكمل من غيبته عنه ، وهو أكمل من المقام الذى يشيرون إليه ، وأتم عبودية ، وأدعى للمحبة وشهود المنة ، إذ يستحيل شهود المنة على شىء لا شعور للشاهد به البتة .

والذى ساقهم إلى ذلك : سلوك وادى الفناء فى الشهود ، فلا يشهد مع الحق سببا ،

ولا وسيلة ولا رسما البتة .

ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام ، وأن السالك ينتهى إليه ، ويجد له حلاوة ووجدا ولذة لا يجدها لغيره البتة ، وإنما يطالب أربابه والمشمرون إليه بأمر وراءه ، وهو أن هذا هو الكمال ، وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها ، ورأى تفاصيلها مشاهدا لها ، صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته ، فشهد عبوديته مع شهود معبوده ، ولم يغب فى شهود العبودية عن المعبود ، ولا بشهود المعبود عن العبودية ، فكلاهما نقص . والكمال : أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته ، فيجتمع لك الشهودان ، فإن غبت بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة ، وهل فى الغيبة عن العبودية إلا هضم لها ؟

والواجب : أن يقع التحاكم فى ذلك إلى الله ورسوله ، وإلى حقائق الإيمان دون الذوق ، فإننا لا ننكر ذوق هذه الحال ، وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها ، فأين الإشارة فى القرآن ، أو فى السنة ، أو فى كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلى هذا الفناء ، وأنه هو الكمال ، وأن رؤية العبد لفعله بالله وحوله وفضله وشهوده له كذلك : علة تجب التوبة منها ؟

وهذا القدر مما يصعب إنكاره على القوم جدا ، ويرمون منكره بأنه محجوب من أهل الفرق ، وأنه لم يصل إلى هذا المقام ، ولو وصل إليه لما أنكره ، وليس فى شىء من ذلك حجة لتصحيح قولهم ، ولا جواب المطالبة ، فقد سألك هذا المحجوب عن مسألة شرعية ، وما ذكرتموه ليس بجواب لها .

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال ، ومقام أرفع منه ، وليس فى مجرد الفناء والاستغراق فى شهود القيومية ، وإسقاط الأسباب والعلل والحكم والوسائط كثير علم ، ولا معرفة ولا عبودية ، وهل المعرفة كل المعرفة ، والعبودية : إلا شهود الأشياء على ما هى عليه ؟ والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكر فى الآيات ، والنظر فى أحوال المخلوقات . ونظر الإنسان فى نفسه وتفاصيل أحواله ، وأخص من ذلك : نظره فيما قدم لغده ، ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية ، وتذكر ذلك والتفكر فيه ، وحمد الله وشكره عليه ، وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية ، وشهود الشهود .

ثم إن هذا غير ممكن البتة ، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها ، فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضا علة توجب عليه توبة ، وهلم جرا . فلا ينتهى الأمر إلا بسقوط التمييز جملة ، والسكر والطمس المنافى للعبودية ، فضلا عن أن يكون غاية للعبودية (١) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ـ ٢٧١) .

فصل
فيما يتعلق بأحكام التوبة

ونذكر نبذا تتعلق بأحكام التوبة ، تشتد الحاجة إليها ، ولا يليق بالعبد جهلها .

منها : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخير ، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى ، وهى توبته من تأخير التوبة . وقل أن تخطر هذه ببال التائب ، بل عنده : أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر ، وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة . ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ، ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم . فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يارسول الله ؟ قال : أن تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » (١) .

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد .

وفى الصحيح عنه ﷺ : أنه كان يدعو فى صلاته : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » (٢) .

وفى الحديث الآخر : « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، خطأه وعمده ، سره وعلانيته ، أوله وآخره » (٣) .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ماعلمه العبد من ذنوبه ومالم يعلم (٤) .

---

(١) أحمد (٤ / ٤٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) فى التوبة ، باب : ما يقول إذا خاف شيئا من الرياء : « رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى على ووثقه ابن حبان »، وقال الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٣١) : « صحيح » .

(٢) البخارى (٦٣٩٨، ٦٣٩٩) فى الدعوات، باب: قول النبى ﷺ :«اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت » ، ومسلم « ٢٧١٩ / ٧٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل .

(٣) مسلم (٤٨٣ / ٢١٦) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٨) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

فصل

ومن أحكام التوبة أنه : هل يشترط فى صحتها ألا يعود إلى الذنب أبدا ، أم ليس ذلك بشرط ؟

فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب ، وقال : متى عاد إليه تبيَّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته .

فإن كانت فى حق آدمى : فهل يشترط تحلله ؟ فيه تفصيل ـ سنذكره إن شاء الله ـ فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على ألا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

والمسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية ، فلا يعود إليه إثمه ، وإنما يعاقب على هذا الأخير ؟

وفى هذا الأصل قولان :

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ؛ لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة .

قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ماقبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » (١) . فهذا حال من أساء فى إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإسلام ، فإذا أخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها . والمعلق على الشرط

---

(١) البخارى (٦٩٢١) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : إثم من أشرك بالله وعقوبته فى الدنيا والآخرة ، ومسلم (١٢٠ / ١٨٩ ، ١٩٠) فى الإيمان ، باب : هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية .

يعدم عند عدم الشرط ، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه .

قالوا : والتوبة واجبة وجوبا مضيقا مدى العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره ، فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم ، فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ماتقدم من صيامه . ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئا من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » (١) ، وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفرا موجبا للخلود ، أو معصية موجبة للدخول ، فإنه لم يقل : « فيرتد فيفارق الإسلام » ،وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار ، وفى بعض السنن : « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار » (٢) ؛فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم .

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات ، وهذا قول المعتزلة ، والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هى التى تحبط السيئات لا العكس ، كما قال : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] ، وقال النبى ﷺ لمعاذ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (٣) .

قيل : والقرآن والسنة قد دلا على الموازنة ، وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض ، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعل أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله ، ونرد الباطل على من قاله .

فأما الموازنة : فمذكورة فى سورة الأعراف (٤) ،والأنبياء (٥) ، والمؤمنون (٦) ، والقارعة ، والحاقة (٧) .

---

(١) البخارى (٣٣٣٢) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٦٤٣ / ١) فى القدر ، باب : كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

(٢) أبو داود (٢٨٦٧) فى الوصايا ، باب : ما جاء فى كراهية الإضرار فى الوصية ، والترمذى (٢١١٧) فى الوصايا ، باب : ما جاء فى الضرار فى الوصية ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٢٧٠٤) فى الوصايا ، باب : الحيف فى الوصية ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (١٩٨٧) فى البر والصلة ، باب :ماجاء فى معاشرة الناس ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد (٥ / ٢٢٨) ، وقال الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧) : « حسن » . .

(٤) الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٥) الآية : ٤٧ .

(٦) الآيات : ١٠١ ـ ١١١ .

(٧) الآيات : ١٩ ـ ٣٧ .

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** (٣٣) ﴾ [محمد] وتفسير الإبطال هاهنا بالردة ؛ لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ** ﴾ [البقرة : ٢٦٤] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها . شبه سبحانه بطلانها ـ بالمن والأذى ـ بحال المتصدق رياء فى بطلان صدقة كل واحد منهما ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** (٢) ﴾ [الحجرات] ،وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » (١) ، وقالت عائشة ﵂ ، لأم ولد زيد بن أرقم ـ وقد باع بيع العينة : « أخبرى زيدا : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ؛ إلا أن يتوب » ، وقد نص أحمد على هذا فى رواية ، فقال : ينبغى للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه . فيستدين ويتزوج ، لا يقع فى محظور فيحبط عمله .

فإذا استقرت قاعدة الشريعة ـ أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص ـ جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة ، فتصير التوبة كأنها لم تكن ، فيلتقى العملان ولا حاجز بينهما ، فيكون التأثير لهما جميعا .

واحتج الفريق الآخر ـ وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة ـ بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة ، وصار بمنزلة ما لم يعمله ، وكأنه لم يكن ، فلا يعود إليه بعد ذلك ، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى .

قالوا : ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك : محى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك . فإذا استأنفه استأنف إثمه .

قالوا : فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال ، فإن الكفر له شأن آخر ؛ ولهذا يحبط جميع الحسنات ، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات .

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات ، فلو أبطلتها معاودة الذنب : لأبطلت غيرها من الحسنات ، وهذا باطل قطعا . وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب ، والمعتزلة المخلدين فى النار بالكبيرة ، التى تقدمها الألوف من الحسنات ، فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار ، ولكن الخوارج كفروهم ، والمعتزلة فسقوهم ، وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام ، مخالف للمنقول والمعقول ، وموجب العدل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** (٤٠) ﴾ [النساء] .

---

(١) البخارى (٥٥٣) فى مواقيت الصلاة ، باب : من ترك صلاة العصر ، وأحمد (٥ / ٣٥٥) .

قالوا : وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن الله يحب العبد المفتن التواب » (١) .

قلت : وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه ، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوبا للرب ، ولكان ذلك أدعى إلى مقته .

قالوا : وقد علق الله ـ سبحانه ـ قبول التوبة بالاستغفار ، وعدم الإصرار ، دون المعاودة . فقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٣٥) ﴾ [آل عمران] والإصرار : عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به ، فهذا الذى يمنع مغفرته .

قالوا : وأما استمرار التوبة : فشرط فى صحة كمالها ونفعها ، لا شرط فى صحة مامضى منها . وليس كذلك العبادات ، كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة ، فإن تلك عبادة واحدة ، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها ، وأما التوبة : فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب ، فكل ذنب له توبة تخصه ، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى ، لم يكن ما ترك موجبا لبطلان مافعل .

بل نظير هذا : أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه ؟

بل نظير من صلى ولم يصم ، أو زكى ولم يحج .

ونكتة المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات .

قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر ، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين ، ويكون محبوبا لله مبغوضا له من وجهين أيضا ، بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر ، فيكون من أهله ، كما قال تعالى : ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ [آل عمران : ١٦٧] وقال : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** (١٠٦) ﴾ [يوسف] أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم مامعهم من الإيمان بالله ، وإن كان معه تصديق لرسله ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لاتخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر ، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق

---

(١) أحمد (١ / ٨٠) وقال العلامة أحمد شاكر (٦٠٥) : « إسناده ضعيف جدا » .

أرباب الكبائر .

وشركهم قسمان : شرك خفى ، وشرك جلى . فالخفى قد يغفر ، وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة ، لما قام بهم من السببين .

فإذا ثبت هذا ، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب ، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة . فيرتب الله ـ سبحانه ـ على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ، ولا يظلم مثقال ذرة : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] .

فصل

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها ، ثم تاب منها توبة نصوحا خالصة : عادت إليه حسناته ، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها ، بل يقال له : تبت على ما أسلفت من خير ، فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره : من عتاقة ، وصدقة ، وصلة . وقد قال حكيم بن حزام : يا رسول الله ، أرأيت عتاقة أعتقتها فى الجاهلية ، وصدقة تصدقت بها ، وصلة وصلت بها رحمى ، فهل لى فيها من أجر ؟ فقال : « أسلمت على ما أسلفت من خير »[١] وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة ، وصارت كأنها لم تكن ، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا [٢] ، والله أعلم .

فصل

ومن أحكامها : أن العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية ، وعجز عنها ، بحيث يتعذر وقوعها منه ، هل تصح توبته ؟ وهذا كالكاذب والقاذف ، وشاهد الزور إذا قطع لسانه ، والزانى إذا جب ، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة ، والمزور إذا قطعت يده ، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها .

ففى هذا قولان للناس :

(١) البخارى (١٤٣٦) فى الزكاة ، باب : من تصدق فى الشرك ثم أسلم ، ومسلم (١٢٣ / ١٩٤) فى الإيمان ، باب : بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده .

(٢) وهذا بين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) ﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) ﴾ [الزلزلة : ٧] ولا شك أن التوبة من الأعمال الحسنة الخيرة ، فلا يضيعها الله تعالى ، والله أعلم . وانظر تفصيل المسألة ص (٨٨) .

فقالت طائفة : لا تصح توبته ؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك ، فالتوبة من الممكن ، لا من المستحيل . ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلى السماء ، ونحوه .

قالوا : ولأن التوبة مخالفة داعى النفس ، وإجابة داعى الحق ، ولا داعى للنفس هنا ، إذ يعلم استحالة الفعل منها .

قالوا : ولأن هذا كالمكره على الترك المحمول عليه قهرا ، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا : ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم : أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح : توبة غير معتبرة ، ولا يحمدون عليها ، بل يسمونها توبة إفلاس ، وتوبة جائحة .

قال الشاعر :

ورحت عن توبة سائلا وجدتها توبة إفلاس

قالوا : ويدل على هذا أيضا : أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع ؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)** ﴾ [النساء] و « الجهالة » هاهنا : جهالة العمل ، وإن كان عالما بالتحريم . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ماعصى الله به فهو جهالة ، عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل .

وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين : على أنها التوبة قبل المعاينة . قال عكرمة: قبل الموت . وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت . وقال السدى والكلبى : أن يتوب فى صحته قبل مرض موته . وفى المسند وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [(١)] وفى نسخة دراج ـ أبى الهيثم ـ عن أبى سعيد مرفوعا : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الرب عز وجل: وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » [(٢)].

فهذا شأن التائب من قريب ، وأما إذا وقع فى السياق فقال : إنى تبت الآن ، لم

---

(١) الترمذى (٣٥٣٧) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٤٢٥٣) فى الزهد ، باب : ذكر التوبة ، وفى الزوائد : « فى إسناده الوليد بن مسلم وهو مدلس ، وقد عنعنه وكذلك مكحول الدمشقى » ، وقال الشيخ الألبانى : « حسن » . ، وأحمد (٢ / ١٣٢) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٦١٦٠) : « إسناده صحيح » .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٦١) ، وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، وأحمد (٣ / ٢٩) ، وانظر تخريجه مفصل فى السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (١٠٤) .

تقبل توبته ، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار ، فهى كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، ويوم القيامة ، وعند معاينة بأس الله .

قالوا : ولأن حقيقة التوبة : هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى ، والكف إنما يكون عن أمر مقدور . وأما المحال : فلا يعقل كف النفس عنه ، ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب ، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع .

قالوا : ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم ، يقترن به فعل المقدور ، والتوبة منه : عزم جازم على ترك المقدور ، يقترن به الترك . والعزم على غير المقدور محال ، والترك فى حق هذا ضرورى ، لا عزم غير مقدور ، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء ، ونقل الجبال وغير ذلك .

والقول الثانى : وهو الصواب : أن توبته صحيحة ممكنة ،بل واقعة ، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه ، والمقدور له منها الندم .وفى المسند مرفوعا : « الندم توبة » [(١)] ،فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه،فهذه توبة . وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه،مع شدة ندمه على الذنب ،ولومه نفسه عليه ؟ ولا سيما مايتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه ،وعزمه الجازم،ونيته أنه لو كان صحيحا والفعل مقدورا له لما فعله .

وإذا كان الشارع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها ، إذا صحت نيته ، كقوله فى الحديث الصحيح : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما » [(٢)]. وفى الصحيح أيضا عنه : « إن بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » [(٣)] وله نظائر فى الحديث . فتنزيل العاجز عن المعصية ، التارك لها قهرا ـ مع نيته تركها اختيارا لو أمكنه ـ منزلة التارك المختار أولى .

يوضحه : أن مفسدة الذنب التى يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة ، ومنشأ المفسدة معدوم فى حق هذا العاجز فعلا وعزما ، والعقوبة تابعة للمفسدة .

وأيضا ، فإن هذا تعذر منه الفعل ما تتعذر منه التمنى والوداد ، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب ، ومن نيته : أنه لو كان سليما لباشره ، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمنى ، والحزن على فوته ، فإن الإصرار متصور فى حقه قطعا ، فيتصور فى حقه ضده ،

---

(١) أحمد (١ / ٣٧٦) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٣٥٦٨) : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٢٩٩٦) فى الجهاد ، باب : يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل فى الإقامة ، وأحمد (٤ / ٤١٠) .

(٣) البخارى (٢٨٣٩) فى الجهاد ، باب : من حبسه العذر عن الغزو .

وهو التوبة ، بل هى أولى بالإمكان والتصور من الإصرار ، وهذا واضح .

والفرق بين هذا وبين المعاين ، ومن ورد القيامة : أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة ، والتوبة إنما تكون فى زمن التكليف ، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف ، فالأوامر والنواهى لازمة له ، والكف متصور منه عن التمنى والوداد ، والأسف على فوته ، وتبديل ذلك الندم والحزن على فعله ، والله أعلم .

فصل

ومن أحكامها : أن من توغل فى ذنب ، وعزم على التوبة منه ، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه ، كمن أولج فى فرج حرام ، ثم عزم على التوبة قبل النزع الذى هو جزء الوطء ، وكمن توسط أرضا مغصوبة ، ثم عزم على التوبة ، ولا يمكنه إلا بالخروج ، الذى هو مشى فيها وتصرف ، فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله ؟ وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام ؟

فهذا مما أشكل على بعض الناس ، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه فى هذا الفعل الذى يتخلص به من الحرام .

قال : لأنه لا يمكن أن يكون مأمورا به وهو حرام ، وقد تعين فى حقه طريقا للخلاص من الحرام ، لايمكنه التخلص بدونه ، فلا حكم فى هذا الفعل البتة . وهو بمنزلة العفو الذى لا يدخل تحت التكليف .

وقالت طائفة : بل هو حرام واجب ، فهو ذو وجهين ؛ مأمور به من أحدهما ، منهى عنه من الآخر . فيؤمر به من حيث تعينه طريقا للخلاص من الحرام ، وهو من هذا الوجه واجب . وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام ، وهو من هذا الوجه محرم ، فيستحق عليه الثواب والعقاب .

قالوا : ولا يمتنع كون الفعل فى الشرع ذا وجهين مختلفين ، كالاشتغال عن الحرام بمباح ، فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته ـ مع قطع النظر عن ترك الحرام ـ قضينا بإباحته ، وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركا للحرام كان واجبا .

نعم ، غايته : أنه لا يتعين مباح دون مباح ، فيكون واجبا مخيرا .

قالوا : وكذلك الصلاة فى الدار المغصوبة ، هى حرام ، وهى واجبة . وستر العورة بثوب الحرير كذلك : حرام واجب ، من وجهين مختلفين .

والصواب : أن هذا النزع والخروج من الأرض : توبة ليس بحرام ، إذ هو مأمور به ، ومحال أن يؤمر بالحرام . وإنما كان النزع ـ الذى هو جزء الوطء ـ حراما بقصد التلذذ به ، وتكميل الوطء . وأما النزع الذى يقصد به مفارقة الحرام ، وقطع لذة المعصية ، فلا دليل على تحريمه ، لا من نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح يستوى فيه الأصل والفرع فى علة الحكم .

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها . وحكمه فيها : الأمر بالنزع قطعا ، وإلا كانت الاستدامة مباحة ، وذلك عين المحال . وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة : مأمور به ، وإنما تكون الحركة والتصرف فى ملك الغير حراما إذا كان على وجه الانتفاع بها ، المتضمن لإضرار مالكها ، أما إذا كان القصد ترك الانتفاع ، وإزالة الضرر عن المالك ، فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك ، ولا دل على تحريمه نظر صحيح ، ولا قياس صحيح .

وقياسه على مشى مستديم الغصب ، وقياس نزع التائب على نزع المستديم : من أفسد القياس وأبينه بطلانا ، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان . ولكن إذا تحقق النهى عنه والأمر به : أمكن اعتبار وجهيه ، فإن الشارع أمر بستر العورة . ونهى عن لبس الحرير ، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين ، فصار فعله ذا وجهين .

وأما محل النزاع : فلم يتحقق فيه النهى عن النزع ، والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع البتة ، لا بقوله ولا بمعقول قوله ، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر ، بينهما أشد تباين ، وأعظم فرق فى الحس والعقل والفطرة والشرع .

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو : فإن أريد به أنه : معفوٌ له عن المؤاخذة به فصحيح ، وإن أريد أنه لا حكم لله فيه ، بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم ، والناسى والمجنون : فباطل . إذ هؤلاء غير مخاطبين ، وهذا مخاطب بالنزع والخروج ، فظهر الفرق ، والله الموفق للصواب .

فإن قيل : هذا يتأتى لكم فيما إذا لم يكن فى المفارقة بنزع أو خروج مفسدة ، فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة ؟ مثل مفسدة الإقامة ، كمن توسط جماعة جرحى لسلبهم . فطرح نفسه على واحد ، إن أقام عليه قتله بثقله ، وإن انتقل عنه لم يجد بدا من انتقاله إلى مثله يقتله بثقله ، وقد عزم على التوبة ، فكيف تكون توبته ؟

قيل : توبة مثل هذا : بالتزام أخف المفسدتين ، من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه ، فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه ، فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها ، وهو الندم ، والعزم الجازم على ترك المعاودة ، وأما

الإقلاع : فقد تعذر فى حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته .

فقيل : إنه لا حكم لله فى هذه الحادثة ، لاستحالة ثبوت شيء من الأحكام الخمسة فيها ، إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله ، فلا يؤمر بها ، ولا هو مأذون له فيها . وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر ، فلا يؤمر بالانتقال ، ولا يؤذن له فيه ، فيعتذر الحكم فى هذه الحادثة على هذا ، فتتعذر التوبة منها .

والصواب : أن التوبة غير متعذرة ؛ فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم ، علمه من علمه وجهله من جهله .

فيقال : حكم الله فى هذه الواقعة : كحكمه فى الملجأ ، فإنه قد ألجئ قدرا إلى إتلاف أحد النفسين ولابد ، والملجأ ليس له فعل يضاف إليه ، بل هو آلة ، فإذا صار هذا كالملجأ ، فحكمه : ألا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار ، فلا يعدل من واحد إلى واحد ، بل يتخلى عن الحركة والاختيار ، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى . إذ لا قدرة له على حركة مأذون له فيها البتة ، فحكمة الفناء عن الحركة والاختيار ، وشهود نفسه كالحجر الملقى على هذا الجريح . ولا سيما إن كان قد ألقى عليه بغير اختياره ، فليس له أن يلقى نفسه على جاره لينجيه بقتله ، والقدر ألقاه على الأول ، فهو معذور به . فإذا انتقل إلى الثانى انتقل بالاختيار والإرادة ، فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم ، لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره ، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء .

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط ، لا بالإقلاع . والإقلاع فى حقه مستحيل ، فهو كمن أولج فى فرج حرام ، ثم شد وربط فى حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع البتة . فتوبته بالندم والعزم والتجافى بقلبه عن السكون إلى الاستدامة ، وكذلك توبة الأول بذلك ، وبالتجافى عن الإرادة والاختيار ، والله أعلم [١] .

فصل

ومن أحكام التوبة : أن من تعذر عليه أداء الحق الذى فرط فيه ، ولم يمكنه تداركه ثم تاب ، فكيف حكم توبته ؟ وهذا يتصور فى حق الله سبحانه وحقوق عباده .

فأما فى حق الله : فكمن ترك الصلاة عمدا من غير عذر ، مع علمه بوجوبها وفرضها ، ثم تاب وندم . فاختلف السلف فى هذه المسألة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ، ٢٨٠ ـ ٢٨٩) .

فقالت طائفة : توبته بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة ، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة : توبته باستئناف العمل فى المستقبل ، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء ، ولا يقبل منه ، فلا يجب عليه . وهذا قول أهل الظاهر ، وهو مروى عن جماعة من السلف .

وحجة الموجبين للقضاء قول النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » (١) .

قالوا : فإذا وجب القضاء على النائم والناسى ، مع عدم تفريطهما ، فوجوبه على العامد والمفرط أولى .

قالوا : ولأنه كان يجب عليه أمران : الصلاة ، وإيقاعها فى وقتها ، فإذا ترك أحد الأمرين بقى الآخر .

قالوا : ولأن القضاء ، إن قلنا : يجب عليه بالأمر الأول ، فظاهر . وإن قلنا : يجب عليه بأمر جديد ، فأمر النائم والناسى به : تنبيه على العامد .

قالوا : ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن العبد تداركها تدارك منها ما أمكن ، وقد فاتت مصلحة الفعل فى الوقت ، فيتدارك ما أمكن منها ، وهو الفعل فى خارج الوقت .

قالوا : وقد قال النبى ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » (٢) وهذا قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت ،وقد تعذر عليه الإتيان به فى وقته ، فيجب عليه الإتيان بالمستطاع .

قالوا : وكيف يظن بالشرع أنه يخفف عن هذا المتعمد المفرط العاصى لله ورسوله بترك الوجوب ؟ ويوجبه على المعذور بالنوم أو النسيان ؟

قالوا : ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت ، والعبادة إذا كان لها بدل ، وتعذر المبدل : انتقل المكلف إلى البدل ، كالتيمم مع الوضوء ، وصلاة القاعد عند تعذر القيام ، والمضطجع عند تعذر القعود ، وإطعام العاجز عن الصيام ـ لكبر أو مرض غير مرجو البرء ـ عن كل يوم مسكينا ، ونظائر ذلك كثيرة فى الشرع .

---

(١) البخارى (٥٩٧) فى مواقيت الصلاة ، باب : من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها ، ومسلم (٦٨٤ / ٣١٤) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) فى الاعتصام ، باب : الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٣٣٧/ ١٣٠) فى الفضائل ، باب : توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه .

قالوا : ولأن الصلاة حق مؤقت ، فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت ، كديون الآدميين المؤجلة .

قالوا : ولأن غايته : أنه أثم بالتأخير ، وهذا لا يسقط القضاء ، كمن أخر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيرا أثم به ، أو أخر الحج تأخيرا أثم به .

قالوا : ولو ترك الجمعة حتى صلاها الإمام عمدا ، عصى بتأخيرها ، ولزمه أن يصلى الظهر ، ونسبة الظهر إلى الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلى صلاتها قبل الطلوع .

قالوا : وقد أخر النبى ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى أن صلاها بعد غروب الشمس [١] . فدل على أن فعلها ممكن خارج الوقت فى العمد . سواء كان معذورا به كهذا التأخير ، وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بنى قريظة إلى بعد غروب الشمس ، أو لم يكن معذورا به ، كتأخير المفرط . فتأخيرهما إنما يختلف فى الإثم وعدمه ، لا فى وجوب التدارك بعد الترك .

قالوا : ولو كانت الصلاة خارج الوقت لا تصح ولا تجب ، لما أمر النبى ﷺ الصحابة يوم بنى قريظة بتأخير صلاة العصر إلى أن يصلوها فيهم [٢] . فأخرها بعضهم حتى صلاها فيهم بالليل ، فلم يعنفهم ، ولم يعنف من صلاها فى الطريق لاجتهاد الفريقين .

قالوا : ولأن كل تائب له طريق إلى التوبة . فكيف تسد عن هذا طريق التوبة ، ويجعل إثم التضييع لازما له ، وطائرا فى عنقه ؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته ، ومراعاته لمصالح العباد ، فى المعاش والمعاد .

فهذا أقصى ما يحتج به لهذه المقالة .

قال أصحاب القول الآخر : العبادة إذا أمر بها على صفة معينة ، أو فى وقت بعينه ، لم يكن المأمور ممتثلا للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به : من وصفها ووقتها ، وشرطها ، فلا يتناولها الأمر بدونه .

قالوا : وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلا ، وكالسجود على الخد بدل الجبهة ، والبروك على الركبة بدل الركوع ونحوه .

قالوا : والعبادات التى جعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه كالعبادات التى جعل

---

(١) البخارى (٤١١٢) فى المغازى ، باب : غزوة الخندق وهى الأحزاب .

(٢) البخارى (٤١١٩) فى المغازى ، باب : مرجع النبى ﷺ من الأحزاب .

لها ظرف من المكان ، فلو أراد نقلها إلى أمكنة أخرى غيرها : لم تصح إلا فى أمكنتها . ولا يقوم مكان مقام مكان آخر . كأمكنة المناسك ـ من عرفة ومزدلفة والجمار ، والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت ـ فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التى جعلت أوقاتا لها شرعا إلى غيرها ، كنقلها عن أمكنتها التى جعلت لها شرعا إلى غيرها ، لا فرق بينهما فى الاعتداد وعدمه ، كما لا فرق بينهما فى الإثم .

قالوا : فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولا وآخرا عن زمنها إلى زمن آخر ، كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة ، ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر .

قالوا : فأى فرق بين من نقل صوم رمضان إلى شوال ، أو صلى العصر نصف الليل ، وبين من حج فى المحرم ووقف فيه ؟ فكيف تصح صلاة هذا وصيامه دون حج هذا ، وكلاهما مخالف لأمر الله تعالى ، عاص آثم ؟

قالوا : فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقاتها ، فكما لا تقبل قبل دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها . فلو قال : أنا أصوم شوال عن رمضان ، كان كما لو قال : أنا أصوم شعبان الذى قبله عنه .

قالوا : فإن الحق الليلى لا يقبل بالنهار ، والنهارى لا يقبل بالليل ؛ ولهذا جاء فى وصية الصديق لعمر رضي الله عنهما التى تلقاها بالقبول هو وسائر الصحابة : « واعلم أن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل » .

قالوا : ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعا لم تبق تلك العبادة بعينها ، ولكن شىء آخر غيرها ، فإذا فعلت العصر بعد غروب الشمس لم تكن عصرا فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود ، وهذه ليست عصرا ، فلم يفعل مصليها العصر البتة . وإنما أتى بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر ، لا أنها هى .

قالوا : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « من ترك صلاة العصر حبط عمله » (١) وفى لفظ : « الذى تفوته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله » (٢) ، فلو كان له سبيل إلى التدارك وفعلها صحيحة : لم يحبط عمله ، ولم يوتر أهله وماله ، مع صحتها منه وقبولها ؛ لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات ، لاستدراكه بالفعل فى الوقت الثانى .

قالوا : وهذه الصلاة مردودة بنص الشرع ، فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها ، مع

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٥ .

(٢) البخارى (٥٥٢) فى مواقيت الصلاة ، باب : إثم من فاتته العصر .

تصريحه بردها وإلغائها ، كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » (١) وفى لفظ : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢) وهذا عمل على خلاف أمره ، فيكون ردا . و « الرد » بمعنى المردود ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والضرب بمعنى المضروب .

وإذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة . فليست بصحيحة ولا مقبولة .

قالوا : ولأن الوقت شرط فى سقوط الإثم ، وامتثال الأمر . فكان شرطا فى براءة الذمة والصحة ، كسائر شروطها ـ من الطهارة ، والاستقبال ، وستر العورة ـ فالأمر تناول الشروط تناولا واحدا ، فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها فى الوجوب والأمر والشرطية ؟

قالوا : وليس مع المصححين لها بعد الوقت لا نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح ، وسنبطل جميع أقيستهم التى قاسوا عليها ، ونبين فسادها .

قالوا : وفى مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :« من أفطر يوما من رمضان لغير عذر ، لم يقضه عنه صيام الدهر » (٣) فكيف يقال : يقضيه عنه يوم مثله ؟

قالوا : ولأن صحة العبادة : إن فسرت بموافقة الأمر ، فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له ، فلا تكون صحيحة . وإن فسرت بسقوط القضاء ، فإنما يسقط القضاء ما وقع على الوجه المأمور به ، وهذا لم يقع كذلك ، ولا سبيل إلى وقوعه على الوجه المأمور به ، فلا سبيل إلى صحته . وإن فسرت بما أبرأ الذمة ، فهذه لم تبرئ الذمة من الإثم قطعا ، ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور .

قالوا : ولأن الصحيح من العبادات : ما اعتبره الشارع ورضيه وقبله ، وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها ، أو بموافقتها أمره ، وكلاهما منتف عن هذه العبادة ، فكيف يحكم لها بالصحة ؟

قالوا : فالصحة والفساد حكمان شرعيان ، مرجعهما إلى الشارع . فالصحيح : ماشهد له بالصحة ، أو علم أنه وافق أمره ، أو كان مماثلا لما شهد له بالصحة ، فيكون حكم المثل مثله ، وهذه العبادة قد انتفى عنها كل واحد من هذه الأمور .

ومن أفسد الاعتبار : اعتبارها بالتأخير المعذور به ، أو المأذون فيه . وهو اعتبار الشىء

(١ ، ٢) البخارى (٢٦٩٧) فى الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ومسلم (١٧١٨ / ١٨) فى الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور .

(٣) أبو داود (٢٣٩٦) فى الصوم ، باب : التغليظ فيمن أفطر عمدا ، وأحمد (٢ / ٣٨٦) ، وضعفه الألبانى .

بضده ، وقياسه على مخالفه فى الحقيقة والشرع . وهو من أفسد القياس .

قالوا : وأما استدلالكم بقول النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها » (١) ، فأوجب القضاء على المعذور ، فالمفرط أولى ، فهذه الحجة إلى أن تكون عليكم أقرب منها أن تكون لكم. فإن صاحب الشرع شرط فى فعلها بعد الوقت: أن يكون الترك عن نوم أو نسيان، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه، فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصى المستحق للعقوبة على من عذره الله، ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية . كما ثبت عنه فى الصحيح: «ليس فى النوم تفريط، وإنما التفريط فى اليقظة : أن يؤخر صلاة حتى يدخل وقت التى بعدها » (٢) ، وأى قياس فى الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل؟

قالوا : وأيضا فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها ، بل وقتها المأمور به لمثله : حين استيقظ وذكر . كما قال النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » . فإن ذلك وقتها . فإن الله يقول : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية ، أى عند ذكرى أو فى وقت ذكرى .

قالوا : والنبى ﷺ ما صلى الصبح يوم الوادى بعد طلوع الشمس إلا فى وقتها حقيقة .

قالوا : والأوقات ثلاثة أنواع : وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور ، فهى خمسة . ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهى ثلاثة . فإن فى حقه : وقت الظهر والعصر واحد ، ووقت المغرب والعشاء واحد ، ووقت الفجر واحد ، فالأوقات فى حق هذا ثلاثة . وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها فى وقت العصر فإنما صلاها فى وقتها .

ووقت فى حق غير المكلف بنوم أو نسيان ، فهو غير محدود البتة ؛ بل الوقت فى حقه : عند يقظته وذكره ، لا وقت له إلا ذلك .

هذا الذى دلت عليه نصوص الشرع وقواعده ، وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام ، وهو قسم رابع ، فبأيها تلحقونه ؟

قالوا : وقد شرع الله ـ سبحانه ـ قضاء رمضان لمن أفطره لعذر ، من حيض أو سفر أو مرض ، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمدا من غير عذر ، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه ، ولا تقتضيه قواعده ، وإنما غاية ما معكم : قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما ، بل قد أخبر الشارع : أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر .

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٣

(٢) مسلم (٦٨١ / ٣١١) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها ، وأبو داود (٤٣٧) فى الصلاة ، باب : فى من نام عن الصلاة أو نسيها .

فضلا عن يوم مثله .

قالوا : وأما قولكم : « إنه كان يجب عليه أمران : العبادة ، وإيقاعها فى وقتها ، فإذا ترك أحدهما بقى عليه الآخر » فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطا بالآخر ارتباط الشرطية ، كمن أمر بالحج والزكاة فترك أحدهما ، لم يسقط عنه الآخر ، أما إذا كان أحدهما شرطا فى الآخر ،وقد تعذر الإتيان بالشرط الذى لم يؤمر بالمشروط إلا به ، فكيف يقال : إنه يؤمر بالآخر بدونه ، ويصح منه بدون وصفه وشرطه ؟ فأين أمره الله بذلك ؟ وهل الكلام إلا فيه ؟

قالوا : وإن قلنا : إنما يجب القضاء بأمر جديد ، فلا أمر معكم بالقضاء فى محل النزاع . وقياسه على مواقع الإجماع : ممتنع . وإن قلنا : يجب بالأمر الأول ، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعا ، ومصلحته كمصلحة الأداء ، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم ، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسى ، أما إذا كان القضاء غير مبرئ للذمة ، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته ، فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان ، وإنما هو القياس الذى علم افتراق الأصل والفرع فيه فى وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق .

قالوا : وأما قولكم : « إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها ما أمكن » فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن حصول المصلحة على شرط تزول المصلحة بزواله ، والتدارك بعد فوات شرطه وخروجه عن الوجه المأمور به ممتنع ، إلا بأمر آخر : من التوبة ، وتكثير النوافل والحسنات ، وأما تدارك غير هذا الفعل فكلا ولما .

قالوا : وأما قوله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم »[(١)] فقد أبعد النجعة من احتج به ، فإن هذا إنما يدل على أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتى بما يقدر عليه منه ـ كمن عجز عن القيام فى الصلاة ، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء ، أو عن إكمال الفاتحة ، أو عن تمام الكفاية فى الإنفاق الواجب ونحو ذلك ـ أتى بما يقدر عليه ، ويسقط عنه ما عجز منه ، أما من ترك المأمور به حتى خرج وقته عمدا وتفريطا بلا عذر ، فلا يتناوله الحديث ، ولو كان الحديث متناولا له لما توعده بإحباط عمله ، وتشبيهه بمن سلب أهله وماله ، وبقى بلا أهل ولا مال .

قالوا : وأما قولكم : « إنه لا يظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط بعدم إيجاب القضاء عليه ، وتكليف المعذور به » فكلام بعيد عن التحقيق ، بين البطلان . فإن هذا

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٣ .

المعذور : إنما فعل ما أمر به فى وقته ، فهو فى فعل ما أمر به كغير المعذور الذى صلى فى وقته ، ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفا عنه ، بل لأنه غير نافع له ، ولا مقبول منه ، ولا مأمور به ، فلا سبيل له إلى تحصيل مصلحة ما تركه ، فأين التخفيف عنه ؟

قالوا : وأما قولكم : « إن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت ، وإذا تعذر المبدل انتقل إلى بدله » فهل هذا إلا مجرد دعوى ؟ وهل وقع النزاع إلا فى هذا ؟ فما الدليل على أن صلاة هذا المفرط العامد بدل ؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولا ، وبكونها مقبولة نافعة ثانيا، وبكونها بدلا ثالثا ، ولا سبيل لكم إلى إثبات شىء من ذلك البتة .

وإنما يعلم كون الشىء بدلا بجعل الشاعر له كذلك ، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء ، والإطعام عند العجز عن الصيام ، وبالعكس ، كما فى كفارة اليمين . فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرط المضيع بدلا عن فعله العبادة فى الوقت ؟ وهل ذلك إلا القياس الذى قد تبين فساده ؟

قالوا : وأما قياسكم فعلها خارج الوقت على صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها ، فمن هذا النمط ؛ لأن وقت الوجوب فى حقه ليس محدود الطرفين كوقت الصلاة ، فالوجوب فى حقه ليس مؤقتا محدودا ، بل هو على الفور ، كالزكاة والحج ، عند من يراه على الفور ، فلا يتصور فيه إخراج عن وقت محدود هو شرط لفعله .

نعم ، أولى الأوقات به : الوقت الأول على الفور ، وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاء .

فإن قيل : فما تصنعون بقضاء رمضان ، فإنه محدود على جهة التوسعة بما بين رمضانين ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلى رمضان آخر ؟ ومع هذا لو أخره لزمه فعله ، وإطعام كل يوم مسكينا ، كما أفتى به الصحابة ﷺ . وهذا دليل على أن العبادة المؤقتة لا يتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعا ؟

قيل : قد فرق الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء ، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين ، لا يجوز تقدمها ولا تأخرها ، وأطلق أيام قضائه ، فقال سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة] ، فأطلق العدة ولم يوقتها ، وهذا يدل على أنها تجزئ فى أى أيام كانت ، ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على

تقييدها بأيام لا تجزئ فى غيرها ، وليس فى الباب إلا حديث عائشة رضي الله عنها : كان يكون علىّ الصوم من رمضان ، فلا أقضيه إلا فى شعبان ، من الشغل برسول الله ﷺ . ومعلوم أن هذا ليس صريحا فى التوقيت بما بين الرمضانين ، كتوقيت أيام رمضان بما بين الهلالين ، فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع ، وجمع بين ما فرق الله بينهما ، فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر ، وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله « أخر » ، وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر ، جبرا لزيادة التأخير عن المدة التى بين الرمضانين ، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء ، بل هى قضاء ، وإن فعلت بعد رمضان آخر ، فحكمها فى القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر من أيام رمضان عمدا بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوما آخر مثله البتة . ولو أفطر يوما من أيام القضاء قام اليوم الذى بعده مقامه .

وسر الفرق : أن المعذور لم يتعين فى حقه أيام القضاء . بل هو مخير فيها ، وأى يوم صامه قام مقام الآخر ، وأما غير المعذور : فأيام الوجوب متعينه فى حقه لا يقوم غيرها مقامها .

قالوا : وأما من ترك الجمعة عمدا : فإنما أوجبنا عليه الظهر ؛ لأن الواجب فى هذا الوقت أحد الصلاتين ولا بد ، إما الجمعة وإما الظهر ، فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم ، وهو مخاطب بوظيفة الوقت .

قالوا : ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلا من الظهر ، فإنه إذا فاته البدل رجع إلى الأصل ، وهذا إن كان القضاء ثابتا بالإجماع أو بالنص ، وإن كان فيه خلاف ، أجبنا بالجواب المركب .

فنقول : إن كان ترك الجمعة مساويا لترك الصلاة حتى يخرج وقتها ، فالحكم فى الصورتين واحد ، ولا فرق حينئذ عملا بما ذكرنا من الدليل ، وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق ، فامتنع القياس . فعلى التقديرين بطل القياس .

قالوا : وأما تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى غروب الشمس : فللناس فى هذا التأخير هل هو منسوخ أم لا ؟ قولان :

فقال الجمهور ـ كأحمد والشافعى ومالك : هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ، ثم نسخ بصلاة الخوف، وكان ذلك التأخير كتأخير صلاة الجمع بين الصلاتين ، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به، ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسى ، وتأخير المفرط ، بل أولى . فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به ، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلى مزدلفة .

القول الثانى : أنه ليس بمنسوخ ، بل هو باق . وللمقاتل تأخير الصلاة حال القتال ، واشتغاله بالحرب والمسايفة ، وفعلها عند تمكنه منها ، وهذا قول أبى حنيفة ويذكر رواية عن أحمد .

وعلى التقديرين : فلا يصح إلحاق تأخير العامد المفرط به ، وكذلك تأخير الصحابة العصر يوم بنى قريظة ، فإنه كان تأخيرا مأمورا به عند طائفة من أهل العلم ، كأهل الظاهر ، أو تأخيرا سائغا للتأويل عند بعضهم ؛ ولهذا لم يعنف النبى ﷺ من صلاها فى الطريق فى وقتها ، ولا من أخرها إلى الليل حتى صلاها فى بنى قريظة ؛ لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر ، وأولئك نظروا إلى المعنى والمراد منهم ، وهو سرعة السير .

واختلف علماء الإسلام فى تصويب أى الطائفتين :

فقالت طائفة : لو كنا مع القوم لصلينا فى الطريق مع الذين فهموا المراد ، وعقلوا مقصود الأمر ، فجمعوا بين إيقاع الصلاة فى وقتها وبين المبادرة إلى العدو ، ولم يفتهم مشهدهم ، إذ المقدار الذى سبقهم به أولئك لحقوهم به ، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول فى بنى قريظة .

قالوا : فهؤلاء أفقه الطائفتين ، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد ، والمبادرة إلى الجهاد ، مع فقه النفس .

وقالت طائفة : لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلى بنى قريظة ، فهم الذين أصابوا حكم الله قطعا ، وكان هذا التأخير واجبا ، لأمر رسول الله ﷺ به فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة ، والله يأمر بما يشاء ، فأمره بالتأخير فى وجوب الطاعة ، كأمره بالتقديم . فهؤلاء كانوا أسعد بالنص ، وهم الذين فازوا بالأجرين . وإنما لم يعنف الآخرين لأجل التأويل والاجتهاد ؛ فإنهم إنما قصدوا طاعة الله ورسوله ، وهم أهل الأجر الواحد ، وهم كالحاكم الذى يجتهد فيخطئ الحق .

والمقصود : أن إلحاق المفرط العاصى بالتأخير بهؤلاء فى غاية الفساد .

قالوا : وأما قولكم : « هذا تائب نادم ، فكيف تسد عليه طريق التوبة ويجعل إثم التضييع لازما له وطائرا فى عنقه ؟ » فمعاذ الله أن نسد عليه بابا فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ، ولم يغلقه عن أحد إلى حين موته ، أو إلى وقت طلوع الشمس من مغربها ، وإنما الشأن فى طريق توبته وتحقيقها ، هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل ، ويصير مامضى لا له ولا عليه ، ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم فى استئناف العمل وقبول التوبة ؟ فإن ترك فريضة من فرائض الإسلام ، لا يزيد على ترك الإسلام بجملته وفرائضه ، فإذا

كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة ، لا يشترط فى صحتها إعادة مافاته فى حال إسلامه ـ أصليا كان أو مرتدا ـ كما أجمع عليه الصحابة فى ترك أمر المرتدين ـ لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء ـ فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى ، والله أعلم .

فصل

وأما فى حقوق العباد : فيتصور فى مسائل :

إحداها : من غصب أموالا ، ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها ، أو إلى ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك ، فاختلف فى توبة مثل هذا ؟

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها ، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه ، فقد تعذرت عليه التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هذا حق لآدمى لم يصل إليه ، والله ـ سبحانه ـ لا يترك من حقوق عباده شيئا ، بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزه ظلم ظالم ، فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، ولو لطمة ، ولو كلمة ، ولو رمية بحجر .

قالوا : وأقرب مالهذا فى تدارك الفارط منه : أن يكثر من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها ، ومن أنفع ما له : الصبر على ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه ، فلا يستوفى حقه فى الدنيا ، ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته ، فإنه كما يؤخذ منه عليه يستوفى أيضا ما له، وقد يتساويان ، وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

ثم اختلف هؤلاء فى حكم مابيده من الأموال .

فقالت طائفة : يوقف أمرها ، ولا يتصرف فيها البتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلى الإمام أو نائبه ؛ لأنه وكيل أربابها ، فيحفظها لهم ، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرى : بل باب التوبة مفتوح لهذا ، ولم يغلقه الله عنه ، ولا عن مذنب . وتوبته : أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها . فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار ، بين أن يجيزوا مافعل ، وتكون أجورها لهم ، وبين ألا يجيزوا ، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ، ويكون ثواب تلك الصدقة له . إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها،

ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض ، فيغرمه إياها ، ويجعل أجرها لهم ، وقد غرم من حسناته بقدرها .

وهذا مذهب جماعة من الصحابة ، كما هو مروى عن ابن مسعود ، ومعاوية وحجاج ابن الشاعر . فقد روى أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية ، ودخل يزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتى يئس من عوده ، فتصدق بالثمن . وقال : اللهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له ، وإن أبى فالأجر لى ، وله من حسناتى بقدره . و غل رجل من الغنيمة ، ثم تاب ، فجاء بما غله إلى أمير الجيش ، فأبى أن يقبله منه ، وقال : كيف لى بإيصاله إلى الجيش ، وقد تفرقوا ؟ فأتى حجاج بن الشاعر فقال : ياهذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خمسه إلى صاحب الخمس ، وتصدق بالباقى عنهم ، فإن الله يوصل ذلك إليهم ـ أو كما قال ـ ففعل،فلما أخبر معاوية قال : لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلى من نصف ملكى (١) .

فصل

المسألة الثانية : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض ـ كالزانية ، والمغنىِّ ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم ـ ثم تاب والعوض بيده ؟

فقالت طائفة : يرده إلى مالكه ، إذ هو عين ماله ، ولم يقبضه بإذن الشارع . ولا حصل لربه فى مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به ، ولا يدفعه إلى من أخذه منه ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو أصوب القولين . فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له ، ورضاه ببذله ، وقد استوفى عوضه المحرم . فكيف يجمع له بين العوض والمعوض ؟ وكيف يرد عليه مالا قد استعان به على معاصى الله ، ورضى بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيا وثالثا ؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان ؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع : أن يقضى للزانى بكل مادفعه إلى من زنى بها ، ويؤخذ منها ذلك طوعا أو كرها ، فيعطاه وقد نال عوضه ؟

وهب أن هذا المال لم يملكه الآخذ ، فملك صاحبه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه . وقد سلم له مافى قبالته من النفع ، فكيف يقال : ملكه باق عليه ، ويجب رده إليه ؟

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٧٤ ـ ٣٨٨) .

وهذا بخلاف أمره بالصدقة به . فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضى صاحبه وبذله له بذلك ، وصاحبه قد رضى بإخراجه عن ملكه بذلك ، وألا يعود إليه ، فكان أحق الوجوه به : صرفه فى المصلحة التى ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم ، ولا يقوى الفاجر به ويعان ، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه : أن يتصدق بقدر الحرام ، ويطيب باقى ماله ، والله أعلم .

فصل

إذا غصب مالا ومات ربه ، وتعذر رده عليه ، تعين عليه رده إلى وارثه . فإن مات الوارث رده إلى وارثه ، وهلم جرا . فإن لم يرده إلى ربه ، ولا إلى أحد ورثته فهل تكون المطالبة به فى الآخرة للموروث ، إذ هو ربه الأصلى ، وقد غصبه عليه ، أو للوارث الأخير ، إذ الحق قد انتقل إليه ؟

فيه قولان للفقهاء ، وهما وجهان فى مذهب الشافعى .

ويحتمل أن يقال : المطالبة للموروث ، ولكل واحد من الورثة ، إذ كل منهم قد كان يستحقه ، ويجب عليه الدفع إليه ، فقد ظلمه بترك إعطائه ماوجب عليه دفعه إليه ، فيتوجه عليه المطالبة فى الآخرة له .

فإن قيل : فكيف يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء ؟

قيل طريق التوبة : أن يتصدق عنهم بمال تجرى منافع ثوابه عليهم بقدر ما فات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال لو صار إليه ، متحريا للممكن من ذلك . وهكذا لو تطاولت على المال سنون ، وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح . فتوبته بأن يخرج المال ومقدار ما فوته من ربح ماله .

فإن كان قد ربح فيه بنفسه ، فقيل : الربح كله للمالك ، وهو قول الشافعى وظاهر مذهب أحمد رحمهما الله .

وقيل : كله للغاصب ، وهو مذهب أبى حنيفة ومالك ـ رحمهما الله .

وكذلك لو أودعه مالا فاتجر به وربح، فربحه له دون مالكه عندهما ، وضمانه عليه .

وفيها قول ثالث : أنهما شريكان فى الربح ، وهو رواية عن أحمد ـ رحمه الله . واختيار شيخنا ـ رحمه الله ـ وهو أصح الأقوال ، فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل

المال ، ويتصدق بذلك .

وهكذا لو غصب ناقة أو شاة ، فنتجت أولادا ، فقيل : أولادها كلها للمالك ، فإن ماتت - أو شيء من النتاج - رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج ، هذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عند أصحابه .

وقال مالك : إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها . وعلى القول الثالث الراجح : يكون عليه قيمتها ، وله نصف النتاج ، والله أعلم [١] .

فصل

ومن أحكامها [٢] : أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي : أن يخرج التائب إليه منه ، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به ، وإن كان حقا ماليا أو جناية على بدنه أو بدون موروثه ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض ، فليتحلله اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » [٣] .

وإن كانت المظلمة بقدح فيه ، بغيبة أو قذف : فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه ؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه ، ولا يشترط تعيينه ، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا ، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه ؟ على ثلاثة أقوال .

وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف ، هل يشترط في توبة القاذف : إعلام المقذوف ، والتحلل منه أم لا ؟ ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم .

والمعروف في مذهب الشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك : اشتراط الإعلام والتحلل . هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم .

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي : فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩٠ - ٣٩٢) .

(٢) أي : التوبة .

(٣) الترمذي (٢٤١٩) في صفة القيامة والرقائق والورع ،باب:ما جاء في شأن الحساب والقصاص ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٤١) .

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه ، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفا بقدره ، فلا بد من إعلام مستحقه به ؛ لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره .

واحتجوا بالحديث المذكور ، وهو قوله ﷺ : « من كان لأخيه عنده مظلمة ـ من مال أو عرض ـ فليتحلله اليوم » (١) .

قالوا : ولأن فى هذه الجناية حقين : حقا لله ، وحقا للآدمى ، فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه .

قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه ، إن شاء اقتص وإن شاء عفا ، وكذلك توبة قاطع الطريق .

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ، بل يكفى توبته بينه وبين الله،وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته وإحصانه ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه .

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية قدَّس الله روحه .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقا وغما ، وقد كان مستريحا قبل سماعه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثته ضررا فى نفسه أو بدنه ، كما قال الشاعر :

فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه ، فضلا عن أن يوجبه ويأمر به .

قالوا : وربما كان إعلامه به سببا للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفو له أبدا ، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف ، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب ، والتراحم والتعاطف والتحابب .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين :

أحدهما : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤها عنه ، فإنه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه إليه . بخلاف الغيبة والقذف ، فإنه ليس هناك شئ ينفعه يؤديه إليه إلا

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٤ .

إضراره وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس .

والثانى : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ، ولم تهج منها غضبا ولا عداوة ، بل ربما سره ذلك وفرح به . بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلا ونهارا ، من أنواع القذف والغيبة والهجو ، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ، وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت ، والله أعلم [١] .

فصل

اختلف الناس : هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا ؟

فقال الجمهور : التوبة تأتى على كل ذنب ، فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل .

وقالت طائفة : لا توبة للقاتل، وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه ، وإحدى الروايتين عن أحمد . وقد ناظر ابن عباس فى ذلك أصحاب، فقالوا: « أليس قد قال الله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ **وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** (٧٠) ﴾؟ فقال : كانت هذه الآية فى الجاهلية ، وذلك أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن الذى تدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة ، فنزل : ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ الآية ، فهذه فى أولئك ، وأما التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** (٩٣) ﴾ [الآية] ، فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ، ثم قتل ، فجزاؤه جهنم » [٢] وقال زيد بن ثابت : « لما نزلت التى فى الفرقان : ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ عجبنا من لينها ، فلبثنا سبعة أشهر ، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة » وأراد بالغليظة : هذه الآية التى فى سورة النساء ، وباللينة : آية الفرقان . قال ابن عباس : « آية الفرقان مكية ، وآية النساء مدنية ، نزلت ولم ينسخها شىء » .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدا متعذرة ، إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه ـ التى فوتها عليه ـ إلى جسده ، إذ التوبة من حق الآدمى لا تصح إلا بأحدهما ، وكلاهما متعذر على القاتل ، فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه ، ولم يستحله منه ؟

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٨٩ ـ ٢٩١) .

(٢) البخارى (٣٨٥٥) فى مناقب الأنصار ، باب : مالقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

ولا يرد عليهم هذا فى المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه ؛ لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل ، وتصح التوبة منه ، فإن ذلك محض حق الله ، فالتوبة منه ممكنة ، وأما حق الآدمى : فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله ، وقد تعذر .

واحتج الجمهور بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (٥٣) ﴾ [الزمر] فهذه فى حق التائب ، وبقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨] فهذه فى حق غير التائب ؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه ، وعلق المغفرة بالمشيئة ، فخصص وعلق ، وفى التى قبلها عم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** (٨٢) ﴾ [طه] ، فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحا ، فإن الله عز وجل غفار له .

قالوا : وقد صح عن النبى ﷺ حديث الذى قتل المائة ثم تاب فنفعته توبته ، وألحق بالقرية الصالحة التى خرج إليها [١] . وصح عنه ﷺ ـ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » [٢] .

قالوا : وقد قال ﷺ ـ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ابن آدم ، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا، لقيتك بقرابها مغفرة » [٣] ، وقال ﷺ :

---

(١) البخارى (٣٤٧٠) فى الأنبياء ، باب : (٥٤) ، ومسلم (٢٧٦٦ / ٤٦) فى التوبة ، باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله .

(٢) البخارى (٧٢١٣) فى الأحكام ، باب : بيعة النساء ، ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) فى الحدود ، باب : الحدود كفارات لأهلها .

(٣) الترمذى (٣٥٤٠) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، وقال : « حديث غريب » ، وصححه الألبانى السلسلة الصحيحة (١٢٧ ، ١٢٨) .

« من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » (١) ، وقال : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢) ، وقال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » (٣) ، وفى حديث الشفاعة : « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، وفيه يقول الله تعالى : « وعزتى وجلالى ، لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » (٤) ، وأضعاف هذه النصوص كثير ، تدل على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

قالوا : وأما هذه الآية التى فى النساء : فهى نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** (١٤) ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** (٢٣) ﴾ [الجن] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** (١٠) ﴾ [النساء] ، وقوله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتوجأ بها خالدا مخلدا فى نار جهنم » (٥) ونظائره كثيرة .

وقد اختلف الناس فى هذه النصوص على طرق :

أحدها : القول بظاهرها ، وتخليد أرباب هذه الجرائم فى النار ، وهو قول الخوارج والمعتزلة ، ثم اختلفوا .

فقالت الخوارج : هم كفار ؛ لأنه لا يخلد فى النار إلا كافر . وقالت المعتزلة : ليسوا بكفار ، بل فساق ، مخلدون فى النار ، هذا كله إذا لم يتوبوا .

وقالت فرقة : بل هذا الوعيد فى حق المستحل لها . لأنه كافر ، وأما من فعلها معتقدا تحريمها : فلا يلحقه هذا الوعيد ـ وعيد الخلود ـ وإن لحقه وعيد الدخول .

وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول ، وقال : لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا ،

---

(١) البخارى (١٢٣٧ ، ١٢٣٨) فى الجنائز ، باب : فى الجنائز من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، ومسلم (٩٢ / ١٥٠)، (٩٤ / ١٥٣) فى الإيمان ، باب : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .

(٢) أبو داود (٣١١٦) فى الجنائز ، باب : فى التلقين ، وأحمد (٥ / ٢٣٣ ، ٢٤٧) ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٣٥١) فى الجنائز ، من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى.

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٧٢) فى الإيمان، من قال لا إله إلا الله حقا من قلبه حرمه الله على النار، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى (٢٢) فى الإيمان ، باب : تفاضل أهل الإيمان ، ومسلم (١٨٣ / ٣٠٢) فى الإيمان ، باب : معرفة طريق الرؤية .

(٥) البخارى (١٣٦٥) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى قاتل النفس ، ومسلم (١٠٩ / ١٧٥) فى الإيمان ، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشىء عذب به فى النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة .

والنبى ﷺ إنما قال : من فعل كذا وكذا .

وقالت فرقة ثالثة : الاستدلال بهذه النصوص مبنى على ثبوت العموم ، وليس فى اللغة ألفاظ عامة . ومن هاهنا أنكر العموم من أنكره ، وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها ، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة ، بل تعطيل عامة الأخبار ، فهؤلاء ردوا باطلا بأبطل منه ، وبدعة بأقبح منها ، وكانوا كمن رام أن يبنى قصرا فهدم مصرا .

وقالت فرقة رابعة : فى الكلام إضمار. قالوا : والإضمار فى كلامهم كثير معروف .

ثم اختلفوا فى هذا المضمر،فقالت طائفة :بإضمار الشرط ، والتقدير : فجزاؤه كذا ، إن جازاه ، أو إن شاء .

وقالت فرقة خامسة : بإضمار الاستثناء ، والتقدير : فجزاؤه كذا إلا أن يعفو . وهذه دعوى لا دليل فى الكلام عليها البتة ، ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ .

وقالت فرقة سادسة : هذا وعيد ، وإخلاف الوعيد لا يذم ، بل يمدح ، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد ، ولا يجوز عليه خلف الوعد . والفرق بينهما : أن الوعيد حقه ، فإخلافه عفو وهبة وإسقاط ، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه ، والوعد حق عليه ، أوجبه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد .

قالوا : ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله ﷺ ، حيث يقول :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

وتناظر فى هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء ، وعمرو بن عبيد ، فقال عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ، لا يخلف الله وعده . وقد قال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] الآية ، فقال له أبو عمرو : ويحك ياعمرو ، من العجمة أتيت ، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذما ، بل جودا وكرما ، أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتى ولا يختشى من سطوة المتهدد

وإنى إن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

وقالت فرقة سابعة : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة ، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه ، وغاية هذه النصوص : الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها وقد قام الدليل على ذكر الموانع ، فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص . فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص

المتواترة التى لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب الكبار المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص ، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هاهنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتبارا بمقتضى العقاب ومانعه ، وإعمالا لأرجحها .

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما ، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقا وأمرا ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ لكل ضد ضدا يدافعه ويقاومه ، ويكون الحكم للأغلب منهما ، فالقوة مقتضية للصحة والعافية ، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة ، والحكم للغالب منهما ، وكذلك قوى الأدوية والأمراض . والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب ، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه ، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له .

ومن هاهنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولا يدخل النار وعكسه ، ومن يدخل النار ، ثم يخرج منها ، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث فى سرعة الخروج وبطئه .

ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين ، ويعلم أن هذا هو مقتض إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته ، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره ، وهذا يقين الإيمان ، وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات ، وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله .

فهذه مجامع طرق الناس فى نصوص الوعيد .

فصل

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلم نفسه ، فقتل قصاصا ، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق ؟

فقالت طائفة : لا يبقى عليه شىء ؛ لأن القصاص حده ، والحدود كفارة لأهلها ، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم ، وهم قائمون مقامه فى ذلك ، فكأنه قد استوفاه بنفسه ، إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شىء ، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه ، فإنه لا يبقى له عليه شىء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظلم ، وفاتت عليه نفسه ، ولم يستدرك ظلامته ، والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفاء غيظه ، وأى منفعة حصلت للمقتول بذلك ؟ وأى ظلامة استوفاها من القاتل ؟

قالوا : فالحقوق فى القتل ثلاثة : حق لله ، وحق للمقتول ، وحق للوارث .

فحق الله : لا يزول إلا بالتوبة ، وحق الوارث : قد استوفاه بالقتل ، وهو مخير بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجانا ، أو إلى مال ، فلو أحله ، أو أخذ منه مالا لم يسقط حق المقتول بذلك ، فكذلك إذا اقتص منه ؛ لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه، فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين ؟

قالوا : ولو قال القتيل : لا تقتلوه لأطالبه بحقى يوم القيامة ، فقتلوه ، أكان يسقط حقه ولم يسقطه ؟ فإن قلتم : يسقط ، فباطل ؛ لأنه لم يرض بإسقاطه ، وإن قلتم : لا يسقط ، فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه ؟

وهذه حجج ـ كما ترى ـ فى القوة لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها .

فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال : إذا تاب القاتل من حق الله ، وسلم نفسه طوعا إلى الوارث ليستوفى منه حق موروثه : سقط عنه الحقان ، وبقى حق الموروث لا يضيعه الله ، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويض المقتول ؛ لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله. والتوبة النصوح تهدم ماقبلها ، فيعوض هذا عن مظلمته ، ولا يعاقب هذا لكمال توبته ، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلما فى الصف ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فإن الله ـ سبحانه ـ يعوض هذا الشهيد المقتول ، ويغفر للكافر بإسلامه ، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلما ، فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله .

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولى ، وتاب القاتل توبة نصوحا ، فالله تعالى يقبل توبته ، ويعوض المقتول .

فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده ، والحكم بعد ذلك لله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) ﴾ [النمل] (١) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩٢ ـ ٣٩٩) .

فصل

إن توبة القاذف : إكذابه نفسه ؛ لأنه ضد الذنب الذى ارتكبه ، وهتك به عرض المسلم المحصن . فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه ، لينتفى عن المقذوف العار الذى ألحقه به بالقذف ، وهو مقصود التوبة .

وأما من قال : إن توبته أن يقول : « أستغفر الله » من القذف ، ويعترف بتحريمه ، فقول ضعيف ؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف ، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به ، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب . فإن فيه حقين : حقا لله ، وهو تحريم القذف ، فتوبته منه باستغفاره ، واعترافه بتحريم القذف ، وندمه عليه ، وعزمه على أن لا يعود . وحقا للعبد ، وهو إلحاق العار به ، فتوبته منه بتكذيبه نفسه ، فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين .

فإن قيل : إذا كان صادقا قد عاين الزنا ، فأخبر به ، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب ، ويكون ذلك من تمام توبته ؟

قيل : هذا هو الإشكال الذى قال صاحب هذا القول لأجله ماقال : إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه . وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذى حكم الله به على القاذف ، وأخبر أنه كاذب عنده ، ولو كان خبره مطابقا للواقع ، فنقول :

الكذب يراد به أمران :

أحدهما : الخبر غير المطابق لمخبره ، وهو نوعان : كذب عمد ، وكذب خطأ . فكذب العمد معروف ، وكذب الخطأ ككذب أبى السنابل بن بعكك فى فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها : « أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرا » ، فقال النبى ﷺ : « كذب أبو السنابل » [(١)] ، ومنه قوله ﷺ : « كذب من قالها » [(٢)] لمن قال : « حبط عمل عامر ، حيث قتل نفسه خطأ » ، ومنه قول عبادة بن الصامت : « كذب أبو محمد » حيث قال : « الوتر واجب » [(٣)] ، فهذا كله من كذب الخطأ ، ومعناه : « أخطأ » قائل ذلك .

---

(١) أحمد (١ / ٤٤٧) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥ / ٥ ، ٦) فى الصلاق ، باب : العدة : « رجاله رجال الصحيح » ، وقال العلامة أحمد شاكر (٤٢٧٣) : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٤١٩٦) فى المغازى ، باب : غزوة خيبر ، ومسلم (١٨٠٢ / ١٢٣) فى الجهاد والسير ، باب : غزوة خيبر .

(٣) أبو داود (١٤٢٠) فى الصلاة ، باب : فيمن لم يوتر ، والموطأ (١ / ١٢٣) (١٤) فى صلاة الليل ، باب : الأمر بالوتر ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١ / ١٣٨) ، والسنة لابن أبى عاصم رقم (٩٦٧) .

والثانى : من أقسام الكذب : الخبر الذى لا يجوز الإخبار به ، وإن كان خبره مطابقا لمخبره ، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا ، والإخبار به ، فإنه كاذب فى حكم الله ، وإن كان خبره مطابقا لمخبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٣﴾ ﴾ [النور] فحكم الله فى مثل هذا : أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب ، وإن كان خبره مطابقا ، وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله ، كما أخبر الله تعالى به عنه ، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا ، فأى توبة له ؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذى حكم به عليه ؟

فصل

واختلف فى توبة السارق إذا قطعت يده ، هل من شرطها : ضمان العين المسروقة لربها ؟

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته : أداؤها إليه ، إذا كانت موجودة بعينها ، وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة ، فقال الشافعى وأحمد : من تمام توبته : ضمانها لمالكها ، ويلزمه ذلك ، موسرا كان أو معسرا . وقال أبو حنيفة : إذا قطعت يده ـ وقد استهلكت العين ـ لم يلزمه ضمانها ، ولا تتوقف صحة توبته على الضمان ؛ لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء ، والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع .

قال : وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة . فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية ، بخلاف التضمين ، فإنه غرامة ، وقد قطع طرفه . فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال [1] .

فصل

ومن أحكامها [2] : أن العبد إذا تاب من الذنب : فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حطه عنها الذنب ، أو لا يرجع إليها ؟ اختلف فى ذلك .

فقالت طائفة : يرجع إلى درجته ؛ لأن التوبة تجب الذنب بالكلية ، وتصيره كأن لم يكن . والمقتضى لدرجته : ما معه من الإيمان والعمل الصالح ، فعاد إليها بالتوبة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٦٣ ـ ٣٦٥) .

(٢) أى : التوبة .

قالوا : لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح ، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته ، فحسنته بالتوبة رقته إليها ، وهذا كمن سقط فى بئر ، وله صاحب شفيق ، أدلى إليه حبلا تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه . فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح ، والأخ الشفيق .

وقالت طائفة : لا يعود إلى درجته وحاله ؛ لأنه لم يكن فى وقوف ، وإنما كان فى صعود . فبالذنب صار فى نزول وهبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعدا به للترقى .

قالوا : ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيرا واحدا ، ثم عرض لأحدهما مارده على عقبه أو أوقفه ، وصاحبه سائر ، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته ، وسار بإثر صاحبه : لم يلحقه أبدا ؛ لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى .

قالوا : والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه ، وكلما ازداد سيرا ازدادت قوته ، وذلك الواقف الذى رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يحكى هذا الخلاف ، ثم قال : والصحيح : أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إليها ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها ، فيصير خيرا مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة .

قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وجده وعزمه ، وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرا مما كان وأعلى درجة ، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله ، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته ، وكان منحطا عنها ، وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة .

ويتبين هذا بمثلين مضروبين :

أحدهما : رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن ، فهو يعدو مرة ويمشى أخرى ، ويستريح تارة وينام أخرى ، فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل ، وماء بارد ومقيل ، وروضة مزهرة . فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن ، فنزل عليها ، فوثب عليه منها عدو ، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير ، فعاين الهلاك ، وظن أنه منتطع به ، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه ، فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون ، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر ، فحل كتافه وقيوده ، وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو ، فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم

أنك مادمت حاذرا منه ، متيقظا له لا يقدر عليك ، فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل ، وفرط لك فاتبعنى على الأثر .

فإن كان هذا السائر كيسا فطنا لبيبا ، حاضر الذهن والعقل ، استقبل سيره استقبالا آخر ، أقوى من الأول وأتم ، واشتد حذره ، وتأهب لهذا العدو ، وأعد له عدته ، فكان سيره الثانى أقوى من الأول ، وخيرا منه ، ووصوله إلى المنزل أسرع ، وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول ، من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد ، عاد كما كان . وهو معرض لما عرض له أولا .

وإن أورثه ذلك توانيا فى سيره وفتورا ، وتذكرا لطيب مقيله ، وحسن ذلك الروض أو عذوبة مائه ، وتفيؤ ظلاله ، وسكونا بقلبه إليه : لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان .

المثل الثانى : عبد فى صحة وعافية جسم ، عرض له مرض أوجب له حمية وشرب دواء وتحفظا من التخليط ، ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته ، فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله ، كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا فى القوة ، وتداركه بمثل ما نقص من قوته ، عاد إلى مثل ما كان .

وإن تداركه بدون مانقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة ، وفى هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما .

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة فى الصف الأول ، لا يلوى على شىء فى طريقه ، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلا ، يريد تعويقه عن الصلاة ، فله معه حالان :

أحدهما : أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة ، فهذه حال غير التائب .

الثانى : أن يجاذبه على نفسه ، ويتفلت منه ، لئلا تفوته الصلاة .

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال :

أحدهما : أن يكون سيره جمزا ووثبا ، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة ، فربما استدركه وزاد عليه .

الثانى : أن يعود إلى مثل سيره .

الثالث : أن تورثه تلك الوقفة فتورا وتهاونا ، فيفوته فضيلة الصف الأول ، أو فضيلة

الجماعة وأول الوقت ، فهكذا حال التائبين السائرين سواء [١] .

وأيضا

إن العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه إلى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه ، هل يعود إلى مثل ما كان ؟ أو لا يعود ، بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته ؟ أو يعود خيرا مما كان ؟

فقالت طائفة : يعود بالتوبة إلى مثل حاله الأولى ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا محى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأنه لم يكن ، فيعود إلى مثل حاله .

قالوا : ولأن التوبة هى الرجوع إلى الله بعد الإباق منه ، فإن المعصية إباق العبد من ربه ، فإذا تاب إلى الله فقد رجع إليه ، وإذا كان مسمى التوبة هو الرجوع ، فلو لم يعد إلى حالته الأولى مع الله لم تكن توبته تامة ، والكلام إنما هو فى التوبة النصوح .

قالوا : ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب فى الحال بالإقلاع عنه وفى المستقبل بالعزم على ألا يعود فكذلك ترفع أثره فى الماضى جملة ، ومن أثره فى الماضى انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده ، فلا بد من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة ، وإذا ارتفع بها عاد إلى مثل حاله .

قالوا : ولأنه لو بقى نازلا من مرتبته منحطا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت فى الماضى شيئا ، وإن عاد إلى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة إنما كان بالتوبة ، فلو ضعف تأثير التوبة عن إعادته إلى منزلته الأولى لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التى وصل إليها ، وإن لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفة التأثير عن إعادته إلى المنزلة الأولى .

قالوا : وأيضا ، ربط ـ سبحانه ـ الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها ، فالجزاء من جنس العمل ، فكما رجع التائب إلى الله بقلبه رجوعا تاما رجع الله عليه بمنزلته وحاله ، بل مارجع العبد إلى الله حتى رجع الله بقلبه إليه أولا فرجع الله إليه وتاب عليه ثانيا ، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله : توبة منه إذنا وتمكينا فتاب بها العبد ، وتاب الله عليه قبولا ورضى . فتوبة العبد بين توبتين من الله ، وهذا يدل على عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب ، فكيف يقال : إنه لا يعبده مع هذا اللطف والبر إلى حاله ؟

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٩١ ـ ٢٩٤) .

قالوا : وأيضا ، فإن التوبة من أجل الطاعات وأوجبها على المؤمنين ، وأعظمها عناء عنهم ، وهم إليها أحوج من كل شىء ، وهى من أحب الطاعات إلى الله فإنه يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله ، وإذا كانت بهذه المثابة فالآتى بها آت بما هو من أفضل القربات وأجل الطاعات ، فإذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة ، فإن لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فإنها لا تكون أنزل .

قالوا : وأيضا ، فإنا إذا قابلنا بين جناية المعصية والتقريب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية . والكلام إنما هو فى التوبة النصوح الكاملة ، وجانب الفضل أرجح من جانب العدل ، ولهذا كان فى جانب العدل آحاد بآحاد ، وجانب الفضل آحاد بعشرات إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته ، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة فإن رحمة الرب تغلب غضبه .

قالوا : وأيضا ، فالذنب بمنزلة المرض ، والتوبة بمنزلة العافية ، والعبد إذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته رجعت صحته إلى ما كانت ، بل ربما رجعت أقوى وأكمل مما كانت عليه ؛ لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة ، فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ، ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت وأكمل ، وفى مثل هذا قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وهذا الوجه هو أحد ما احتج به من قال : إنه يعود بالتوبة خيرا مما كان قبل التوبة .

واحتجوا لقولهم أيضا بأن التوبة تثمر للعبد محبة من الله خاصة لا تحصل بدون التوبة ، بل التوبة شرط فى حصولها، وإن حصل له محبة أخرى بغيرها من الطاعات فالمحبة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها ، فإن الله يحب التوابين ، ومن محبته لهم : فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله ، فإذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها إلى طاعاته التى كان عليها أولا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة، وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنه لا يعود الود الذى كان له منه قبل الجناية .

واحتجوا فى ذلك بأثر إسرائيلى مكذوب أن الله قال لداود ـ عليه السلام : يا داود ، أما الذنب فقد غفرناه ، وأما الود فلا يعود . وهذا كذب قطعا ، فإن الود يعود بعد التوبة النصوح أعظم مما كان ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ولو لم يعد الود لما حصلت له محبته . وأيضا ، فإنه يفرح بتوبة التائب ، ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبه .

وتأمل سر اقتران هذين الاسمين فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)** ﴾ [البروج] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال : لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدا ، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه ، وفى ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفا على ربه ـ الذى لا إله إلا هو ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذى لا غنى له عنه ولا بد له منه ولا تندفع ضرورته بغيره أبدا .

واحتجوا أيضا ، بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار والتذلل لله والتضرع بين يديه والبكاء على خطيئته والندم عليها والأسف والإشفاء ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ، ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها ، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال ، والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته ، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن ؛ ولهذا قال بعض السلف : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما [ابتلى] (١) بالذنب أكرم الخلق عليه . وقيل : إن فى بعض الآثار يقول الله تعالى لداود ـ عليه السلام : يا داود ، كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك .

قالوا : وقد قال غير واحد من السلف : كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، قالوا : ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)** ﴾ [ص] فزاده على المغفرة أمرين : الزلفى وهى درجة القرب منه ، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف . والثانى : حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله .

قالوا : ومن تأمل زيادة القرب التى أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا ، وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان .

قالوا : وأيضا ، فإن للعبودية لوازم وأحكاما وأسرارا وكمالات لا تحصل إلا بها ، ومن جملتها : تكميل مقام الذل للعزيز الرحيم ، فإن الله ـ سبحانه ـ يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذه هى حقيقة العبودية ، واشتقاقها يدل على ذلك ، فإن العرب تقول : طريق معبد أى مذلل بوطء الأقدام .

والذل أنواع ؛ **أكملها** : ذل المحب لمحبوبه .

---

(١) أضفناها ليستقيم السياق ،وفى بعض الطبعات : « لما أصاب بالذنب أكرم الخلق عليه » .

الثانى : ذل المملوك لمالكه .

الثالث : ذل الجانى بين يدى المنعم عليه ، المحسن إليه ،المالك له .

الرابع : ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدى القادر عليها التى هى فى يده وبأمره ، وتحت هذا قسمان : أحدهما : ذل له فى أن يجلب له ما ينفعه، والثانى : ذل له فى أن يدفع عنه ما يضره على الدوام ، ويدخل فى هذا ذل المصائب كالفقر والمرض وأنواع البلاء والمحن .

فهذه خمسة أنواع من الذل ، إذا وفَّاها العبد حقها وشهدها كما ينبغى وعرف ما يراد به منه ، وقام بين يدى ربه مستصحبا لها ، شاهدا لذله من كل وجه ، ولعزة ربه وعظمته وجلاله ، كان قليل أعماله قائما مقام الكثير من أعمال غيره .

قالوا : وهذه أسرار لا تدرك بمجرد الكلام ، فمن لا نصيب له منها فلا يضره أن يخلى المطى وحاديها ، ويعطى القوس باريها :

فللكثافة أقوام لها خلقوا وللمحبة أكباد وأجفان

قالوا : وأيضا ، فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته » .

قالوا : وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله ، فإن صاحب هذه الراحلة كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب ، وهى مركبه الذى يقطع به مسافة سفره ، فلو عدمه لانقطع فى طريقه ، فكيف إذا عدم مع مركبه طعامه وشرابه ، ثم إنه عدمها فى أرض دوية لا أنيس بها ولا معين ، ولا من يأوى له ويرحمه ويحمله ، ثم إنها مهلكة لا ماء بها ولا طعام ، فلما أيس من الحياة بفقدها وجلس ينتظر الموت إذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنت منه ، فأى فرحة تعدل فرحة هذا ؟ ولو كان فى الوجود فرح أعظم من هذا لمثل به النبى ﷺ ، ومع هذا ففرح الله بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم من فرح هذا براحلته .

فرح الرب ـ سبحانه ـ هذا الفرح العظيم بتوبة عبده إذا تاب إليه هو من ملزومات محبته ولوازمها ، أعنى كونه محبا لعباده المؤمنين ، محبوبا لهم ، إنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له ، ولهذا خلق الجنة والنار ؛ ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهذا هو الحق الذى خلق به السموات والأرض وأنزل به الكتاب ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [الحجر : ٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُم**

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ إلى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [يونس] وقوله : ﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (٣) ﴾ [آل عمران]، فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق ، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضا ، فبالحق كان الخلق والأمر وعنه صدر الخلق والأمر ، وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته ، وهو ـ سبحانه ـ كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه » (١) ، وفى المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال : يا رسول الله ، إنى حمدت ربى بمحامد فقال : « إن ربك يحب الحمد » (٢) فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثنى على نفسه ، ويحمد نفسه ، ويقدس نفسه ، ويحب من يحبه ويحمده ويثنى عليه .

بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم ، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثنى عليه ، ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه؛ لأنه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به ؛ ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به ؛ لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة ، والتسوية فيها بينه وبين غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التى يسقط بها من عينه ، وتنقص بها مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين ، فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره فى المحبة ، والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدا ، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات فى حقه ، ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ، ولم يقربه إليه . هذا مقتضى الطبيعة والفطرة ، أفلا يستحى العبد أن يسوى بين إلهه ومعبوده وبين غيره فى هذه العبودية والمحبة ؟ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن من أحب شيئا دون الله كما يحب الله فقد اتخذ ندا ، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) ﴾ [الشعراء] فهذه تسوية فى المحبة والتأليه ، لا فى الذات والأفعال والصفات .

---

(١) البخارى (٧٤٠٣) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، ومسلم (٢٧٦٠ / ٣٢) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش .

(٢) أحمد (٣ / ٤٣٥) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩ / ٦٩) : «رواه أحمد والطبرانى ، ورجالهما ثقات ، وفى بعضهم خلاف » .

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك ، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك ، وهذا هو محض الحق الذى به قامت السموات والأرض وكان الخلق والأمر ، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذى خلق له فرضى عنه صانعه وبارئه وأحبه إذ كان يحب ويرضى ، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته ؛ لأنه خرج عما خلق له وصار إلى ضد الحال التى هو لها ، فاستوجب منه غضبه بدلا من رضاه وعقوبته بدلا من رحمته ، فكأنه استدعى من رحمته أن يعامله من نفسه بخلاف ما يحب ، سبحانه عفو يحب العفو ، محسن يحب الإحسان ، جواد يحب الجود ، سبقت رحمته غضبه . فإذا أبق منه العبد وخامر عليه ذاهبا إلى عدوه فقد استدعى منه أن يجعل غضبه غالبا على رحمته وعقوبته على إحسانه ، وهو ـ سبحانه ـ يحب من نفسه الإحسان والبر والإنعام ، فقد استدعى من ربه فعل ما غيره أحب إليه منه وهو بمنزلة عبد السوء الذى يحمل أستاذه من المخلوقين المحسن إليه ، الذى طبيعته الإحسان والكرم ، على خلاف مقتضى طبيعته وسجيته ، فأستاذه يحب لطبعه الإحسان ، وهو بإساءته ولؤمه يكلفه ضد طباعه ويحمله على خلاف سجيته فإذا راجع هذا العبد ما يحب سيده ورجع إليه وأقبل عليه ورجع عن عدوه فقد صار إلى الحال التى تقتضى محبة سيده له وإنعامه عليه وإحسانه إليه ، فيفرح به ولا بد أعظم فرح ، وهذا الفرح هو دليل غاية الكمال والغنى والمجد .

فليتدبر اللبيب وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجد فى طيه من المعارف الإلهية ما لا تتسع له إلا القلوب المهيأة لهذا الشأن المخلوقة له ، وهذا فرح محسن بر لطيف جواد غنى حميد ، لا فرح محتاج إلى حصول متكمل به مستقيل له من غيره ، فهو عين الكمال، لازم للكمال ، ملزوم له ، وألطف من هذا الوجه أن الله ـ سبحانه ـ خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠] ، وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق فقال : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)** ﴾ [الإسراء] ، وقال لصالحيهم وصفوتهم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)** ﴾ [آل عمران] ، وقال لموسى : ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)** ﴾ [طه] ، واتخذ منهم الخليلين ، والخلة أعلى درجات المحبة .

وقد جاء فى بعض الآثار : يقول تعالى : « ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » [(١)] ، وفى أثر آخر يقول تعالى : « ابن آدم ، خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن

---
(١) انظر تفسير ابن كثير (٧ / ٤٢٦) ، سورة الذاريات آية (٥٦ ، ٥٧) .

آدم، اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء »[١]: فالله ـ سبحانه ـ خلق عباده له ؛ ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ،ليسلموا إليه النفوس التى خلقها له. وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له، مصطفاة عنده ،مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها فى نفسها.

فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها ، وعرف الثمن المبذول فيها ، علم شأنها ومرتبتها فى الجود . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن جنته ، والنظر إلى وجهه، وسماع كلامه فى الأمن والسلام . والله لا يصطفى لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة . وإذا كان قد اختار العبد لنفسه ، وارتضاه لمعرفته ومحبته ، وبنى له دارا فى جواره وقربه ، وجعل ملائكته خدمه يسعون فى مصالحه فى يقظته ومنامه وحياته وموته ، ثم إن العبد أبق عن سيده ومالكه ، معرضا عن رضاه ، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه ووالاه من دونه وصار من جنده ، مؤثرا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه ، فقد باع نفسه ـ التى اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه ـ من عدوه وأبغض خلقه إليه ، واستبدل غضبه برضاه ولعنته برحمته ومحبته . فأى مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه ؟ قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)** ﴾ [الكهف] .

فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما فى طى هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزى والهوان ، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذى هو أولى به ، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوبا له ، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه ، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختيارا وطوعا حتى توسد عتبة بابه ، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واضعا خده وذقنه عليها ، فكيف يكون فرحه به ؟ ولله المثل الأعلى .

ويكفى فى هذا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر مافى طيه وما فى ضمنه ، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل ، بل كلام معصوم فى منطقه وعلمه وقصده وعمله . كل كلمة منه فى موضعها ومنزلتها ومقرها لا يتعدى بها عنه ولا يقصر بها . والذى يزيد هذا المعنى تقريرا أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٦) ، سورة الذاريات آية (٥٦ ، ٥٧) .

ـ سبحانه ـ فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته فى قلبه ، فإنه ألهمه حبه وآثره به ، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها ، فإنه من تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا ، ومن أتاه مشيا أتاه هرولة [1] ، وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذى يحبه فوق محبة العبد له .

وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذى فر من محبه وآثر غيره عليه ، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره ، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله ، والشاهد أقوى شاهد يؤيده الفطرة والعقل ، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان فى الفطرة والعقل ما يشهد به ، فإذا انضافت الشرعة المنزلة إلى العقل المنور ، فذلك الذى لا غاية له بعده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فصل

ومتى أراد العبد شاهد هذا من نفسه فلينظر إلى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح ، والسرور واللذة التى تحصل له ، والجزاء من جنس العمل ، فلما تاب إلى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما . وهاهنا دقيقة قل من يتفطن لها إلا فقيه فى هذا الشأن . وهى أن كل تائب لابد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن ، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره ، فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رؤوسهم لأجل هذه المحبة . والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة ، فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ، ولذلك أسباب عديدة :

منها : أن هذه العصرة والقبض دليل على حياة قلبه ، وقوة استعداده ، ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك .

وأيضا ، فإن الشيطان لص الإيمان ، واللص إنما يقصد المكان المعمور ، وأما المكان الخراب الذى لا يرجو أن يظفر منه بشىء فلا يقصده ، فإذا قويت المعارضات الشيطانية والعصرة دل على أن فى قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه .

وأيضا ، فإن قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضه وضده ، ومثل هذا إما أن يكون رأسا فى الخير أو رأسا فى الشر ، فإن النفوس الأبية القوية إن كانت خيرة رأست فى الخير ، وإن كانت شريرة رأست فى الشر .

---

(١) البخارى (٧٤٠٥) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، ومسلم (٢٦٧٥ / ١) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

وأيضا ، فإن بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب زيادة انشراحه وطمأنينته .

وأيضا ، فإنه كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه ، هذه سنة الله فى الخلق : فانظر إلى الجنة وعظمها ، وإلى الموانع والقواطع التى حالت دونها حتى أوجبت أن ذهب من كل ألف رجل واحد إليها ، وانظر إلى محبة الله والانقطاع إليه والإنابة إليه والتبتل إليه وحده ، والأنس به واتخاذه وليا ووكيلا وكافيا وحسيبا ، هل يكتسب العبد شيئا أشرف منه ؟ وانظر إلى القواطع والموانع الحائلة دونه ، حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه ، والطالبون له منهم الواقف مع عمله ، والواقف مع علمه ، والواقف مع حاله ، والواقف مع ذوقه وجمعيته وحظه من ربه ، والمطلوب منهم وراء ذلك كله .

والمقصود أن هذا الأمر الحاصل بالتوبة لما كان من أجل الأمور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن ؛ ليتميز الصادق من الكاذب ، وتقع الفتنة ، ويحصل الابتلاء ، ويتميز من يصلح ممن لا يصلح ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③ ﴾ [العنكبوت] ، وقال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢] ، ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت إلى رياض الأنس وجنات الانشراح ، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه . والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه .

والمقصود : أن هذا الفرح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأت نظيره فى غيرها من الطاعات ـ دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله ، وأن التعبد له بها من أشرف التعبدات ، وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها ، فهذا بعض ما احتج به لهذا القول .

وأما الطائفة التى قالت : لا يعود إلى مثل ما كان ، بل لابد أن ينقص حاله ، فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب ، فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط فى حقوقه ، وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته ، فإذا تاب إلى ربه ورجع إليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه ، وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود .

قالوا : ولأن هذا فى زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير إلى الله ، فلو كان واقفا فى موضعه لفاته التقدم ، فكيف وهو فى زمن المعصية كان سيره إلى وراء وراء ؟ فإذا تاب واستقبل سيره فإنه يحتاج إلى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل إلى الموضع الذى تأخر منه .

قالوا : ونحن لا ننكر أنه قد يأتى بطاعات وأعمال تبلغه إلى منزلته ، وهذا مما لا يكون ، فإنه بالتوبة قد وجه وجهه إلى الطريق ، فلا يصل إلى مكانه الذى رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله إليه ، ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل أعمالا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم .

قالوا : وأيضا ، فلو رجع إلى حاله التى كان عليها أو إلى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالا منه ، فكيف يكون هذا ، وأين مسير صاحب الطاعة فى زمن اشتغال هذا بالمعصية ؟ وكيف يتلقى رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب ، فإذا رجع أحدهما إلى طريق الآخر والآخر مجد على سيره فإنه لا يزال سابقه مالم يعرض له فتور أو توان ؟ هذا مما لا يمكن جحده ودفعه .

قالوا : وأيضا ، فمرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالأسقام ، والتوبة بمنزلة شرب الدواء ، والمريض إذا شرب الدواء وصح فإنه لا تعود إليه قوته قبل المرض ، وإن عادت فبعد حين .

قالوا : وأيضا ، فهذا فى زمن معالجة التوبة ملبوك[1] فى نفسه ، مشغول بمداواتها ومعالجتها ، وفى زمن الذنب مشغول بشهوتها ، والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه فى سيره ، فكيف يلحقه هذا ؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها .

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، فسمعته يحكى هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة ، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها . فقال : الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله ، ومنهم من يعود إلى أكمل منها ، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان . فإن كان بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرا وأعظم تشميرا وأعظم ذلا وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان ، وإن كان قبل الخطيئة أكمل فى هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه ، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته ، هذا معنى كلامه [2] .

باب منه

اختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التى كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة ، وأما الدرجة التى فاتته فإنه لا يصل إليها ؟

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣١ ـ ٢٣٤ ، ٢٣٨ ـ ٢٤٥) .

(٢) راجع اللسان مادة (لبك) .

قالوا : وتقرير ذلك : أنه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع وربح تحمله أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بون عظيم .

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكما مقبولا ، فقال :

التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود إلى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها ، أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرأس بين يدى ربه ، مستحييا منه خائفا وجلا ، محتقرا لطاعته ، مستعظما لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .

كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالـــ ـــحمد ، وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلا لها .

وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه .

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف

العاجز ، فإن الذنب وإن صغر ـ فإن مقابله العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، الكبير الذى لا شىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها ـ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ، وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ، لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصى العباد ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** (٤١) ﴾ [فاطر] .

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم ، والغفور » كيف نجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ؟ .

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن بعض كفر عباده أنه : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** (٩٠) ﴾ [مريم] .

وقد أخرج الله ـ سبحانه ـ الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالفا فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى ... درج الجنان لدى النعيم الخالد

ولقد علمنا أخـــرج الأبـوين من ... ملكوته الأعلى بذنب واحـد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته ، وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى صحته الأولى ، فلا يعود إلى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ، ويعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .

هذا إذا كان نزوله إلى معصية ، فإذا كان نزوله إلى أمر يقدح فى أصل إيمانه ، مثل الشكوك والريب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من رأسه (١) .

---

(١) الداء والدواء (١٦٣ ـ ١٦٦) .

فصل
فى أجناس ما يتاب منه

ولا يستحق العبد اسم « التائب » حتى يتخلص منها ، وهى اثنا عشر جنسا مذكورة فى كتاب الله عز وجل ، هى أجناس المحرمات : الكفر ، والشرك ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والإثم ، والعدوان ، والفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، والقول على الله بلا علم ، واتباع غير سبيل المؤمنين .

فهذه الاثنا عشر جنسا عليها مدار كل ما حرم الله . وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم . وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها ، أو واحدة منها ، وقد يعلم ذلك ، وقد لا يعلم .

فالتوبة النصوح : هى بالتخلص منها ، والتحصن والتحرز من مواقعتها (١) .

فصل
فى حكم توبة المبتدع

من خط القاضى أبى يعلى : أبو الفرج الهمدانى : سمعت المروزى يقول : سئل أحمد عما ورد عن النبى ﷺ : « إن الله احتجز التوبة عن صاحب بدعة وحجب التوبة » (٢) إيش معناه ؟ فقال أحمد : لا يوفق ولا ييسر صاحب بدعة لتوبة . وقال النبى ﷺ لعائشة لما قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فقال النبى ﷺ : « هم أهل الأهواء والبدع ليست لهم توبة » (٣) (٤) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٥) .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٠٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٩٢) فى التوبة ، باب : مما يخاف من الذنوب : « رجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروى وهو ثقة » ، وابن أبى عاصم فى السنة (١ / ٢١) رقم (٣٧) ، وقال العلامة الألبانى فى ظلال الجنة فى تخريج السنة : « حديث صحيح ، إسناده ضعيف جدا » وانظره مفصلا فى السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (١٦٢٠) .

(٣) انظر : الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ١٩٢) فى التوبة ، باب : مما يخاف من الذنوب ، وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه بقية وهو ضعيف » .

(٤) بدائع الفوائد (٤ / ٤٨) .

فصل
فى طلب التوبة من غير الله عز وجل

ومن أنواعه [١] : التوبة للشيخ ، فإنها شرك عظيم ، فإن التوبة لا تكون إلا لله ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والنسك ، فهى خالص حق الله .

وفى المسند : أن رسول الله ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إنى أتوب إليك ، ولا أتوب إلى محمد ، فقال رسول الله ﷺ : « عرف الحق لأهله » [٢] .

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله . كالسجود والصيام [٣] .

فصل
فى توبة الفاسق

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة .

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه . وهو قسمان : فسق من جهة العمل . وفسق من جهة الاعتقاد .

ففسق العمل نوعان : مقرون بالعصيان ، ومفرد .

فالمقرون بالعصيان : هو ارتكاب ما نهى الله عنه ، والعصيان : هو عصيان أمره . كما قال الله تعالى : ﴿ **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** ﴾ [التحريم : ٦] ، وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام : ﴿ **مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)** ﴾ [طه] ، وقال الشاعر :

أمرتك أمرا جازما فعصيتنى   فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيرا ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] والمعصية أخص بمخالفة الأمر ويطلق كل منهما على صاحبه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف : ٥٠] فسمى مخالفته

---

(١) أى : الشرك .

(٢) أحمد (٣ / ٤٣٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٠٢) فى التوبة ، باب : التوبة إلى الله تعالى : « فيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٣٤٥) .

للأمر فسقا . وقال : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه] فسمى ارتكابه للنهى معصية . فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى .

و « التقوى » اتقاء مجموع الأمرين ، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان ، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله ، على نور من الله ، يخاف عقاب الله .

وفسق الاعتقاد : كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويحرمون ما حرم الله ، ويوجبون ما أوجب الله ، ولكن ينفون كثيرا مما أثبت الله ورسوله ، جهلا وتأويلا ، وتقليدا للشيوخ ، ويثبتون مالم يثبته الله ورسوله كذلك .

وهؤلاء كالخوارج المارقة ، وكثير من الروافض ، والقدرية ، والمعتزلة ، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة فى التجهم .

وأما غالية الجهمية : فكغلاة الرافضة ، ليس للطائفتين فى الإسلام نصيب .

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة ، وقالوا : هم مباينون للملة .

وليس مقصودنا الكلام فى أحكام هؤلاء . إنما المقصود : تحقيق « التوبة » من هذه الأجناس العشرة .

فالتوبة من هذا الفسوق : بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الواحى ، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة .

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة : بمحض اتباع السنة ، ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة ؛ إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده ؛ ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى : البيان ؛ لأن ذنبهم لما كان بالكتمان ، كانت توبتهم منه بالبيان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة] وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم ؛ لأن ذاك كتم الحق . وهذا كتمه ودعا إلى خلافه ، فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس .

فصل
فى توبة المنافق

وشرط فى توبة المنافق : الإخلاص ؛ لأن ذنبه بالرياء . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ ثم قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] (١) .

فصل

هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحا أو هذا التائب أفضل منه ؟

اختلف فى ذلك .

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحا . واحتجوا بوجوه :

أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله . وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل .

الثانى : أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق ، فتكون درجته أعلى من درجته . وغايته : أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه ، وذاك فى سير آخر . فأنى له بلحاقه ؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئا كسب الآخر مثله ، فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف ، والآخر مجد فى الكسب ، فإذا أدركته حمية المنافسة ، وعاد إلى الكسب : وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئا كثيرا ، فلا يكسب شيئا إلا كسب صاحبه نظيره ، فأنى له بمساواته ؟

الثالث : أن غاية التوبة : أن تمحو عن هذا سيئاته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها ، فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه ، فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح ؟

الرابع : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره ، ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب : كان حظه المقت ، وحظ المطيع الرضا ، فالله لم يزل عنه راضيا . ولا ريب أن هذا خير

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٦١ ـ ٣٦٣) .

ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته ،ثم رضى عنه،فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم . والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه ، وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبدا .

السادس : أن العاصى على خطر شديد . فإنه دائر بين ثلاثة أشياء . أحدها : العطب والهلاك بشرب السم . الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك . والثالث : عود قوته إليه كما كانت أو خيرا منها بعيد .

والأكثر إنما هو القسمان الأولان ، ولعل الثالث نادر جدا ، فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك .

السابع : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطا حصينا ، لا يجد الأعداء إليه سبيلا،فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبدا،والعاصى قد فتح فيه ثغرا، وثلم فيه ثلمة ، ومكن منه السراق والأعداء ، فدخلوا فعاثوا فيه يمينا وشمالا : أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه ، وقطعوا ثمراته ، وأحرقوا فى نواحيه ، وقطعوا ماءه . ونقصوا سقيه . فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول ؟ فإذا تداركه قيمه ولم شعثه ، وأصلح ما فسد منه ، وفتح طرق مائه ، وعمر ما خرب منه ، فإنه إما أن يعود كما كان ، أو أنقص ، أو خيرا ، ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه . بل فى زيادة ونمو ، وتضاعف ثمرة ، وكثرة غرس .

والثامن : أن طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته ؛ ولذلك يسمى جاهلا . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة . وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم : ﴿ **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (١١٥) ﴾ [طه] وقال فى حق غيره : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوى إيمانه : لم يطمع فيه عدوه ، وكان أفضل .

التاسع : أن المعصية لابد أن توثر أثرا سيئا ولا بد : إما هلاكا كليا ، وإما خسرانا وعقابا ، يعقبه : إما عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود مصباح الإيمان . وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير ، وعمل المطيع فى الزيادة ، ورفع الدرجات .

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟

العاشر : أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله ، وكلما زادت طاعاته

وأعماله ازداد كسبه بها وعظم . وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله ، فسافر ثانيا برأس ماله الأول وكسبه ، فكسب عشرة أضعافه أيضا ، فسافر ثالثا أيضا بهذا المال كله ، وكان ربحه كذلك ، وهلم جرا ، فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره ، مرة واحدة ، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه ، وهذا معنى قول الجنيد ـ رحمه الله : « لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة ، كان مافاته أكثر مما ناله » وهو صحيح بهذا المعنى ، فإنه قد فاته فى مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها ، وهو أزيد من الربح المتقدم ، فإذا كان هذا حال من أعرض ، فكيف من عصى وأذنب ؟ وفى هذا الوجه كفاية .

فصل

وطائفة رجحت التائب ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه واحتجت بوجوه :

أحدها : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ، وأكرمها عليه ؛ فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين ، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه . فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة ، يوضح ذلك :

الوجه الثانى : أن للتوبة عنده ـ سبحانه ـ منزلة ليست لغيرها من الطاعات ؛ ولهذا يفرح ـ سبحانه ـ بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة ، بعد ما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة (١) ، ولم يجئ هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة . ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرا عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه . وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد ، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيبا لله ، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب ، ويوضحه :

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ماهو أحب من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ، ومخها ولبها ، يوضحه :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ؛ فإنه قد

(١) سبق تخريجه ص ٢٩ .

شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية . والله ـ سبحانه ـ أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى : « يارب ،أين أجدك ؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » يخرج ؛ لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه .

وتأمل قول النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل : أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى . ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى . قال : يارب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتنى عنده » (١) فقال فى عيادة المريض : « لوجدتنى عنده »وقال فى الإطعام والإسقاء : « لوجدت ذلك عندى » فرق بينهما . فإن المريض مكسور القلب ، ولو كان من كان ، فلابد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم . فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه . وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار ، وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب ، يوضحه :

الوجه الخامس : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات . وهذا معنى قول بعض السلف : قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى : ذكر ذنبه ، فيحدث له انكسارا ، وتوبة ، واستغفارا ، وندما ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام وإن قعد وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجبا وكبرا ومنة ، فتكون سبب هلاكه ، فيكون الذنب موجبا لترتب طاعات وحسنات ، ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منه ، والإطراق بين يديه منكسا رأسه خجلا ، باكيا نادما ، مستقيلا ربه . وكل واحد من هذه

(١) مسلم (٢٥٦٩ / ٤٣) فى البر والصلة ، باب : فضل عيادة المريض .

الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبرا ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار .

ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المان بها ، وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على مافى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ، ويخضعوا له ، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامنا ، ولهذا تراه عاتبا على من لم يعظمه ويعرف له حقه ، متطلبا لعيبه فى قالب حمية لله ، وغضب له ، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ، ويخضع له من الذنوب أضعاف ماقام بهذا ، فتح له باب المعاذير والرجاء ، وأغمض عنه عينه وسمعه ، وكف لسانه وقلبه ، وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود ، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرا ألقاه فى ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفى به عباده شره ، وينكس به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال ، كما قيل بلسان الحال فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه :

يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به ، وألبست بها حلة العبودية .

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

يا آدم ، إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى ، وجودى وكرمى ، على من عصانى « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم »[(١)] .

يا آدم ، كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك .

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب ، فعلى من أجود بحلمى ؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى ، وتوبتى ، وأنا التواب الرحيم ؟

يا آدم ، لا تجزع من قولى لك (اخرج منها) فلك خلقتها ، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة ، وابذر بذر التقوى ، وأمطر عليه سحائب الجفون ، فإذا اشتد الحب واستغلظ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩ .

واستوى على سوقه ، فتعال فاحصده .

يا آدم ، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلى فى الصعود ، وما أخرجتك منها نفيا لك عنها ، ما أخرجتك منها إلا لتعود .

إن جرى بيننا وبينك عتب　　　وتناءت منا ومنك الديار

فالوداد الذى عهدت مقيم　　　والعثار الذى أصبت جبار

يا آدم ، ذنب تذل به لدينا ، أحب إلينا من طاعة تدل بها علينا .

يا آدم ، أنين المذنبين ، أحب إلينا من تسبيح المدلين .

« يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك . يابن آدم ، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا أتيتك بقرابها مغفرة » (١) .

يذكر عن بعض العباد : أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت أن يعصمه ، ثم غلبته عيناه فنام ، فسمع قائلا يقول : أنت تسألنى العصمة ، وكل عبادى يسألوننى العصمة ، فإذا عصمتهم فعلى من أن تفضل وأجود بمغفرتى وعفوى ؟ وعلى من أتوب ؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتى وفضلى ؟ ونحو هذا من الكلام .

يابن آدم ، إذا آمنت بى ولم تشرك بى شيئا ، أقمت حملة عرشى ومن حوله يسبحون بحمدى ويستغفرون لك وأنت على فراشك ، وفى الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر : « ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا . فمن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى » (٢) ، **﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾** [الزمر] .

« ياعبدى ، لاتعجز ، فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، ومنك الاستغفار وعلى المغفرة ، ومنك التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات » ، يوضحه :

الوجه السادس : وهو قوله تعالى : **﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾** [الفرقان] ، وهذا من أعظم البشارة للتائبين

---

(١) الترمذى (٣٥٤٠) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار ، وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، والدارمى (٢ / ٣٢٢) فى الرقاق ، باب : إذا تقرب العبد إلى الله ، وأحمد (٥ / ١٦٧) ، وصححه الألبانى السلسلة الصحيحة (١٢٧ ، ١٢٨) . .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٤١) فى التوبة والإنابة ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة » ، وسكت عنه الذهبى .

إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح ، وهو حقيقة التوبة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما رأيت النبى ﷺ فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت ، وفرحه بنزول : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح] (١) .

واختلفوا فى صفة هذا التبديل ، هل هو فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؟ على قولين :

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيمانا ، وبالزنا عفة وإحصانا ، وبالكذب صدقا ، وبالخيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : حدثنا الحسين بن حريث قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها . فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . فيقول : إن لى ذنوبا ما أراها هاهنا » . قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه (٢) .

فهذا حديث صحيح ، ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب ، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ، فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد

---

(١) ابن أبى عاصم فى السنة (٢ / ٤٧٠) رقم (٩٧٢) ، وقال الألبانى فى ظلال الجنة : « إسناده ضعيف » ، والطبرانى فى الكبير (١٢ / ٢١٧) (١٢٩٣٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٨٧٠) فى التفسير ، سورة الفرقان : « رواه الطبرانى من رواية على بن زيد عن يوسف بن مهران وقد وثقا ، وفيهما ضعف وبقية رجاله ثقات » .

(٢) الترمذى (٢٥٩٦) فى صفة جهنم ، باب : (٩) ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم (٢٧٣٦) .

علمت مافيه ، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهى أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة ، وبالحسنات الماحية تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه ، فلا بد إذا من دخول النار ؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ،فإذا بقى عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبيثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهى أقوى الأسباب . وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة ؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله ، وإزالة النار بدل منها . وهى الأصل ، فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول ، يوضحه :

الوجه التاسع : وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة ، إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه .

وعلى هذا ، فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها . وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها ، يوضحه :

الوجه العاشر : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعا ، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدون بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه ،ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه ، لكن شتان مابين الندمين ، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه . هذا من العبودية من أسرار التوبة ، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك ، وحصول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، مايوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، ولم يقل مكان كل واحدة واحدة ، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما فى الحديث : فإن الذى عذب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها ، فلم يكن له مايجعل مكان السيئة حسنات ، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة ، وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه . ولما انتهى إليها ضحك ، ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة ، ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين :

أحدهما : قوله : « أخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع فى تبديلها ، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر ، وهو به أشد فرحا واغتباطا .

والثانى : ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يقر به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها ، وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١) .

فصل
هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره ؟

فيه قولان لأهل العلم ، وهما روايتان عن الإمام أحمد ، ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها ، كالنووى وغيره .

والمسألة مشكلة ، ولها غور ، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم . والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام ـ وهو توبة من الكفر ـ مع البقاء على معصية لم يتب منها ، فهكذا تصح التوبة من ذنب ، مع بقائه على آخر .

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره ؛ لقوته ونفاذه ، وحصوله

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٩٤ ـ ٣٠٤) .

ـ تبعا بإسلام الأبوين أو أحدهما ـ للطفل ، وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه ،أو بموت أحد أبويه فى أحد القولين ، وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلما ، فى أحد القولين أيضا ، وذلك لقوته ، وتشوف الشرع إليه ، حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية .

واحتج الآخرون بأن التوبة : هى الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته . وأى رجوع لمن تاب من ذنب واحد ، وأصر على ألف ذنب ؟

قالوا : والله ـ سبحانه ـ إنما لم يؤاخذ التائب ؛ لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته ، وتاب توبة نصوحا ، والمصر على مثل ماتاب منه ـ أو أعظم ـ لم يراجع الطاعة . ولم يتب توبة نصوحا .

قالوا : ولأن التائب إذا تاب إلى الله ، فقد زال عنه اسم « العاصى » كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم « الكافر » ، وأما إذا أصر على غير الذنب الذى تاب منه فاسم « المعصية » لا يفارقه ، فلا تصح توبته .

وسر المسألة ، أن التوبة : هل تتبعض ، كالمعصية ، فيكون تائبا من وجه دون وجه ، كالإيمان والإسلام ؟

والراجح : تبعضها ؛ فإنها كما تتفاضل فى كيفيتها كذلك تفاضل فى كميتها ، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضا آخر ، لا ستحق العقوبة على ما تركه دون مافعله ، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر ؛ لأن التوبة فرض من الذنبين ، فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر ، فلا يكون ماترك موجبا لبطلان مافعل . كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة .

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد ، معناه الإقلاع عما يكرهه الله ، والندم عليه ، والرجوع إلى طاعته ، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة ، إذ هى عبادة واحدة ، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها ، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض .

وأصحاب القول الآخر يقولون : كل ذنب له توبة تخصه ، وهى فرض منه ، لا تتعلق بالتوبة من الآخر ، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر .

والذى عندى فى هذه المسألة : أن التوبة لا تصح من ذنب ، مع الإصرار على آخر من نوعه ، وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه :

فتصح ، كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلا ، فإن توبته من الربا صحيحة . وأما إذا تاب من ربا الفضل ، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه ، أو بالعكس ، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر ، أو بالعكس : فهذا لا تصح توبته ، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها ، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر ، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة . بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها فى الجنس ، إما لأن وزرها أخف ، وإما لغلبة دواعى الطبع إليها ، وقهر سلطان شهوتها له . وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة ، لا يحتاج إلى استدعائها ،بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها ، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يثوب منها ، وله بينهم حظوة بها وجاه . فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة ، كما قال أبو نواس لأبى العتاهية ، وقد لامه على تهتكه فى المعاصى:

أترانى ياعتـــاهى تاركا تلك المـــلاهى ؟
أترانى مفسدا بالنـ ـسك عند القوم جاهى ؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس ، وسرقة أموال المعصومين ، وأكل أموال اليتامى ، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة : صحت توبته مما تاب منه ، ولم يؤاخذ به ، وبقى مؤاخذا بما هو مصر عليه ، والله أعلم [١] .

فصل
بين الاستغفار والتوبة

الاستغفار نوعان : مفرد ومقرون بالتوبة . فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١)** ﴾ [نوح] ، وكقول صالح لقومه : ﴿ **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)** ﴾ [النمل] ، وكقوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)** ﴾ [البقرة] وقوله ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)** ﴾ [الأنفال] والمقرون كقوله تعالى : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [هود : ٣] وقول هود لقومه: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ﴾ [هود : ٥٢] وقول صالح لقومه: ﴿ **هُوَ**

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٧٣ ـ ٢٧٦) .

أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود]، وقول شعيب : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ [هود] ، فالاستغفار المفرد كالتوبة ، بل هو التوبة بعينها ، مع تضمنه طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ، ووقاية شره ، لا كما ظنه بعض الناس : أنها الستر ، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له ، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه ، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم .

وحقيقتها : وقاية شر الذنب ، ومنه المغفر ، لما يقى الرأس من الأذى . والستر لازم لهذا المعنى ، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرا ، ولا القبع ونحوه مع ستره ، فلا بد فى لفظ « المغفر» من الوقاية . وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] فإن الله لا يعذب مستغفرا . وأما من أصر على الذنب ، وطلب من الله مغفرته ، فهذا ليس باستغفار مطلق ؛ ولهذا لا يمنع العذاب ، فالاستغفار يتضمن التوبة ، والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستغفار : طلب وقاية شر ما مضى . والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

فهاهنا ذنبان : ذنب قد مضى ، فالاستغفار منه : طلب وقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على ألا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

وأيضا ، فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقا تؤديه إلى هلاكه ، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره ، ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته ، والتى توصله إلى مقصوده ، وفيها فلاحه .

فهاهنا أمران لابد منهما : مفارقة شىء، والرجوع إلى غيره . فخصت « التوبة » بالرجوع ، و « الاستغفار » بالمفارقة ، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ؛ ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتبا بقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٩٠] ، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل .

وأيضا ، فالاستغفار من باب إزالة الضرر ، والتوبة طلب جلب المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شر الذنب ، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده ، والله أعلم .

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [التحريم : ٨] فجعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال ما يكره العبد ، ودخول الجنات ـ وهو حصول مايحب العبد ـ منوطا بحصول التوبة النصوح . و « النصوح » على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدا للمبالغة ، كالشكور والصبور . وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة ، وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص ، فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف عنها . ومرجعها إلى شيء واحد . فقال عمر بن الخطاب، وأبى بن كعب ﷺ : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع . وقال الحسن البصرى : هى أن يكون العبد نادما على ما مضى ، مجمعا على ألا يعود فيه . وقال الكلبى : أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن . وقال سعيد بن المسيب : توبة نصوحا ، تنصحون بها أنفسكم . جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب .

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول ؛ أى قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش ، فهى إما بمعنى منصوح فيها ، كركوبة وحلوبة ، بمعنى مركوبة ومحلوبة ، أو بمعنى الفاعل ؛ أى ناصحة كخالصة وصادقة .

وقال محمد بن كعب القرظى : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الإخوان .

قلت : النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها ، بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته .

والثانى : إجماع العزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ، ولا تلوم ولا انتظار ، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها .

الثالث : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه ، والرهبة مما عنده ، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ، ومنصبه ورياسته ، ولحفظ حاله ، أو لحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس ، أو الهرب من ذمهم ، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الدنيا ، أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، والثالث : يتعلق بمن يتوب إليه ، والأوسط : يتعلق بذات التائب ونفسه ، فنصح التوبة الصدق فيها ، والإخلاص ، وتعميم الذنوب بها . ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه ، وتمحو جميع الذنوب ، وهى أكمل ما يكون من التوبة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل
فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفردا عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى ـ حاكيا عن عباده المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** (١٩٣) ﴾ [آل عمران] ، والمنفرد كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** (٢) ﴾ [محمد] وقوله فى المغفرة : ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد : ١٥] وكقوله : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ونظائره .

فهاهنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

فالذنوب : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر ، وهى ما تعمل فيه الكفارة ، من الخطأ وما جرى مجراه ؛ ولهذا جعل لها التكفير ، ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين ، فلا تعمل فى قتل العمد ، ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة .

والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [النساء] ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (١) .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ « التكفير » يتضمن الستر والإزالة ، وعند الإفراد : يدخل كل منهما فى الآخر . فقوله تعالى: ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾

---

(١) مسلم (٢٣٣ / ١٦) فى الطهارة ، باب : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر .

[محمد : ٢] ، يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها ، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ **لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ [الزمر : ٣٥] .

وإذا فهم هذا فهم السر فى الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة ، كقوله فى الحديث الصحيح : « ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه » [١] ، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة ، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب ، فهى كالبحر لا يتغير بالجيف ، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث .

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا ، فإن لم تف بطهرهم طهروا فى نهر الجحيم يوم القيامة : نهر التوبة النصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها ، ونهر المصائب العظيمة المكفرة . فإذا أراد الله بعبده خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة ، فورد القيامة طيبا طاهرا ، فلم يحتج إلى التطهير الرابع .

فصل
فى بيان أن توبة العبد بين توبتين من الله عز وجل

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليها قبلها ، وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما ، فتاب العبد . فتاب الله عليه ثانيا ، قبولا وإثابة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)** ﴾ [التوبة] فأخبر ـ سبحانه ـ أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هى التى جعلتهم تائبين ، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم ، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم ، والحكم ينتفى لانتفاء علته .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء ، فيهتدى بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ [محمد : ١٧] ،

---

(١) البخارى (٥٦٤٠ ـ ٥٦٤٢) فى المرضى ، باب ماجاء فى كفارة المرض ، ومسلم(٢٥٧٢ / ٤٧ ، ٢٥٧٣ / ٥٢) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المسلم فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

فهداهم أولا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانيا . وعكسه فى أهل الزيغ كقوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم .

وهذا القدر من سر اسميه : « الأول ، والآخر » فهو المعد ، وهو الممد ، ومنه السبب والمسبب ، وهو الذى يعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعرف الخلق به : « وأعوذ بك منك » (١) ، والعبد تواب ، والله تواب . فتوبة العبد : رجوعه إلى سيده بعد الإباق ، وتوبة الله نوعان : إذن وتوفيق ، وقبول وإمداد .

فصل
فى مبدأ التوبة ومنتهاها

التوبة لها مبدأ ومنتهى .

فمبدؤها : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذى نصبه لعباده ، موصلا إلى رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وبقوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى] ، وبقوله : ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)** ﴾ [الحج] .

ونهايتها : الرجوع إليه فى المعاد ، وسلوك صراطه الذى نصبه موصلا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة : رجع إليه فى المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)** ﴾ [الفرقان] ، قال البغوى وغيره :« ﴿ **يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ : يعود إليه بعد الموت ، متابا حسنا يفضل على غيره » ، فالتوبة الأولى ـ وهى قوله : ﴿ **وَمَن تَابَ** ﴾ : رجوع عن الشرك ، والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة .

والتأويل الثانى : أن الجزاء متضمن معنى الأوامر . والمعنى : ومن عزم على التوبة وأرادها ، فليجعل توبته إلى الله وحده ، ولوجهه خالصا ، لا لغيره .

التأويل الثالث : أن المراد لازم هذا المعنى ، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ، ورجع إليه . والمعنى : فليعلم توبته إلى من ؟ ورجوعه إلى من ؟ فإنها إلى الله لا إلى

---

(١) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٩) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود .

غيره .

ونظيره هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة : ٦٧] أى اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته .

والتأويل الرابع : أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها ، ثم إذا قوى العزم وصار جازما : وجد به فعل التوبة . فالتوبة الأولى : بالعزم والقصد لفعلها . والثانية : بنفس إيقاع التوبة وإيجادها . والمعنى : فمن تاب إلى الله قصدا ونية وعزما ، فتوبته إلى الله عملا وفعلا ، وهذا نظير قوله ﷺ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) (٢) .

فصل
فيمن ترك محبوبه حراما فبدل له حلالا أو أعاضه الله خيرا منه

إن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه ، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوضه الله أن مكنه فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبة فى الوصل الحلال فتزوجها ، فلما دخل بها قال : هذا خير مما كنت تريدين . فتأمل كيف جزاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ضيق السجن أن مكنه فى الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذل له العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، وهذه سنته تعالى فى عباده قديما وحديثا إلى يوم القيامة .

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التى شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس ، سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد .

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التى هى أحب شىء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها .

ولو اتقى الله السارقُ وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالا ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق] ، فأخبر

---

(١) البخارى (٦٦٨٩) فى الأيمان والنذور ، باب : النية فى الأيمان ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٧ ـ ٣١٥) .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزانى لو ترك ركوب ذلك الفرج حراما لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالا .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة ، عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة إلى المرأة سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه خوف الله أثابه الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه »[١] .

وقال عمر بن شيبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو الحسن المدنى ، عن على ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « نظر الرجل فى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره »[٢] .

وقال أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله تعالى : بلغنى عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة ، فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة ... والبدر فى منظر بالحسن موصوف

حتى رأيتك فى أثواب ثاكلة ... سود وصدغك فوق الخد معطوف

فرحت والقلب منى هائم دنف ... والكبد حرى ودمع العين مذروف

رُدّى الجواب ففيه الشكر واغتنمى ... وصل المحب الذى بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ ... إن الشريف بغض الطرف معروف

إن الزناة أناس لا خلاق لهم ... فاعلم بأنك يوم الدين موقوف

واقطع رجاك لحاك الله[٣] من رجل ... فإن قلبى عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأة تكون أشجع منك ؟ ثم تاب ولبس مدرعة [٤] من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فبينا هو فى الطواف يوما وإذا بتلك الجارية عليها درع من صوف ، فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ، هل لك فى المباح ؟ فقال : قد

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤١٣ ، ٤١٤) فى الرقاق ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » ، وذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة رقم (١٠٦٥) ، وقال: « ضعيف جدا » .

(٢) ذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٩ / ٣٤) .

(٣) لحاك الله : أى قبحك ولعنك .

(٤) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم .

كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه ، والآن شغلنى حبه عن حب غيره ، فقالت له : أحسنت ، ثم طافت وهى تنشد :

فطفنا فلاحت فى الطواف لوائح غنينا بها عن كل مرأى ومسمع

وقال الحسن البصرى : كانت امرأة بغى قد فاقت أهل عصرها فى الحسن لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلا أبصرها فأعجبته ، فذهب فعمل بيديه وعالج [١] فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنك قد أعجبتنى فانطلقت فعملت بيدى وعالجت حتى جمعت مائة دينار . فقالت : ادفعها إلى القهرمان [٢] حتى ينقدها ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل، وكان لها بيت منجد وسرير من ذهب فقالت : هلم لك ، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدى الله فأخذته رعدة وطفئت شهوته فقال : اتركينى لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : مابدا لك ، وقد رأيتنى كما زعمت فأعجبتك ، فذهبت فعالجت وكدحت حتى جمعت مائة دينار ، فلما قدرت على فعلت الذى فعلت ؟ فقال : ما حملنى على ذلك إلا الفرق من الله ، وذكرت مقامى بين يديه ، قالت : إن كنت صادقا فمالى زوج غيرك قال : ذرينى لأخرج ، قالت : لا إلا أن تجعل لى عهدا أن تتزوجنى فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوجنى ، قال : لعل ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدلت عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شهق شهقة فمات ، فأسقط فى يدها ، فقالت : أما هذا فقد فاتنى ، أما له من قريب؟ قيل : بلى أخوه رجل فقير ، فقالت : إنى أتزوجك حبا لأخيك ، قال : فتزوجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمى : خرج رجل من الحى حاجا فورد بعض المياه ليلا ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها فقالت له : هلم إلى فلم تعرض عنى ؟ فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت ، ثم قالت : هبْت والله مُهَابا ، إن أولى من شَركك فى الهيبة لمن أراد أن يشركك فى المعصية ، ثم ولت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحت أتيت رجلا من القوم فسألته عنها وقلت : فتاة صفتها كذا وكذا فقال : هى والله ابنتى ، فقلت : هل أنت مزوجنى بها ؟ فقال : على الأكفاء فمن أنت ؟ فقلت : رجل من تيم الله ، قال : كفو كريم ، فما رمت حتى تزوجتها ودخلت بها ، ثم قلت :

---

(١) عالج الشىء معالجة وعلاجا : مارسه وزاوله .

(٢) القهرمان : الوكيل الخاص بتدبير أحوالها .

جهزوها إلى قدومى من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة وها هى ذى ولى منها بنون وبنات ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرضك لى حينئذ ؟ فقالت : يا هذا ، ليس للنساء خير من الأزواج ، فلا تعجبن من امرأة تقول : هويت ، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بديار مصر رجل ، فوجد على بعض عماله فحبسه وقيده ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فهويته فكتبت إليه :

أيها الرامى بعينيه وفى الطـرف الحتـوف

إن ترد وصلا فقد أمكنك الظبى الألوف

فأجابها الفتى :

إن ترينى زانى العينين فالفـــرج عفيف

ليس إلا النظر الفاتر والشعـــر الظريف

فأجابته :

قـــــد أردناك فألفينـــاك إنسانا عفيفا

فتأبيت فـــــــلا زلت لقيديك حليفا

فأجابها :

مــا تأبيت لأنـــــى كنت للظبى عيـــوفــا [1]

غير أنى خفت ربــــا كان بى بـــــرا لطـيفـا

فذاع الشعر وبلغت القصة الوالى فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلا أحب امرأة وأحبته ، فاجتمعا ، فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلى ليس بيدى ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما ، وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المزنى : أن قصابا ولع بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلى حاجة فى قرية أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأنا أشد حبا لك منى ، ولكنى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائبا ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسول لبنى إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال :

(١) عيوفا : كارها ، وعاف الشىء : تركه وزهد فيه .

العطش ، فقال : تعالى حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عمل فأدعوه ، قال : فأنا أدعوه وأمن أنت ، فدعا وأمن الرجل ، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية فذهب القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسول فقال : زعمت أن ليس لك عمل ، وأنا الذى دعوت وأنت أمنت ، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، لتخبرنى ما أمرك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى يعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه شأنه ، فانصرف ليلة من صلاة العشاء فتمثلت له امرأة بين يديه ، فعرضت له بنفسها ففتن بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف على بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** (٢٠١) ﴾ [الأعراف] ، فخر مغشيا عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت ، فلم تزل هى وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره ، فخرج أبوه فرآه ملقى على باب الدار لما به ، فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يابنى ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهق شهقة فخرجت نفسه ، فبلغ عمر رضي الله عنه قصته فقال : ألا آذنتمونى بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يا فلان ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** (٤٦) ﴾ [الرحمن] فسمع صوتا من داخل القبر : قد أعطانى ربى يا عمر .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضي الله عنه على وجه آخر قال : كان شاب على عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ملازما للمسجد والعبادة ، فهويته جارية فحدث نفسه بها ، ثم إنه تذكر وأبصر فشهق شهقة فغشى عليه منها ، فجاء عم له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : ياعم ، انطلق إلى عمر فأقرئه منى السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال : لك جنتان .

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كان ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله وإنما حملتنى عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا وأنت لم تفعليه قط ؟ ثم قال : اذهبى والدنانير لك ، ثم قال : والله لا يعصى الله ذو الكفل أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : قد غفر الله لذى الكفل » . قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

---

(١) الترمذى (٢٤٩٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب : (٤٨) ، وضعفه الألبانى السلسلة الضعيفة (٤٠٨٣) .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس ﷺ : خطب رسول الله ﷺ قبل وفاته فقال فى خطبته : « ومن قدر على امرأة أو جارية حراما فتركها مخافة من الله أمنه الله يوم الفزع الأكبر ، وحرمه على النار وأدخله الجنة » .

وقال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جوار خلقن من ورد الجنة ، يسكنها الذين هموا بالمعاصى فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه ، فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل .

قال ميمون بن مهران : الذكر ذكران : فذكر الله عز وجل باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عز وجل عندما تشرف على معاصيه .

وقال قتادة ﷺ : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله عز وجل ، إلا أبدله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » (١) .

وقال عبيد بن عمير : صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها لا يدعها إلا لله عز وجل .

وقال أبو عمران الجونى : كان رجل من بنى إسرائيل لا يمتنع من شىء ، فجهد (٢) أهل بيت من بنى إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئا ، فقال : لا ، أو تمكنينى من نفسك ، فخرجت فجهدوا جهدا شديدا ، فرجعت إليه فقالت : أعطنا ، فقال : لا أو تمكنينى من نفسك ، فرجعت ، فجهدوا جهدا كثيرا فأرسلوها إليه فقال لها ذلك ، فقالت : دونك ، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السعفة ، قال لها : مالك ؟ قالت : إنى أخاف الله رب العالمين ، هذا شىء لم أصنعه قط ، قال : أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعاهد الله أنى لا أرجع إلى شىء مما كنت فيه ، فأوحى الله إلى نبى من أنبيائهم : أن فلانا أصبح فى كتب أهل الجنة .

وذكر أن شابا فى بنى إسرائيل لم يكن فيهم شاب أحسن منه كان يبيع المكاتل ، فبينا هو ذات يوم يطوف بمكاتله إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بنى إسرائيل ، فلما رأته رجعت مبادرة فقالت لابنة الملك : إنى رأيت شابا بالباب يبيع المكاتل لم أر شابا قط أحسن منه ، قالت : أدخليه ، فخرجت فقالت : ادخل فدخل ، فأغلقت الباب دونه ، ثم قالت : ادخل فدخل ، فأغلقت بابا آخر دونه ، ثم استقبلته بنت الملك كاشفة عن

---

(١) انظر : كنز العمال (٤٣١١٣) وعزاه إلى ابن جرير فى التفسير .

(٢) جهد أهل البيت : أجدبوا ، وجهد العيش : ضاق واشتد .

وجهها ونحرها ، فقال لها : استترى عافاك الله ، فقالت : إنا لم ندعك لهذا ، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه ، فقال لها :اتقى الله ، قالت : إنك إن لم تطاوعنى على ما أريد أخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرنى (١) على نفسى ، قال لها : فضعى لى وضوءا، فقالت : أعلى تتعلل ؟ ياجارية ، ضعى له وضوءا فوق الجوسق (٢) مكانا لا يستطيع أن يفر منه ، فلما صار فى الجوسق قال: اللهم إنى دعيت إلى معصيتك وإنى أختار أن ألقى نفسى من هذا الجوسق ولا أركب معصيتك ، ثم قال : بسم الله ، وألقى نفسه من أعلاه ،فأهبط الله ملكا أخذ بضبعيه ،فوقع قائما على رجليه ، فلما صار فى الأرض قال:اللهم إن شئت رزقتنى رزقا يغنينى عن بيع هذه المكاتل، فأرسل الله عليه رجلا (٣) من جراد من ذهب فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار فى ثوبه قال : اللهم إن كان هذا رزقا رزقتنيه من الدنيا فبارك لى فيه ، وإن كان ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة فلا حاجة لى فيه، فنودى: إن هذا الذى أعطيناك جزء من خمسة وعشرين جزءا لصبرك على إلقائك نفسك ، فقال: اللهم فلا حاجة لى فيما ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة ،فرجع الجراد .

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن رجل من بعض المياسير (٤) قال : بينا أنا يوما فى منزلى إذ دخل علىَّ خادم لى فقال لى : رجل بالباب معه كتاب ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تجنبك الردى ولقيت خيـرا	وسلمك المليك من الغمـوم
شكون بنات أحشائى إليكم	وما إن تشتكين إلى ظلـوم
وسالتنى الكتاب إليك فيما	يخامرها ـ فدتك ـ من الهموم
وهن يقلن يا بن الجود إنا	برمنا من مراعاة النجـوم
وعندك لو مننت شفاء سقم	لأعضاء دمين من الكلُـوم

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يره فارتبت فى أمره ، فجعل الفكر يتردد فى قلبى ، فدعوت جوارىَّ كلهن فجمعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فحلفن لى وقلن : يا سيدنا ، ما نعرف لهذا الكتاب سببا ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتنى وما أردت سؤالكن إلا أنى ظننت له هوى فى بعضكن ،

---

(١) تكابرنى على نفسى : تراودنى عن نفسى .
(٢) الجوسق : القصر أو الحصن .
(٣) الرجل : طائفة عظيمة من الجراد .
(٤) جمع ميسور : ذو اليسار والغنى .

فمن عرفت منكم أنها صاحبته فهى له ، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابى إليه ، وكتبت كتابا أشكره على فعله وأسأله عن حاله ، ووضعت الكتاب فى موضع فى الدار ، فمكث الكتاب فى موضعه حينا لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل ، فاغتممت غما شديدا . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع ممن يحبه بالنظر ، فدبرت عليه فحجبت جوارىَّ عن الخروج ، فما كان إلا يوم وبعض الآخر إذ دخل على الخادم ومعه كتاب قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعض أصدقائى ففضضته فإذا فيه مكتوب :

ماذا أردت إلى روح معلقـــــة ... عند التراقى وحادى الموت يحدوها

حثثت حاديها ظلما فجـد بهـــا ... فى السير حتى تولت عن تـراقيهـا

حجبت من كان تحيا عند رؤيتهـا ... روحى ومن كان يشفينى تـرائيهـا

فالنفس تجنح نحو الظلم جاهلة ... والقلب منى سليم مـا يـؤاتيهـــا

والله لو قيل لى تأتى بفاحشـــة ... وإن عقباك دنيـانـا ومـا فيهـــا

لقلت لا والذى أخشى عقــوبته ... ولا بأضعافـهـا مـاكـنت آتيهـــا

لولا الحياء لبحنا بالـــذى كتمـت ... بنت الفــؤاد وأبـدينــا تمنيهـــا

قال :فبهت وقلت : لا أدرى ما أحتال فى أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحد بكتاب إلا قبضت عليه حتى تدخله على ، ثم لم أعرف له خبرا بعد ذلك ، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتى قد أقبل نحوى وجعل يطوف إلى جنبى ويلاحظنى ، وقد صار مثل العود ، فلما قضيت طوافى خرجت وأتبعنى فقال : ياهذا ، أتعرفنى ؟ قلت : لا أنكرك لسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالكت أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبى أنت وأمى ، والله لقد شغلت قلبى وأطلت غمى بشدة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقر عينيك ، إنما أتيتك أستحلك من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة ، والهوى داع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حبيبى ، أحب أن تصير معى إلى منزلى فآنس بك وتجرى الحرمة بينى وبينك ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار ، ولك فى كل سنة كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها ، فلولا عهود عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها على لم يكن فى الدنيا شىء أحب إلى من هذا الذى تعرضه على ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا أبيت أن تقبل منى ذلك فأخبرنى من هى حتى أكرمها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحد ، ثم قام وتركنى .

وذكر عبد الملك بن قريب قال : هوى رجل من النساء جارية فاشتد حبه لها ، فبعث إليها يخطبها ، فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ، فأبى وقال : لا إلا ما أحل الله ، ثم إن محبته ألقيت فى قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لى بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتنى إلى معصيته .

وحكى المبرد عن شيخه أبى عثمان المازنى أنه قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه : « كتاب سيبويه » ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع ورده ، فقلت له: أترد هذا القدر مع شدة فاقتك ؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذمى منها غيرة على القرآن ، فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق [1] بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجـلا أهدى السلام تحية ظلم ؟

فاختلف أهل مجلسه فى إعراب رجل ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرت على النصب وقالت : لقننى إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازنى ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلما مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أى الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمنى بكلام قومى فقال لى : با اسمك ؟ وقومى يقلبون الميم باء والباء ميما ، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأعجب به ، فقال : ما تقول فى قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجـلا أهدى السلام تحية ظلم ؟

أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم ، فأخذ البزيدى فى معارضتى ، فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدا ظلم ، فرجلا مفعول مصابكم ومنصوب به ، والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم فيتم ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيَّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيـا أبتـا لا تـــرم عنـدنا فإنـــا بخيـر إذا لـم تـــرم

ترانا إذا أضمرتك البــلا د نُجفى وتُقَطّع منا الرحـم

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجـاح

(١) فى المطبوع : « الواثق » ، والصواب ما أثبتناه .

فقال : على النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردنى إلى البصرة مكرما ، فقال أبو العباس المبرد : فلما عاد إلى البصرة قال لى : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوضنا الله ألفا .

فصل
فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا باب إنما يدخل منه رجلان :

أحدهما : من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فآثر أدنى الفوتين ، واختار أسهل العقوبتين .

والثانى : رجل غلب عقله على هواه فعلم ما فى الفاحشة من المفاسد ، وما فى العدول عنها من المصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليوسف الصديق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)** ﴾ [يوسف] فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ ، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤)** ﴾ [الإسراء] ؛ ولهذا كان من دعائه :« يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١) ، وكانت أكثر يمينه : « لا ومقلب القلوب» (٢) كيف وهو الذى أنزل عليه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال : ٢٤] ،وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك فى الدنيا المسرة التامة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله .

وفى بعض الآثار الإلهية :يقول الله سبحانه وتعالى:« بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى » .

---

(١) الترمذى (٣٥٢٢) فى الدعوات ، باب : (٩٠) ، وقال : « حسن » ، وصححه الألبانى ، صحيح الترمذى (٣٧٦٨) ، وفى ظلال الجنة رقم (٢٢٣) .

(٢) البخارى (٦٦٢٨) فى الأيمان والنذور ، باب : كيف كانت يمين النبى ﷺ .

وكل من خرج عن شئ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه ؛ ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون ، وعوضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدان طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش [١] ، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن منبه : كان عابد من عباد بنى إسرائيل يتعبد فى صومعة فجعل رجل من بنى إسرائيل إلى امرأة بغى فبذل لها مالا وقال : لعلك أن تفتنيه ، فجاءته فى ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آونى إليك ، فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبد الله آونى إليك ، أما ترى الظلمة والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريبا منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدم إلى المصباح فوضع إصبعا من أصابعه ، حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها ، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعا وهى تنظر ، فصعقت وماتت .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا أمية بن شبل ، عن عبد الله بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابدا من بنى إسرائيل كان فى صومعته يتعبد ، فإذا نفر من الغواة قالوا : لو استنزلناه بشيء فذهبوا إلى امرأة بغى فقالوا لها : تعرضى له، فجاءته فى ليلة مظلمة مطيرة ، فقالت : يا عبد الله ، آونى إليك ، وهو قائم يصلى ومصباحه ثاقب [٢] ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبد الله ، الظلمة والغيث ، آونى إليك ، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلى ، فجعلت تتقلب وتريه محاسن خلقها حتى دعته نفسه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعا من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مصلاه ، قال : فدعته نفسه أيضا ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضا حتى احترقت أصابعه وهى تنظر إليه فصعقت فماتت . فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما صنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : يا عدو الله يا مرائى ، وقعت عليها ثم قتلتها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعونى حتى أصلى ركعتين ، قال : فصلى ثم دعا فقال : أى رب إنى أعلم أنك لم تكن لتؤاخذنى بما لم أفعل ، ولكن أسألك ألا أكون عارا على القرى[٣]

---

(١) مسلم (١٨٨٧) فى الإمارة ، باب : بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

(٢) ثاقب : مضئ .

(٣) القرى: جمعه قوارى وهم الناس الصالحون . اللسان (قرى)

بعدى، قال : فرد الله نفسها فقالت : انظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينما رجل عابد عند امرأة إذ عمد فضرب بيده على فخذها ، فأخذ يده فوضعها فى النار حتى نشت .

وقال حصين بن عبد الرحمن : بلغنى أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يتفقده إذا غاب ، فعشقته امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أحتال لك فى إدخاله عليك ،فقعدت له فى الطريق ، فلما مر بها قالت له : إنى امرأة كبيرة السن ولى شاة لا أستطيع أن أحلبها ، فلو دخلت فحلبتها لى ـ وكانوا أرغب شىء فى الخير ـ فدخل فلم ير شاة ، فقالت: اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب فى البيت فقعد فيه فأرادته عن نفسه فأبى ، وقال : اتقى الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تكف ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاؤوها فقالت : إن هذا دخل على يريدنى عن نفسى ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلى عمر الغداة فقده ،فبينا هو كذلك إذ جاؤوا به فى وثاق ، فلما رآه عمر قال : اللهم لا تخلف ظنى به ،قال: ما لكم؟ قالوا :استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه :اصدقنى ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضي الله عنه :أتعرف العجوز؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاء بهن فعرضهن ، فلم يعرفها فيهن ، حتى مرت به العجوز فقال:هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرة وقال : اصدقينى ، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فينا شبيبة يوسف .

وقال أبو الزناد : كان راهب يتعبد فى صومعته فأشرف منها فرأى امرأة ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه العصمة فقال : رِجْلٌ خرجت من الصومعة لتعصى الله والله لا تعود معى فى صومعتى ، فتركها معلقة خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت فشكر الله ذلك من صنعه ، ومدحه فى بعض كتبه بذى الرجل .

وقال مصعب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة بيته ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفضحك ، فخرج هاربا عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالسا عند رجل فى حاجة ، فمر بنا شيخ حسن

الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال : يا أبا محمد ، أسأل الله أن يعظم أجرك ، وأن يربط على قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يمينى فى الوغى ومساعـدى فأصبحت قد خانت يمينى ذراعها

وقد صرت حيرانا من الثكل باهتا أخـا كلف ضاقـت على رباعهـا

فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر معول المؤمن ، وإنى لأرجو ألا يحرمك الله الأجر على مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجل منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به بارا قد كفاه جميع ما يعنيه ، ومنيته عجب ، قلت : وما كانت ؟ قال أحبته امرأة فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديق له ، فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك ، فأمسك ، وأرسلت إليه أما أن تزورنى وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب فى تهييجه ، فعملت لها فى ذلك ، فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط ، فقام مسرعا فصلى واستعاذ والأمر يشتد ، فقال : يا أبه ، أدركنى بقيد ، فقال : يا بنى ، ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيده وأدخله بيتا ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره .

فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودى : كان رجلان فى بنى إسرائيل عابدين ، وكانت جارية جميلة فأحباها وكتم كل منهما صاحبه ، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها ، فبصر كل منهما سره إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قربت منهما قالا لها : قد عرفت منزلتنا فى بنى إسرائيل ، وإنك إن لم تؤاتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلا ، وإنه أفلتنا ، وإنا أخذناك ، فقالت : ما كنت لأطيعكما فى معصية الله ، فأخذاها وقالا : إنا أصبنا معها رجلا فأفلتنا ، وأقبل نبى من أنبيائهم فوضعوا له كرسيا فجلس عليه وقال : أقضى بينكم ؟ فقالا : نعم اقض بيننا ، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما : خلف أى شجرة رأيتها ؟ قال : شجرة كذا وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التى ذكر صاحبه ، ونزلت نار من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جارية من جواريه فأرادها فقالت : إن

أباك مسنى ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماء وبى عطش شديد	ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكينى	وأن الناس عندى كالعبيد
وأنك لو قطعت يدى ورجلى	لقلت من الرضا أحسنت زيدى

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أو كلما قالت جارية شيئا تصدق ؟ قال ابن المبارك : فلا أدرى ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها حيث رغبت عنه ، أو من أبى يوسف حيث سوغ له إتيانها .

وقال أبو عثمان التيمى : مر رجل براهبة من أجمل النساء فافتتن بها ، فتلطف فى الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغتر بما ترى وليس وراءه شىء، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مجمرة فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتنى على نفسى خفت أن أشاركك فى اللذة فأشاركك فى المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبدا وتاب مما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغانى : أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن أصحابه ، فمر بقرية فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها ، فقالت : إنى غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتاب فقالت : انظر فى هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعد الله للزانى من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ،فكره أن يقربها مخافة أن يكون للملك فيها حاجة فاعتزلها ، فاستعدى عليه أهل الزوجة إلى الملك وقالوا: إن لنا أرضا فى يد الرجل فلا هو يعمرها ولا هو يردها علينا وقد عطلها ، فقال الملك: ما تقول ؟ فقال : إنى رأيت فى هذه الأرض أسدا ، وأنا أتخوف دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : أعمر أرضك فإن الأسد لا يدخلها ،ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت فى نفس رجل موسر وكانت جميلة وكانت تخطب فتأبى ، فبلغ الرجل أنها تريد الحج ، فاشترى ثلاثمائة بعير ونادى : من أراد الحج فليكتر من فلان ، فاكترت منه المرأة ، فلما كان فى بعض الطريق جاءها فقال : إما أن تزوجينى نفسك ، وإما غير ذلك ، فقالت : ويحك اتق الله ! فقال : ماهو إلا ما تسمعين ، والله ما أنا بجمال ولا خرجت إلا من أجلك ،فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقى فى الرجال عين لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلهم ، قالت : أفنامت عين رب العالمين؟ ثم شهقت شهقة خرت ميتة ،وخر الرجل مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : ويحى قتلت نفسا ولم أبلغ شهوتى .

وقال وهب بن منبه : كان فى بنى إسرائيل رجل متعبد شديد الاجتهاد فرأى يوما امرأة فوقعت فى نفسه بأول نظرة ، فقام مسرعا حتى لحقها فقال : رويدك يا هذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا لكان لنا رأى ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبى من أمرك عارض ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعينى على ذلك ؟ قالت : نعم ، فحلت به فى موضع فلما رأته مجدا فى الذى سأل قالت : رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده ، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال : لا حرمك الله ثواب فعلك . ثم تنحى ناحية فقال لنفسه : اختارى إما عمى العين ، وإما الجب ، وإما السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحة مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحب رجل جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب ، فما زال يحتال فى أمرها حتى اجتمع معها فى ليلة مظلمة شديدة السواد ، فحادثها ساعة ثم دعته نفسه إليها فقال : يا هذه ، قد طال شوقى إليك ، قالت : وأنا كذلك ،فقال :هذا الليل قد ذهب ، والصبح قد اقترب ، قالت : هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات ، فقال لها : لو دنوت منى . فقالت : هيهات ، أخاف البعد من الله ، قال : فما الذى دعاك إلى الحضور معى ؟ قالت شقوتى وبلائى ، قال لها : فمتى أراك ؟ قالت : ما أنساك ، وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحييت مما سمعت منها ، وأنشد :

توقت عذابا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذبا
وقالت مقالا كدت من شدة الحيا ... أهيم على وجهى حيا وتعجبا
ألا أف للحب الذى يورث العمى ... ويورد نارا لا تمل التلهبا
فأقبل عودى فوق بدئى مفكرا ... وقد زال عن قلبى العمى فتسربا

وقال ابن خلف : أخبرنى أبو بكر العامرى قال : عشقت عاتكة المرية ابن عم لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت وقالت :

فما طعم ماء من سحاب مسروق ... تحدر من غر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن واد تطلعت ... عليه رياح الصيف من كل جانب
ترقرق ماء المزن فيهن والتقت ... عليهن أنفاس الرياض الغرائب
نفت جرية الماء القذى عن متونه ... فليس به عيب تراه لشارب
بأطيب مما يقصر الطرف دونه ... تقى الله واستحياء تلك العواقب[1]

(١) روضة المحبين (٤٤٥ ـ ٤٦٨) .

العلم والعلماء



فصل
فى العلم وفضله وشرفه
وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١٨) ﴾ [آل عمران] ،استشهد ـ سبحانه ـ بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده ، فقال : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ . وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثانى : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » [١] .وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة : رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضى فادعى عليه دعوى، فسأل المدعى عليه فأنكر، فقال للمدعى:ألك بينة ؟ قال : نعم فلان وفلان ، قال:أما فلان فمن شهودى ، وأما فلان فليس من شهودى . قال : فيعرفه القاضى ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بكتب الحديث : قال : فكيف تعرفه فى كتب الحديث ؟ قال : ما علمت إلا خيرا . قال : فإن النبى ﷺ قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » [٢] ، فمن عدله رسول الله ﷺ أولى ممن عدلته أنت . فقال : قم فهاته ، فقد قبلت شهادته .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ،وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ، ثم بخيار خلقه وهم

(١ ،٢) حديث حسن ،كنت قد جمعت كل ما يتعلق به سندًا ومتنًا ،فى تحقيقى لكتاب « شرف أصحاب الحديث» للخطيب،وراجع «بدائع التفسير (١/ ٤٧٩) ولذا لا يعتد بالتعليق رقم (١) (٧/ ١٣٠) فى جامع الفقه .

ملائكته ، والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا .

السابع : أنه استشهد بهم على أجل مشهود به ، وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة : أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن : أنه ـ سبحانه ـ جعل شهادتهم حجة على المنكرين ؛ فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه ـ سبحانه ـ أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه ـ سبحانه ـ شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما ، وهم الشاهدون بها له ، إقرارا واعترافا ، وتصديقا وإيمانا .

العاشر : أنه ـ سبحانه ـ جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا ، فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية .

الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله : أنه ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم ، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ [الحشر : ٢٠] ، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم .

الوجه الثانى عشر : أنه ـ سبحانه ـ جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون ، فقال : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] فما ثم إلا عالم أو أعمى ، وقد وصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بأنهم : صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه .

الوجه الثالث عشر : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقا ،وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادا بهم ، فقال تعالى: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] .

الوجه الرابع عشر : أنه ـ سبحانه ـ أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم ، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ⑦ ﴾ [الأنبياء] ، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء .

الوجه الخامس عشر : أنه ـ سبحانه ـ شهد لأهل العلم شهادة فى ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله ، فقال تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ⑪④ ﴾ [الأنعام] .

الوجه السادس عشر : أنه ـ سبحانه ـ سَلَّى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئا ، فقال تعالى : ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** ⑩⑥ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** ⑩⑦ **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** ⑩⑧ ﴾ [الإسراء] ، وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا ، فسواء آمن به غيرهم أو لا .

الوجه السابع عشر : أنه ـ سبحانه ـ مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات فى صدورهم ، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ** ④⑦ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ④⑧ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ④⑨ ﴾ [العنكبوت] .

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر فى صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ ، وهو فى نفسه آيات بينات ، فيكون أخبر عنه بخبرين : أحدهما : أنه آيات بينات ، الثانى : أنه محفوظ مستقر ثابت فى صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات فى صدورهم ، أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم ، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم فى ضمنه الاستشهاد بهم ، فتأمله .

الوجه الثامن عشر : أنه ـ سبحانه ـ أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم ، فقال تعالى : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ⑪④ ﴾ [طه] وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

الوجه التاسع عشر : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**

خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة] ، وأخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه برفع الدرجات فى أربعة مواضع : أحدها هذا . والثانى : قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال] . والثالث : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه] . والرابع : قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦] . فهذه أربعة مواضع فى ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذى هو العلم النافع والعمل الصالح . والرابع : الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين .

الوجه العشرون : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم] .

الوجه الحادى والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته ، بل خصهم من بين الناس بذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] ، وهذا حصر لخشيته فى أولى العلم ، وقال تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة] ، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء ، فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا .

الوجه الثانى والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أمثاله التى يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها ، فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت] وفى القرآن بضعة وأربعون مثلا ، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكى ويقول : لست من العالمين .

الوجه الثالث والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة ، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعة درجته بعلم الحجة ، فقال تعالى ـ عقيب مناظرته لأبيه وقومه فى سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام] . قال زيد بن أسلم رضي الله عنه : نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة .

الوجه الرابع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (١٢) ﴾ [الطلاق] ، فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر .

الوجه الخامس والعشرون : أن الله ـ سبحانه ـ أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم ، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨) ﴾ [يونس] ،وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن ،والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق ، وهما أفضل علم وأفضل عمل .

الوجه السادس والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا ، فقال تعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة : ٢٦٩] . قال ابن قتيبة والجمهور : الحكمة إصابة الحق والعمل به ، وهى العلم النافع والعمل الصالح .

الوجه السابع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ عدد نعمه وفضله على رسوله ، وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة ، وعلمه مالم يكن يعلم ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** (١١٣) ﴾ [النساء] .

الوجه الثامن والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها ، وأن يذكروه على إسدائها إليهم ، فقال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (١٥١) **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) ﴾ [البقرة] .

الوجه التاسع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٣٠) **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٣١) **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (٣٢) ﴾ [البقرة] إلى آخر قصة آدم ،وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء . وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه :

أحدها : أنه ـ سبحانه ـ رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه ! فقال : ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٣٠) ﴾ [البقرة] فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن

الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج ـ سبحانه ـ هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثانى : أنه ـ سبحانه ـ لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : ﴿ **أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه ، فقالوا : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال : ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ أقروا له بالفضل .

الثالث : أنه ـ سبحانه ـ لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)** ﴾ [البقرة] فعرفهم ـ سبحانه ـ نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفا للعلم .

الرابع : أنه ـ سبحانه ـ جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد ـ سبحانه ـ أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما فى الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض ،وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته ، أطلقه من الحبس ومكنه فى الأرض ، فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ، ولو كانت أجمل صورة .

وهذا وجه مستقل فى تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم ، فتم به ثلاثون وجها .

الوجه الحادى والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ ذم أهل الجهل فى مواضع كثيرة من كتابه ، فقال

تعالى : ﴿ولَكنَّ أَكْثَرَهُم يَجْهَلُونَ ⦗١١١⦘ ﴾ [الأنعام] ، وقال : ﴿ولَكنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ⦗٣٩⦘ ﴾ [الدخان] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ⦗٤٤⦘ ﴾ [الفرقان] فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم ، وقال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ⦗٢٢⦘ ﴾ [الأنفال] أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب ، فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال ، بل أعداؤهم على الحقيقة ، وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ⦗٣٥⦘ ﴾ [الأنعام] ،وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ⦗٦٧⦘ ﴾[البقرة] وقال لأول رسله نوح عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ⦗٤٦⦘ ﴾ [هود] فهذه حال الجاهلين عنده ، والأول حال أهل العلم عنده ، وأخبر ـ سبحانه ـ عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُوراً ⦗٤٥⦘ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الإسراء] ، وأمر نبيه بالإعراض عنهم فقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ⦗١٩٩⦘ ﴾ [الأعراف]،وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومتاركتهم ،كما في قوله:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ⦗٥٥⦘ ﴾[القصص]،وقال تعالى﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ⦗٦٣⦘ ﴾[الفرقان] وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه .

الوجه الثاني والثلاثون : أن العلم حياة ونور ، والجهل موت وظلمة ، والشر كله سببه عدم الحياة والنور ، والخير كله سببه النور والحياة ، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ، ويبين مراتبها ، والحياة هي المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه، وضده الوقاحة والفحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء ، قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، كان ميتا بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ،وجعل له من الإيمان نورا يمشى به فى الناس،وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⦗٢٨⦘ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ⦗٢٩⦘ ﴾ [الحديد] ، وقال تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾[البقرة]،وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] ،فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ،ونور يحصل به الإضاءة والإشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور.

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾ [النساء] ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق]،وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾[النور] فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضي الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور:٣٥] يعنى نور الإيمان على نور القرآن،كما قال بعض السلف: يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ،فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور ،وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى :٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن .وقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢]،وقد تقدمت هذه الآيات .وقال فى آية النور: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ وهو نور الإيمان على نور القرآن .

وفى حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « أن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [يونس] والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف

الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه (١) . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » (٢) فذكر الأصلين ؛ وهما داعى القرآن ، وداعى الإيمان . وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من الإيمان ، ثم علموا من القرآن» (٣) .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» (٤) فجعل الناس أربعة أقسام : أهل الإيمان والقرآن وهم خير الناس . الثانى: أهل الإيمان الذين لا يقرؤون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان : أحدهما : من أوتى قرآنا بلا إيمان فهو منافق . والثانى : من لا أوتى قرآنا ولا إيمانا . والمقصود : أن القرآن والإيمان : هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أجل العلوم وأفضلها ؛ بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢١٣) ﴾ [البقرة] .

الوجه الثالث والثلاثون : أن الله ـ سبحانه ـ جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم، وهذا أيضا من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده ، فدل على شرف العلم وفضله، قال الله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٤) ﴾ [المائدة] ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء .

الوجه الرابع والثلاثون : أن الله ـ سبحانه ـ أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده ، وكلمه منه إليه ، أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما إلى علمه ، فقال : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** (٦٠) ﴾ [الكهف] ،

(١) الترمذى (٢٨٥٩) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « غريب » .
(٢) أحمد (٤ / ١٨٢ ، ١٨٣) ، وصححه الحاكم (١ / ٧٣) ، ووافقه الذهبى .
(٣) البخارى (٦٤٩٧) فى الرقاق ، باب : رفع الأمانة ، ومسلم (١٤٣ / ٢٣٠) فى الإيمان ، باب : رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب .
(٤) البخارى (٥٠٢٠) فى فضائل القرآن ، باب : فضل القرآن على سائر الكلام ، ومسلم (٧٩٧ / ٢٤٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة حافظ القرآن .

حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾ [الكهف] فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته ، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه ، وقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾ [الكهف] فلم يجئ ممتحنا ولا متعنتا ، وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم ، فإن نبى الله وكليمه سافر ورحل ، حتى لقى النصب من سفره فى تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفى قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها .

الوجه الخامس والثلاثون : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة] ، ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه فى الدين ، وهو تعلمه ، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم ، وقد اختلف فى الآية ، فقيل : المعنى إن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم ؛ بل ينبغى أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ، ثم ترجع تعلم القاعدين ، فيكون النفير على هذا نفير تعلم ، والطائفة تقال على الواحد فما زاد . قالوا : فهو دليل على قبول خبر الواحد ، وعلى هذا حملها الشافعى وجماعة . وقالت طائفة أخرى : المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم ؛ بل ينبغى أن تنفر طائفة للجهاد ، وفرقة تقعد تتفقه فى الدين ، فإذا جاءت الطائفة التى نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا ﴾ ، ﴿وَلِيُنذِرُوا ﴾ للفرقة التى نفرت منها طائفة ، وهذا قول الأكثرين ، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله ، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد ، قال الله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ٤١] ، وقال النبى ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » (١) وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو ترغيب فى التفقه فى الدين وتعلمه وتعليمه ، فإن ذلك يعدل الجهاد ؛ بل ربما يكون أفضل منه كما سيأتى تقريره فى الوجه الثامن والمائة إن شاء الله تعالى .

الوجه السادس والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾[العصر]. قال الشافعى رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة لكفتهم ، وبيان ذلك : أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه

---

(١) البخارى (٣٠٧٧) فى الجهاد ، باب : لا هجرة بعد الفتح ، ومسلم (١٣٥٣/ ٨٥) فى الإمارة ، باب : المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان معنى : « لا هجرة بعد الفتح » .

من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه ، فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة ، وأقسم ـ سبحانه ـ فى هذه السورة بالعصر أن كل أحد فى خسر ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه مكملا لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه ؛ العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه ، وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذى جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه ، شافيا من كل داء ، هاديا إلى كل خير .

الوجه السابع والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم ، فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله : ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ [النساء] ، وقد تقدمت هذه الآية ، وقال فى يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]، وقال فى كليمه موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص] ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمرا عظيما خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعنى تم وكملت قوته ،وقال فى حق المسيح: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] ،وقال فى حقه: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به ،وقال فى حق داود: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾ [ص] ، وقال فى حق الخضر صاحب موسى وفتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته .

وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء] ،فذكر النبيين الكريمين ،وأثنى عليهما بالحكم والعلم،وخص بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ،ومن

صار إلى هذا ، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه ، وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩١] يعني الذي أنزله جعل ـ سبحانه ـ تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل ،فكيف يقولون: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٩١]،وهذا من فضل العلم وشرفه،وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة،والله الموفق للرشاد .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ [الجمعة] يعني وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي ، فقيل : هو اللحاق في الزمان أي يتأخر زمانهم عنهم ، وقيل : هو اللحاق في الفضل والسبق وعلى التقديرين ، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل ، وهداهم بعد الضلالة ، ويالها من منة عظيمة ، فأتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن .

الوجه الثامن والثلاثون : أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة العلق ، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه مالم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم ، فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] ،فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموما ، فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته ،وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ،وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة ، فهي مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم،وهو الأفعل من الكرم ،وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه ـ سبحانه ـ فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ،والنعم كلها هو موليها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقا ، ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصا ، فقال :

﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس،ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا ، فقال: ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فإن الوجود له مراتب أربعة: إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿ **خَلَقَ** ﴾ المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ . المرتبة الثالثة والرابعة : اللفظية والخطية ،فالخطية مصرح بها فى قوله : ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ ، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم ،فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور ، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه ـ سبحانه ـ هو معطيها بخلقه وتعليمه ،فهو الخالق المعلم،وكل شىء فى الخارج فبخلقه وجد،وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه ،وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفا وفضلا له .

الوجه التاسع والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ سمى الحجة العلمية سلطانا . قال ابن عباس رضي الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٨) ﴾ [يونس] يعنى : ماعندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [النجم : ٢٣] يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهانا ؛ بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ،وقال تعالى: ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ** (١٥٦) **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٥٧) ﴾ [الصافات] يعنى حجة واضحة ، فائتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعا واحدا اختلف فيه ، وهو قوله: ﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ** (٢٨) **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** (٢٩) ﴾ [الحاقة] فقيل : المراد به القدرة والملك أى : ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان ، وقيل :هو على بابه أى : انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ سمى علم الحجة سلطانا ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ؛ بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب،وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن ، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها ؛ بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع ، والأسود ونحوها قدرة بلا علم ، ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له .

الوجه الأربعون : أن الله تعالى وصف أهل النار بالجهل ، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)** ﴾ [الملك] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون ، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [الأعراف] فأخبر ـ سبحانه ـ أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث ، وهى العقل والسمع والبصر ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)** ﴾ [الحج] وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)** ﴾ [الأحقاف] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم ، وشبههم بالأنعام تارة ، وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار ، وتارة جعلهم أضل من الأنعام ،وتارة جعلهم شر الدواب عنده ،وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء ،وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال،وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل ،وذم أهله وبغضه لهم ، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم ، كما تقدم ، والله المستعان .

الوجه الحادى والأربعون : ما فى الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » [1] وهذا يدل على أن من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا ، كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ، ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل ، وأما أن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا ، فإن الفقه حينئذ يكون شرطا لإرادة الخير ، وعلى الأول يكون موجبا ، والله أعلم .

الوجه الثانى والأربعون : ما فى الصحيحين أيضا من حديث أبى موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا،فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ،وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله

---

(١) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

به فعلم وعلم ،ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ،ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[١]
شبه ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث ؛ لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية،وسائر مصالح العباد ،فإنها بالعلم والمطر ،وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر؛ لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع،كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ،ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام ، بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه،واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده.

أحدها : أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه ،واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء ،وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء ، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية .

القسم الثانى : أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ، ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ، ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه ، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ، ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه :« إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ».

والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت، فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين،ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين ،فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع ، فهؤلاء القسمان هم السعداء،والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ④ ﴾ [الجمعة] .

القسم الثالث : الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا ولا فهما ولا رواية ولا دراية ، بل هم بمنزلة الأرض، التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء ،وهؤلاء هم الأشقياء ، والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل إليه ، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها ، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه .

والقسم الثالث : لا علم ولا تعليم ، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه ، وهؤلاء شر من الأنعام ،وهم وقود النار . فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه ،وشقاء من ليس من أهله ، وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم ، وتقسم سعيدهم إلى سابق مقرب ، وصاحب يمين

---

(١) البخارى (٧٩) فى العلم ، باب : فضل من عَلِمَ و عَلَّم ، ومسلم (٢٢٨٢ / ١٥) فى الفضائل ، باب : بيان مثل ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم .

مقتصد ، وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر ؛ بل أعظم ، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

وقد قال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** ﴾ [الرعد : ١٧] شبه ـ سبحانه ـ العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ، ثم شبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، كواد عظيم يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا ، فقال: ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا** ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته ، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفوا على وجه القلب ، كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى ، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه ؛ بل تجفى وترمى ، فيستقر فى القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق ، كما يستقر فى الوادى الماء الصافى ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ لذلك مثلا آخر ، فقال : ﴿ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ** ﴾ يعنى : أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه ، وهو الزبد الذى تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها ، فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده ،وضرب ـ سبحانه ـ مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ، ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق ، فآيات القرآن تحيى القلوب كما تحيا الأرض بالماء ، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها ، وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما فى هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** (٤٣) ﴾ [العنكبوت] .

الوجه الثالث والأربعون : ما فى الصحيحين أيضا من حديث سهل بن سعد ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال لعلى ﷺ : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » (١) ،وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله ،بحيث إذا اهتدى

---

(١) البخارى (٢٩٤٢) فى الجهاد ، باب : دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ، ومسلم (٢٤٠٦ / ٣٤) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب ﷺ .

رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم ، وهى خيارها وأشرفها عند أهلها ، فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس .

الوجه الرابع والأربعون : ما روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (١) . أخبر ﷺ : أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به ، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به ؛ لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس ، وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام ، وهذه قاعدة الشريعة ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع ، قال تعالى : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** (٢٥) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقا ؛ لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه ، وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان .

الوجه الخامس والأربعون : ما خرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ،ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢) . فأخبر ﷺ: أنه لا ينبغى لأحد أن يحسد أحدا يعنى حسد غبطة ، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين ،وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله ، وما عدا هذين فلا ينبغى غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به .

الوجه السادس والأربعون : قال الترمذى:حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا سلمة ابن رجاء ،حدثنا الوليد بن حميد ،حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله ﷺ:« فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ:«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض،حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر،ليصلون على معلمى الناس الخير» .قال الترمذى :هذا حديث حسن غريب ،سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث

---

(١) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

(٢) البخارى (٧٣١٦) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : ما جاء فى اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى ، ومسلم (٨١٦ / ٢٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : من يقوم بالقرآن ويعلم ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

الخزاعى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : عالم عامل معلم يدعى كبيرا فى ملكوت السموات [١] . وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس : علماء هذه الأمة رجلان ، فرجل أعطاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ، ولم يشتر به ثمنا ، أولئك يصلى عليهم طير السماء ، وحيتان البحر ، ودواب الأرض ، والكرام الكاتبون ، ورجل آتاه الله علما فضن به عن عباده ، وأخذ به صفدا ، أو اشترى به ثمنا ، فذلك يأتى يوم القيامة يلجم بلجام من نار ، ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفى رفعه نظر [٢] . وقوله : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير » ؛ لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم ، جازاه الله من جنس عمله ، بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه. وأيضا فإن معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ، ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له وإظهارا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض .

الوجه السابع والعشرين: ما رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ،إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [٣]. وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها ،وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر . وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، والعلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ،إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر ،وموت العالم مصيبة لا تجبر ،وثلمة لا تسد ونجم طمس ،وموت قبيلة أيسر من موت عالم» [٤] . وهذا حديث حسن ،والطريق التى يسلكها إلى الجنة جزاء

(١) الترمذى (٢٦٨٥) فى العلم ، باب: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ،وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٥٩٦) .

(٢) ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٨) .

(٣) أبو داود (٣٦٤١) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والترمذى (٢٦٨٢) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة ، وقال : « ليس هو عندى بمتصل » .

(٤) أبو داود (٣٦٤٢) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والحديث بسنده ولفظه رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٧) .

على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ، ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما ؛ لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، وهو يدل على المحبة والتعظيم ، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له ؛ لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبة من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب ، فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم ،وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى ،ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ، ويثنون على مؤمنيهم،ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه؛ بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريده العبد ولا يخطر بباله ،كما قال بعض التابعين : وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ، ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)** ﴾ [غافر] فأى نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء ، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ما ينصح به عباد الله،فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما . وقال أبو حاتم الرازى: سمعت ابن أبى أويس يقول : سمعت مالك بن أنس يقول :معنى قول رسول الله ﷺ : « تضع أجنحتها » يعنى : تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدى .

وقال أحمد بن مروان المالكى فى (كتاب المجالسة) له : حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى ، قال :سمعت أحمد بن شعيب يقول : كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبى ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » ، وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة ، فجعل يستهزئ بالحديث ، فقال : والله لأطرقن غدا نعلى بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ، ففعل ومشى فى النعلين ، فجفت رجلاه جميعا ، ووقعت فيهما الأكلة .

وقال الطبرانى : سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى قال : كنا نمشى فى بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين ، فأسرعنا المشى ، وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه ، فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط .

وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال : قلت : يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم قال : « مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله

بأجنحتها ، فيركب بعضهم بعضا حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب » .وذكر حديث المسح على الخفين [(١)] . قال أبو عبد الله الحاكم : إسناده صحيح [(٢)] . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع [(٣)] ، ومثله لا يقال بالرأى ، ففى هذا الحديث : حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء ، وفى الأول : وضعها أجنحتها له ، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة ، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه ، وحياطته وحفظه ، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفا وفضلا . وقوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء » [(٤)] ، فإنه لما كان العالم سببا فى حصول العلم ، الذى به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه جوزى من جنس عمله ، وجعل من فى السموات والأرض ساعيا فى نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن من فى السموات ومن فى الأرض المستغفرين للعالم عام فى الحيوانات ناطقها وبهيمها وطيرها وغيره ،ويؤكد هذا قوله :« حتى الحيتان فى الماء وحتى النملة فى جحرها » [(٥)] .

فقيل : سبب هذا الاستغفار : أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ، ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه ، وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خلق له ، وبالجملة فالرحمة والإحسان التى خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه إنما يعرف بالعلم ، فالعالم معرف لذلك ، فاستحق أن تستغفر له البهائم ، والله أعلم .

وقوله : « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب ، فإن القمر يضىء الآفاق ويمتد نوره فى أقطار العالم ، وهذه حال العالم ، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه ، وهذه حال العابد الذى يضىء

---

(١) أحمد (٤ / ٢٣٩) ، والترمذى (٣٥٣٦) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، وقال : « حسن صحيح »،والنسائى (١٥٨) فى الطهارة ، باب:الوضوء من الغائط والبول .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١ / ١٠٠) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٣٢ ، ٣٣) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص (١٦٣) .

نور عبادته عليه دون غيره ، وإن جاوز نور عبادته غيره فإنما يجاوزه غير بعيد ، كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة ، ومن هذا الأثر المروى :« إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد : ادخل الجنة ، فإنما كانت منفعتك لنفسك ،ويقال للعالم :اشفع تشفع ، فإنما كانت منفعتك للناس » (١) .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه :« إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه ، فيقال : للعابد : ادخل الجنة ، ويقال : للفقيه اشفع تشفع » وفى التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو : أن الجهل كالليل فى ظلمته وحندسه ، والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة فى تلك الظلمة ، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعلمائه وعباده ، فإذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين ، كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها ، فإذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما توعد ، وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب .

فإن قيل : كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهى أعظم نورا ؟

قيل : فيه فائدتان :

إحداهما : أن نور القمر لما كان مستفادا من غيره كان تشبيه العالم الذى نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس .

الثانية : أن الشمس لا يختلف حالها فى نورها ، ولا يلحقها محاق ولا تفاوت فى الإضاءة ، وأما القمر فإنه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص ، كما أن العلماء فى العلم على مراتبهم من كثرته وقلته ، فيفضل كل منهم فى علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه ، كما يكون القمر كذلك ، فعالم كالبدر ليلة تمه ، وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه ، وهم درجات عند الله .

فإن قيل : تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم ، كقوله ﷺ : « أصحابى كالنجوم » (٢) ؛ ولهذا هى فى تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء ، فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر ؟

قيل : أما تشبيه العلماء بالنجوم ،فإن النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وكذلك العلماء ، والنجوم زينة للسماء،فكذلك العلماء زينة للأرض ، وهى رجوم للشياطين

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٢) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ .

(٢) ضعيف . وقال بعض العلماء:موضوع ، انظر : تخريجه مفصلا فى : التلخيص الكبير للحافظ ابن حجر (٤ / ٣٥٠) رقم (٢٥٩٤) ، والسلسلة الضعيفة للألبانى رقم(٥٨)

حائلة بينهم وبين استراق السمع ؛ لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحى الوارد إلى الرسل من الله على أيدى ملائكته ، وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس والجن الذى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ، ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ أقامهم حراسا حفظة لدينه ،ورجوما لأعدائه وأعداء رسله ، فهذا وجه تشبيههم بالنجوم ، وأما تشبيههم بالقمر ، فذلك كان فى مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة ، وموازنة ما بينهما من الفضل ،والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء ، كما يفضل القمر سائر الكواكب ، فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله . وقوله : «إن العلماء ورثة الأنبياء » (١) هذا من أعظم المناقب لأهلْ العلم ، فإن الأنبياء خير خلق الله ، فورثتهم خير الخلق بعدهم .

ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده ، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم ، وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم ، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث ، وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم ، فكذلك هو فى ميراث النبوة ، والله يختص برحمته من يشاء ، وفيه أيضا إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم وإجلالهم ، فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم، وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم . قال على ـ كرم الله وجه ورضى عنه : محبة العلماء دين يدان به .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » (٢) وورثة الأنبياء سادات أولياء لله عز وجل ، وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان ، والرفق بهم واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق ، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم ، فإن بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره ، الجليل خطره .

وفيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة ، كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٢) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٢٨) فى الرقاق ، خصائص أولياء الله وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

والترقى من صغار العلم إلى كباره ، وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل فى إيصال الغذاء إليه ، فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم ؛ بل دون هذه النسبة بكثير ؛ ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل :

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لبانا له قد در من ثدى قدسه
فذاك لقيط ماله نسبة الولا ولا يتعدى طور أبناء جنسه

وقوله : « إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم » (١) هذا من كمال الأنبياء ، وعظم نصحهم للأمم ، وتمام نعمة الله عليهم ، وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل ، وحسم جميع المواد التى توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها ، فحماهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك أتم الحماية .

ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده ، ويسعى ويتعب ، ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله ، وقطع هذا الوهم الذى عساه أن يخالط كثيرا من النفوس التى تقول ، فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده ، فقال ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » (٢) فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾ [النمل : ١٦] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين غيرهم ؛ وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان ، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به .

وأيضا ، فإن كلام الله يصان عن الأخبار بمثل هذا ، فإنه بمنزلة أن يقال : مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه ، وليس فى الأخبار بمثل هذا فائدة .

وأيضا ، فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾ [النمل] وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب ، وهو العلم والنبوة : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)** ﴾ [النمل] ، وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ**

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) البخارى (٦٧٢٦ ، ٦٧٢٧) فى الفرائض ، باب : قول النبى ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » .

مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله ، وإلا فلا يظن بنبى كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله ، فيسأل الله العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ، ويكون أحق به منهم ، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله ، فبعدا لمن حرف كتاب الله ، ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه ، والحمد لله على توفيقه وهدايته .

ويذكر عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق ، فوجدهم فى تجاراتهم وبيوعاتهم ، فقال : أنتم ههنا فيما أنتم فيه ، وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى مسجده ، فقاموا سراعا إلى المسجد ، فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم ، فقالوا : أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال : هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم ، أو كما قال .

وقوله : « فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (١) أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له ، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين ، فهو الحظ الدائم النافع الذى إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين ؛ وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت ، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت ، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** (٢٣) ﴾ [الفرقان] ، فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم ، فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله ، وهذه هى المصيبة التى لا تجبر عياذا بالله واستعانة به وافتقارا وتوكلا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله : « موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » (٢) لما كان صلاح الوجود بالعلماء ، ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا ، كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له .

وأيضا ، فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك ، فموتهم فساد لنظام العالم ؛ ولهذا لا يزال الله يغرس فى هذا الدين منهم خالفا عن سالف ، يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده ، وتأمل إذا كان فى الوجود رجل قد فاق العالم فى الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة ، وهو محسن إليهم بكل ممكن ، ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة ، فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ، ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق ،

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مـــــال ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقـد حــــــر يمـوت بموته بشر كثيـر

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحـد ولكنه بنيان قـوم تهدمـا

الوجه الثامن والأربعون : ما روى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم : حدثنا روح ابن جناح عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم [1] . قلت : قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن على اليقطينى : حدثنا عمر بن سعيد بن سنان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا روح بن جناح عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال الخطيب : والأول هو المحفوظ عن روح عن مجاهد ، عن ابن عباس ، وما أرى الوهم وقع فى هذا الحديث إلا من أبى جعفر ؛ لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن روح عن الزهرى ، عن سعيد حديث : « فى السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة »[2] وحديث ابن عباس كانا فى كتاب ابن سنان عن هشام ، يتلو أحدهما الآخر ، فكتب أبو جعفر إسناد حديث أبى هريرة رضي الله عنه ثم عارضه لسهو أو زاغ نظره ، فنزل إلى متن حديث ابن عباس ، فركب متن هذا على إسناد هذا ، وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من تعمد الغلط .

وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران : حدثنا شيبان أبو الربيع السمان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شىء دعامة ، ودعامة الإسلام الفقه فى الدين، والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » [3]ولهذا الحديث علة، وهو أنه روى من كلام أبى هريرة، وهو أشبه، رواه همام بن يحيى: حدثنا يزيد بن عياض، حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان، عن يسار، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ماعبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين». قال: وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصليها حتى أصبح، والفقيه أشد على

(١) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة وقال الألبانى : « موضوع » .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٦) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٠٦) ، والكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٧٨) .

الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين الفقه[(١)].

وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبى النجود ، عن زر بن حبيش ، عن عمر بن الخطاب يرفعه : « إن الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد » . وقال المزنى : روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس : يا سيدنا ، مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه ؟ قال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه كفر فى ساعة ، ثم جاؤوا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال : نعم : قالوا : كيف ؟ قال : يقول : كن فيكون ، فقال : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا .

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر : وإنهم سألوا العابد فقالوا : هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله ، وسألوا عن ذلك ؟ فقال : هذه المسألة محال ؛ لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقا ، فكونه مخلوقا وهو مثل نفسه مستحيل ؛ فإذا كان مخلوقا لم يكن مثله ؛ بل كان عبدا من عبيده وخلقا من خلقه ، فقال : أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين ، أو كما قال .

وروى عن عبد الله بن عمرو : فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر راجعها فى اللسان الفرس [(٢)] سبعين عاما ، وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها . وهذا معناه صحيح ؛ فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ، ويهدم ما يبنيه ، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك ، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهرانى الأمة، ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ؛ ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة. وأما العابد فغايته أن يجاهد ليسلم منه فى خاصة نفسه ، وهيهات له ذلك[(٣)].

الوجه التاسع والأربعون : ما روى الترمذى من حديث أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم ومتعلم » . قال الترمذى : هذا حديث حسن [(٤)] . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا

---

(١) الدارقطنى (٣ / ٧٩) (٢٩٤) فى البيوع ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٦) فى العلم ، باب : فى فضل العلم ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يزيد بن عياض وهو كذاب » .

(٢) حضر الفرس : ارتفاع الفرس فى عدوه . اللسان (حضر) .

(٣) وفى هذا الوجه وغيره أبلغ رد على من يصرفون أوقاتهم وأعمارهم من دعوة الناس ـ وهذا أمر محمود ولكنهم لا يتسلحون بالعالم ويصل الأمر بهم إلى تهوين شأن العلم ، وهم ـ من حيث لا يشعرون ـ يهدمون ولا يبنون .

(٤) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد ، باب : ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل .

تساوى لديه جناح بعوضة ، كانت وما فيها فى غاية البعد منه ، وهذا هو حقيقة اللعنة ، وهو ـ سبحانه ـ إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرا إليها يتزود منها عباده إليه ، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنا لإقامة ذكره ، ومفضيا إلى محابه ، وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويثنى عليه ويمجد ؛ ولهذا خلقها وخلق أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذاريات].

وقال : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (١٢) ﴾ [الطلاق] ، فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد ، فهذا المطلوب ، وما كان طريقا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة ، واللعنة واقعة على ما عداه ، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه ، وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة ، فإنه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب ، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه ، وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده .

الوجه الخمسون : ما رواه الترمذى من حديث أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب [١] ، رواه بعضهم فلم يرفعه ، وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله ؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد ، فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين : جهاد باليد والسنان ، وهذا المشارك فيه كثير ، والثانى : الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ؛ لعظم منفعته ، وشدة مؤنته ، وكثرة أعدائه .

قال تعالى فى سورة الفرقان ـ وهى مكية : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا** (٥١) **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** (٥٢) ﴾، فهذا جهاد لهم بالقرآن ، وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضا ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين ؛ بل كانوا معهم فى الظاهر . وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا ، فقد قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التحريم : ٩] ، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

والمقصود : أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله ؛ ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : عليكم بطلب العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، ومدارسته عبادة ، ومذاكرته

---

(١) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وضعفه الألبانى .

تسبيح ، والبحث عنه جهاد . ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب المنزل والحديد الناصر ، كما قال تعالى : **﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾** [الحديد] فذكر الكتاب والحديد ، إذ بهما قوام الدين ، كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف ... تميل ظباه أخدعا كل مايـــــل

فهذا شفاء الداء من كل عاقــل ... وهذا دواء الداء من كل جاهـل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله ، فسر الصحابة قوله : **﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾** [النساء : ٥٩] بالأمراء والعلماء ، فإنهم المجاهدون فى سبيل الله ، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم ، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادى الرايح فى سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة ﷺ : إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد . وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه .

الوجه الحادى والخمسون : ما رواه الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) . قال بعضهم : ولم يقل فى هذا الحديث : صحيح ؛ لأنه يقال : دلس الأعمش فى هذا الحديث ؛ لأنه رواه بعضهم فقال : حدثت عن أبى صالح ، والحديث رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبى صالح (٢) . قال الحاكم فى المستدرك : هو صحيح على شرط البخارى ومسلم (٣) ، رواه عن الأعمش جماعة منهم زايدة وأبو معاوية وابن نمير ، وقد تقدم حديث أبى الدرداء فى ذلك (٤) ، والحديث محفوظ وله أصل ، وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل ، فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك .

---

(١) الترمذى (٢٦٤٦) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم .

(٢) مسلم (٢٦٩٩ / ٣٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٩) فى العلم ، من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة .

(٤) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

وقد روى من حديث عائشة ، رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الأنصارى عن الزهرى ، عن عروة عنها مرفوعا ولفظه : « أوحى الله إلى : أنه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة »[١] .

الوجه الثاني والخمسون : أن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة ، وهى البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ، ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ؛ إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »[٢] . وروى هذا الأصل عن النبى ﷺ ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل[٣] ، وأبو الدرداء[٤] ، وجبير بن معطعم[٥] ، وأنس بن مالك[٦] ، وزيد بن ثابت[٧] ، والنعمان بن بشير[٨] ، قال الترمذى : حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح ، وحديث زيد بن ثابت حديث حسن . وأخرج الحاكم فى صحيحه حديث جبير بن مطعم ، والنعمان بن بشير وقال فى حديث جبير : على شرط البخارى ومسلم ، و ولو لم يكن فى فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا ، فإن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه ، وهذه هى مراتب العلم :

أولها وثانيها : سماعه وعقله ، فإذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله ، واستقر فى قلبه كما

---

(١) ذكره ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال (٦ / ١٦٠) .

(٢) الترمذى (٢٦٥٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٢٣٢) فى المقدمة ، باب من بلغ علما .

(٣) انظر : الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، إلا أنه قال فى الأوسط : رب حامل كلمه بدل فقه ، وفيه عمرو بن واقد رمى بالكذب وهو منكر الحديث » .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٤٢) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ومداره على عبد الرحمن بن زبيد وهو منكر الحديث قاله البخارى » .

(٥) ابن ماجه (٢٣١) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٨٧) فى العلم ، باب : نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها .

(٦) ابن ماجه (٢٣٦) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٧) الترمذى (٢٦٥٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٢٣٠) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٨) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٨) فى العلم ، باب : فرب حامل فقه لا فقه له ، وقال : « حديث النعمان بن بشير من شرط الصحيح » ، وقال الذهبى : « على شرط مسلم » ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عيسى الخياط وهو متروك الحديث » .

يستقر الشيء الذى يوعى فى وعائه ، ولا يخرج منه ، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ؛ ولهذا كان الوعى والعقل قدرا زائدا على مجرد إدراك العلوم .

المرتبة الثالثة : تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب .

المرتبة الرابعة : تبليغه وبثه فى الأمة ؛ ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه فى الأمة ، فهو بمنزلة الكنز المدفون فى الأرض الذى لا ينفق منه وهو معرض لذهابه ، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب ، فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق ، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن ، فإن النضرة هى البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ؛ ولهذا يجمع له ـ سبحانه ـ بين البهجة والسرور والنضرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** (١١) ﴾ [الإنسان] ، فالنضرة فى وجوههم ، والسرور فى قلوبهم ، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه ، كما قال تعالى : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** (٢٤) ﴾ [المطففين] .

والمقصود : أن هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلغها ، فهى أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه .

وقوله ﷺ : « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » تنبيه على فائدة التبليغ ، وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ ، فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ ، أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها، واستنبط فقهها وعلم المراد منها .

وقوله ﷺ : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم » إلى آخره أى : لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة ، فإنها تنفى الغل والغش ، وهو فساد القلب وسخايمه ، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة ؛ لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه ، فلم يبق فيه موضع للغل والغش ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** (٢٤) ﴾ [يوسف] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء ، فانصرف عنه السوء والفحشاء ؛ ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٨٣) ﴾ [ص] ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ**

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ [الحجر] فالإخلاص هو سبيل الخلاص ، والإسلام هو مركب السلامة ، والإيمان خاتم الأمان .

وقوله : « ومناصحة أئمة المسلمين » (١) هذا أيضا مناف للغل والغش ، فإن النصيحة لا تجامع الغل ؛ إذ هى ضده ، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل .

وقوله : « ولزوم جماعتهم » هذا أيضا مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم ، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، فإن قلوبهم ممتلئة غلا وغشا ؛ ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص ، وأغشهم للأئمة والأمة ، وأشدهم بعدا عن جماعة المسلمين ، فهؤلاء أشد الناس غلا وغشا بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك ، فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانا وظهرا على أهل الإسلام ، فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته ،وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ، ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب .

وقوله : « فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة ـ التى هى دعوة الإسلام ، وهم داخلونها ـ لما كانت سورا وسياجا عليهم ، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام ، كما أحاطت بهم ، فالدعوة تجمع شمل الأمة ، وتلم شعثها وتحيط بها ، فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته .

الوجه الثالث والخمسون : أن النبى ﷺ أمر بتبليغ العلم عنه ، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) . وقال : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » . روى ذلك أبو بكرة (٢) ، ووابصة بن معبد (٣) ، وعمار

---

(١) البخارى (٣٤٦١) فى الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ولم يعزه صاحب التحفة من هذا الطريق لمسلم (٦ / ٣٩٩) .

(٢) البخارى (٦٧) فى العلم باب : قول النبى ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، ومسلم (١٦٧٩ / ١٩) فى القسامة ، باب : تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .

(٣) أبو يعلى (١٥٨٩ ، ١٥٩٠) قال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات » ، وفى مجمع الزوائد أيضا (١ / ١٤٤) فى العلم ، باب:=

ابن ياسر [١] ، وعبد الله بن عمر [٢] ، وعبد الله بن عباس [٣] ، وأسماء بنت يزيد بن السكن [٤] ، وحجير [٥] ، وأبو قريع [٦] ، وسرى بنت نبهان [٧] ، ومعاوية بن حيدة القشيرى [٨] ، وعم أبى حرة [٩] وغيرهم . فأمر ﷺ بالتبليغ عنه ؛ لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ ، وله ﷺ أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب ، فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به، فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره ؛ لأنه هو الداعى إليه ، ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه ﷺ لكفى به فضلا .

وعلامة المحب الصادق أن يسعى فى حصول محبوب محبوبه ، ويبذل جهده وطاقته فيها ، ومعلوم أنه لا شئ أحب إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة ، فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه ، فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه ، وهو نائبه وخليفته فى أمته ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله .

الوجه الرابع والخمسون : أن النبى ﷺ قدم بالفضائل العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها ، وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم إسلاما أو سنا » وذكر الحديث [١٠] ،

= فى سماع الحديث وتبليغه وقال : « رواه البزار ورجاله موثقون » .

(١) أبو يعلى (١٦٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٢) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه من لم أعرفه » .

(٢) ابن ماجه (٢٣٥) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، وصححه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١١ / ١٧٢) (١١٣٩٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٤) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات » .

(٤) أحمد ٦ / ٤٥٦ .

(٥) الطبرانى فى الكبير (٤ / ٣٤ ، ٣٥) (٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مخشى بن حجير ، ولم أجد من ترجمه » .

(٦) ذكره ابن حجر فى الإصابة (٤ / ١٦٠) وعزاه لابن منده .

(٧) الطبرانى فى الكبير (٢٤ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) (٧٧٧) ، والأوسط (٢٤٣٠) ، وقال فى مجمع الزوائد (٣ / ٢٧٦) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٨) ابن ماجه (٢٣٤) فى المقدمة ، باب من بلغ علما ، وأحمد ٥ / ٥ ، وصححه الألبانى .

(٩) أحمد (٥ / ٧٢ ، ٧٣) ، وأبو يعلى (١٥٦٩ ، ١٥٧٠) ، والبزار (٢٥٢٤) ، والطبرانى فى الكبير (٤ / ٥٣) (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى(٣ / ٢٦٨) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « أبو حرة الرقاشى وثقه أبو داود ، وضعفه ابن معين ، وفيه على بن زيد وفيه كلام » .

(١٠) مسلم (٦٧٣ / ٢٩٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أحق بالإمامة .

فقدم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة ، وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به ، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل ، وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره ، وهذا يدل على شرف العلم وفضله ، وأن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية .

الوجه الخامس والخمسون : ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها ، وهو أشرف قسمى علمه وتعليمه ، فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها ، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها ، وبينهما كما بين الغايات والوسائل .

الوجه السادس والخمسون : ما رواه الترمذى وغيره فى نسخة عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب (٢) ، وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد فى المسند أكثرها أو كثيرا منها ، ولهذا الحديث شواهد ، فجعل النبى ﷺ النهمة فى العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ؛ ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى الممات . قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك ﷺ يقول ـ وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث فقالوا له . إلى متى تسمع : قال : إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص : قلت : لأحمد بن حنبل ﷺ : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى : سمعت أحمد بن حنبل ﷺ يقول : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبى ببغداد ، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه فى يديه ، فأخذ أبى بمجامع ثوبه فقال : يا أبا عبد الله ، ألا تستحى ! إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمر ربى والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة . وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى :

---

(١) البخارى (٥٠٢٧) فى فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

(٢) الترمذى (٢٦٨٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وضعفه الألبانى .

جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له : ما أشد حرصك على الحديث ؟ فقال : أو ما أحب أن أكون فى قطار آل رسول الله ﷺ . وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟قال : ما حسنت به الحياة ، وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش .

الوجه السابع والخمسون : ما رواه الترمذى أيضا من حديث إبراهيم بن الفضل ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها ». قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدينى المخزومى يضعف فى الحديث من قبل حفظه (١) . وهذا أيضا شاهد لما تقدم وله شواهد ، والحكمة هى العلم فإذا فقده المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه ، فإذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجدانها ، كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه ، التى هو دائما فى طلبها ونشدانها والتفتيش عليها ، وهذا من أحسن الأمثلة ، فإن قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده ، أعظم من طلب صاحب الضالة لها .

الوجه الثامن والخمسون : قال الترمذى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا خلف بن أيوب ، عن عوف ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق ؛ حسن سمت ، وفقه فى الدين » . قال الترمذى : هذا حديث غريب ، ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف إلا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامرى ، ولم أر أحدا يروى عنه غير أبى كريب محمد بن العلاء ، ولا أدرى كيف هو (٢) . وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السمت والفقه فى الدين ، فهو مؤمن ، وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقا ، وإن كان إسناده فيه جهالة ، فإن حسن السمت والفقه فى الدين من أخص علامات الإيمان ، ولن يجمعهما الله فى منافق ، فإن النفاق ينافيهما وينافيانه .

الوجه التاسع والخمسون : قال الترمذى : حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى ، حدثنا أبو حاتم البصرى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى إن قدرت، أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال : يا بنى ، وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » ، وفى الحديث قصة طويلة. قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ومحمد بن عبد الله

---

(١) الترمذى (٢٦٨٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال الألبانى : « ضعيف جدا » .

(٢) الترمذى (٢٦٨٤) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وصححه الألبانى .

الأنصارى صدوق ، وأبوه ثقة ، وعلى بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشىء الذى يوقفه غيره ، سمعت محمد بن بشارة يقول : قال أبو الوليد : قال شعبة : حدثنا على بن زيد وكان رفاعا . قال الترمذى : ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله ، وقد روى عباد المنقرى هذا الحديث ، عن على بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب . وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه ، ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بستتين (١) .

قلت : ولهذا الحديث شواهد ؛ منها : ما رواه الدارمى عبد الله : حدثنا محمد بن عيينة ، عن مروان بن معاوية الفزارى ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده : أن النبى ﷺ قال لبلال بن الحارث : « اعلم » قال : ما أعلم يارسول الله ؟ قال : « اعلم يا بلال » قال : ما أعلم يا رسول الله ؟ قال : « أنه من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا » رواه الترمذى عنه ، وقال : حديث حسن . قال : ومحمد بن عيينة مصيصى شامى ، وكثير بن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى (٢) . وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث : منهم من يصححه ، ومنهم من يحسنه ، وهما للترمذى ، ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالإمام أحمد وغيره ، ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه » (٣) وهو صحيح من وجوه ، وحديث : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وهو حديث حسن رواه الترمذى وغيره(٤) ، فهذا الأصل محفوظ عن النبى ﷺ ، فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره .

الوجه الستون : أن النبى ﷺ : أوصى بطلبة العلم خيرا ، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبو داود الحفرى ، عن

---

(١) الترمذى (٢٦٧٨) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٢٦٧٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وابن ماجه (٢٠٩) فى المقدمة ، باب : من أحيا سنة قد أميتت ، وضعفه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى السنة ، باب : لزوم السنة .

(٤) مسلم (١٨٩٣ / ١٣٣) فى الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافته فى أهله بخير ، والترمذى (٢٦٧١) فى العلم ، باب : ما جاء الدال على الخير كفاعله .

سفيان ، عن أبى هارون قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن النبى ﷺ قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا »(١) . حدثنا قتيبة ، حدثنا روح بن قيس ، عن أبى هارون العبدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرا » . فكان أبو سعيد إذا رآنا قال : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ . قال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث هارون العبدى عن أبى سعيد . قال أبو بكر العطار : قال على بن المدينى ، قال يحيى بن سعيد : كان شعبة يضعف أبا هارون العبدى . قال يحيى : وما زال ابن عوف يروى عن أبى هارون حتى مات ، وأبو هارون اسمه عمارة بن جوين (٢) .

الوجه الحادى والستون : ما رواه الترمذى من حديث أبى داود ، عن عبد الله بن سنحبرة، عن سخبرة ، عن النبى ﷺ قال : « من طلب العلم كان كفارة لما مضى » (٣) هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث ، وليس بشىء ، فإن أبا داود هو نفيع الأعمى غير ثقة ، ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة فى هذا المعنى (٤) . منها : مارواه الثورى ، عن عبد الكريم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفورا له . ومنها : ماوراه قطر بن خليفة ، عن أبى الطفيل عن على : ما انتعل عبد قط ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوبا ليغدو فى طلب العلم ، إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته ، وقد رواه ابن عدى مرفوعا (٥) . وقال : ليس يرويه عن قطر غير إسماعيل بن يحيى التميمى .

قلت : وقد رواه إسماعيل بن يحيى هذا ، عن الثورى ، حدثنا محمد بن أيوب الجوزجانى ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن الأسود ، عن عائشة مرفوعا : « من انتعل ليتعلم خيرا ، غفر له قبل أن يخطو » ، وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن قطر ، عن أبى الطفيل ، عن على (٦) . وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من

(١ ، ٢) الترمذى (٢٦٥٠ ، ٢٦٥١) فى العلم ، باب : ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (٢٦٤٨) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « هذا حديث ضعيف الإسناد » وقال الألبانى: « موضوع » .

(٤) تقدمت الأحاديث والآثار ص (١٦٣) .

(٥) الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٠٧) .

(٦) الطبرانى فى الأوسط (٥٧٢٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣٧ ، ١٣٨) فى العلم ، باب : فيمن يخرج فى طلب العلم والخير :« فيه إسماعيل بن يحيى التيمى وهو كذاب » .

أفضل الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات ، فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر مامضى من السيئات ، فقد دلت النصوص أن إتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات؟ فالعمدة على ذلك لا على حديث أبى داود ، والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ : أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء .

الوجه الثانى والستون : ما رواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال خرج رسول الله ﷺ ، فإذا فى المسجد مجلسان ؛ مجلس يتفقهون ، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال : « كلا المجلسين إلى خير ؛ أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » [١] ثم قعد معهم .

الوجه الثالث والستون : أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ، ويحمدونه على مامن عليهم به منه . قال الترمذى : حدثنا محمد ابن بشار ، حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار ، حدثنا أبو نعامة ، عن أبى عثمان ، عن أبى سعيد قال : خرج معاوية إلى المسجد فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل حديثا عنه منى أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه قال : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ، ومن علينا بك . قال : « الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، أنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو نعامة السعدى اسمه عمرو بن عيسى ، وأبو عثمان النهدى اسمه عبد الرحمن بن مل [٢] . فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ، ويثنون عليه بذلك ، ويذكرون حسن الإسلام ، ويعترفون لله بالفضل

---

(١) ابن ماجه (٢٢٩) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ، داود ، وبكر ، وعبد الرحمن كلهم ضعفاء » ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٣٣٧٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل مالهم من الفضل ، والحديث رواه مسلم (٢٧٠١ / ٤٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

العظيم ، إذ هداهم له ومن عليهم برسوله ، وهذا أشرف علم على الإطلاق ، ولا يعنى به إلا الراسخون فى العلم ، فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ، ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به ، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة ، وقد بشر النبى ﷺ الرجل الذى كان يحب سورة الإخلاص ، وقال : أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال : « حبك إياها أدخلك الجنة » ، وفى لفظ آخر : « أخبروه أن الله يحبه »(١)، فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة .

والجهمية أشد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كماله ، يعاقبون ويذمون من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتنى بها ؛ ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة ، وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام ، والله تعالى أشد بغضا ومقتا لهم ؛ جزاء وفاقا .

الوجه الرابع والستون : أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة ، فالله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده فى تبليغ رسالاته ، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه ، وخصهم بوحيه ، واختصهم بتفضيله ، وارتضاهم لرسالته إلى عباده ، وجعلهم أزكى العالمين نفوسا ، وأشرفهم أخلاقا ، وأكملهم علوما وأعمالا ، وأحسنهم خلقة ، وأعظمهم محبة وقبولا فى قلوب الناس ، وبرأهم من كل وصم وعيب ، وكل خلق دنىء ، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم فى أممهم ، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم ، وطريقهم من نصيحتهم للأمة ، وإرشادهم الضال ، وتعليمهم الجاهل ، ونصرهم المظلوم ، وأخذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعروف وفعله،ونهيهم عن المنكر وتركه ، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين ، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين ، والجدال بالتى هى أحسن للمعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وسواء كان المعنى : أنا ومن اتبعنى على بصيرة وأنا أدعو إلى الله ، أو المعنى : أدعو إلى الله على بصيرة ، والقولان متلازمان ، فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة ، كما كان متبوعه يفعل ﷺ ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس ، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا ، وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا ، وهؤلاء هم الصديقون ، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم ، وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه .

(١) البخارى (٧٧٤) فى الأذان ، باب : الجمع بين السورتين فى الركعة ، وأحمد (٣ / ١٥٠) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾ [النساء] فذكر مراتب السعداء ، وهى أربعة ، وبدأ بأعلاهم مرتبة ، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب ، وهؤلاء الأربعة هم : أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

الوجه الخامس والستون : أن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان ، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه ، وأقوى بطشا ، وأكثر جماعا وأولادا ، وأطول أعمارا ، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه ، وبيانه ، فإذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب ، وهى الحيوانية المحضة ، فلا يبقى فيه فضل عليهم ؛ بل قد يبقى شرا منهم ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾ [الأنفال] فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] أى ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلا للخير (لأسمعهم) أى : لأفهمهم والسمع ههنا سمع فهم ، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴾ [الأنفال] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة] وسواء كان المعنى : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة ، أو كان المعنى : ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها ، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء ، فالقولان متلازمان ؛ بل هما واحد ، وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ ، وأبلغ فى المعنى ، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام ، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان .

والسمع يراد به : إدراك الصوت ، ويراد به فهم المعنى ، ويراد به القبول والإجابة ، والثلاثة فى القرآن .

فمن الأول : قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [المجادلة] وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، وذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع ، وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى

رسول الله ﷺ ، وأنا فى جانب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ؛ فأنزل الله : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ﴾ .

والثانى : سمع الفهم كقوله : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ** ﴾ أى لأفهمهم ﴿ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ** (٢٣) ﴾ [الأنفال] لما فى قلوبهم من الكبر ، والإعراض عن قبول الحق ، ففيهم آفتان ؛ إحداهما : أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ؛ ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم ، وهذا غاية النقص والعيب .

والثالث : سمع القبول والإجابة كقوله تعالى : ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٤٧] أى : قابلون مستجيبون ، ومنه قوله : ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** ﴾ [المائدة : ٤٢] أى : قابلون له مستجيبون لأهله ، ومنه قول المصلى : سمع الله لمن حمده . أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه ، وقول النبى ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » (١) أى : يجيبكم ، والمقصود : أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرا منه ؛ لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل .

الوجه السادس والستون : أن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شىء ، فكل شىء اختلف فى وجوده وعدمه ، وصحته وفساده ، ومنفعته ومضرته، ورجحانه ونقصانه ، وكماله ونقصه ، ومدحه وذمه ، ومرتبته فى الخير وجودته ، ورداءته وقربه وبعده ، وإفضائه إلى مطلوب كذا ، وعدم إفضائه وحصول المقصود به ، وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات ، فإن العلم حاكم على ذلك كله ، فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الإتباع ، وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال والأقلام فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم ، وسيف بلا علم مخراق لاعب ، وقلم بلا علم حركة عابث ، والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ، ولا يحكم شىء من ذلك على العلم .

وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه ، وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ، ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته ، فإن الحاكم فى هذه المسألة هو العلم ، فبه وإليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم ، والمفضل منهما من حكم له بالفضل .

فإن قيل : فكيف يقبل حكمه لنفسه ؟

---

(١) البخارى (٧٩٥) فى الأذان ، باب : ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع ، ومسلم (٣٩٢ / ٢٨) فى الصلاة باب : إثبات التكبير فى كل خفض ورفع فى الصلاة إلا رفعه من الركوع فيقول فيه : سمع الله لمن حمده .

قيل : وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه ، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة ، والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه ، فإنه إذا حكم حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه لتهمة ، فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته ، وانحط عن درجته ، فهو الشاهد المزكى العدل ، والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل .

فإن قيل : فماذا حكمه فى هذه المسألة التى ذكرتموها ؟

قيل : هذه المسألة كثر فيها الجدال واتسع المجال ، وأدلى كل منهما بحجته ، واستعلى بمرتبته ، والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمال ، وذكر الأفضل منهما والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه ، فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ، ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب الكمال فأرفع : النبوة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية . وقد ذكرها الله ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ [النساء] ، وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد ، فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله ، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ، ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم ، فقال : ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)** ﴾، وذكر المنافقين قبل ذلك ، فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم .

والمقصود : أنه ذكر فيها المراتب الأربعة : الرسالة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية ، فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ، ويليها الصديقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة ، فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصديقية ، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها فأفضلهما صديقهما ، فإن فى الصديقية استويا فى المرتبة ،والله أعلم. والصديقية: هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول علما وتصديقا وقياما به، فهى راجعة إلى نفس العلم،فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية ، فالصديقية : شجرة أصولها العلم ، وفروعها التصديق ، وثمرتها العمل . فهذه كلمات جامعة فى مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل .

الوجه السابع والستون : أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله ، فهو رأس الأمر ، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها ، والإيمان له ركنان : أحدهما : معرفة ما جاء به الرسول والعلم به . والثانى : تصديقه بالقول والعمل ، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال ، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به ؛ فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة ؛ فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب .

الوجه الثامن والستون : أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة ، والإرادة فرع العلم ، فإنها تستلزم الشعور بالمراد ، فهى مفتقرة إلى العلم فى ذاتها وحقيقتها ، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة ، والعلم لا يفتقر فى تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما ، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر فى تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم ، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته .

الوجه التاسع والستون : أن العلم أعم الصفات تعلقا بمتعلقه وأوسعها ، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم ، فذات الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير ، وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق ، أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب ، فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة ، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات ، وهو ما أريد وجوده ، فالعلم أوسع وأعم وأشمل فى ذاته ومتعلقه .

الوجه السبعون : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر ـ سبحانه ـ أن بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين ، وهى أرفع مراتب الصديقين ، واليقين : هو كمال العلم وغايته ، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين ، وهى ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده .

الوجه الحادى والسبعون : أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء ؛ لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس ؛ لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة فى نفس من أنفاسه ، فقد عطب وقرب هلاكه ، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم ، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب ؛ وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال : الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب

لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه كل وقت .

الوجه الثانى والسبعون : أن صاحب العلم أقل تعبا وعملا وأكثر أجرا ، واعتبر هذا بالشاهد ، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم ، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ، ويريهم كيفية العمل ، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال : « أفضل الأعمال إيمان بالله ، ثم الجهاد »[١] ، فالجهاد فيه بذل النفس ، وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه ، وهو أفضل الأعمال ، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة ؛ وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها ، وفاضلها من مفضولها ، وراجحها من مرجوحها ، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال ، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة ، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا ، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه ، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش : ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى قلبه ، وهذا موضوع المثل المشهور .

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويدا وتجى فى الأول

الوجه الثالث والسبعون : أن العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به فهو غير نافع لصاحبه ؛ بل مضرة عليه ، كما قال بعض السلف : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، والأعمال إنما تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول ، والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان وهو المحك .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [الملك] قال الفضيل بن عياض : هو أخلص العمل وأصوبه . قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف] فهذا هو العمل المقبول الذى لا يقبل الله من الأعمال سواه ، وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله ﷺ مرادا به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم ، فإنه إن لم يعلم ما جاء

---

(١) البخارى (١٥١٩) فى الحج ، باب : فضل الحج المبرور .

به الرسول لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده ، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة] وأحسن ما قيل فى تفسير الآية : إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه فى ذلك العمل ، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره ، وهذا إنما يحصل بالعلم ، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شىء وأجله وأفضله ، والله أعلم .

الوجه الرابع والسبعون : أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ، ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وإن قدر سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود ؛ بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا ، والفرق بين هذا وبين ما قبله أن العلم مرتبته فى الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به ، المتبع حكمه ، المطاع أمره ، ومرتبته فى هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية .

الوجه الخامس والسبعون : أن النبى ﷺ ثبت فى الصحيحين عنه أنه كان يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) . وفى بعض السنن : أنه كان يكبر تكبيرة الإحرام فى صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء (٢) . والهداية : هى العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره ، فالمهتدى : هو العامل بالحق المريد له ، وهى أعظم نعمة لله على العبد ؛ ولهذا أمرنا ـ سبحانه ـ أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى صلواتنا الخمس ، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذى يرضى الله فى كل حركة ظاهرة وباطنة ؛ فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق ، فيجعل إرادته فى قلبه ، ثم إلى من يقدر على فعله ، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه ، وإن كل ما يعلم أنه حق لا

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٢ / ٣٧٠) من هذا الطريق للبخارى .

(٢) أبو داود (٧٦٧) فى الصلاة ، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذى (٣٤٢٠) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

تطاوعه نفسه على إرادته ، ولو أراده لعجز عن كثير منه ، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضى والحال والمستقبل ، أما الماضى فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه ، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه ؟ أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ، ويعزم على ألا يعود ؟

وأما الهداية فى الحال فهى مطلوبة منه ، فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال ، هل هو صواب أم خطأ ؟ وأما المستقبل فحاجته فى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق .

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شىء اضطرارا إليها ، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد ، وهى أنا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا ، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب ؟ وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ، ولا أحاط علما بحقيقتها ومسماها ؛ فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه : بأن المعنى : ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ، ومن أحاط علما بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذى لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له ، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة ، لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح ، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة ، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التى تمنع موجب الهداية وتصرفها ، لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له ، فإن الحكم لا يكفى فيه وجوه مقتضية ؛ بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه .

ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغى فى قلبه ، كل منها مانع وصول أثر الهداية إليه ، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما ، فحاجاته إلى هداية الله له مقرونه بأنفاسه ، وهى أعظم حاجة للعبد .

وذكر النبى ﷺ فى الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب ، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف فى الهداية للفطرة التى ابتدأ الخلق عليها ، فذكر كونه فاطر السموات والأرض ، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له ، فذكر علمه ـ سبحانه ـ بالغيب والشهادة ، وأن من هو بكل شىء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه ، وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه ، وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله ، والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده ، وبعفوه أن يعفو عنه ، وبرحمته أن يرحمه ، ونظائر ذلك ، وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل ؛ وهذا ـ والله أعلم ـ لأن المطلوب هدى يحيا به القلب ، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد .

أما جبريل فهو صاحب الوحى الذى يوحيه الله إلى الأنبياء ، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة .

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شىء .

وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحيى الله الموتى بنفخته ؛ فإذا هم قيام لرب العالمين .

والهداية لها أربع مراتب وهى مذكورة فى القرآن :

المرتبة الأولى : الهداية العامة ، وهى هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمى لمصالحه التى بها قام أمره ، قال الله تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣** ﴾ [الأعلى] ، فذكر أمورا أربعة : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية . فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه ، ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتقلباته وتصرفاته ، وهداه إليها ، والهداية تعليم ، فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك ، وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠** ﴾ [طه] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها .

المرتبة الثانية : هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده ، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام ، قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت : ١٧] يعنى : بينا لهم ودللناهم وعرفناهم ، فآثروا الضلالة والعمى ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨** ﴾ [العنكبوت] وهذه المرتبة أخص من الأولى ، وأعم من الثانية ، وهى هدى التوفيق والإلهام ، قال الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥** ﴾ [يونس] فعم بالدعوة خلقه ، وخص بالهداية من شاء منهم ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] مع قوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢** ﴾ [الشورى] ، فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية التوفيق والإلهام ، وقال النبى ﷺ فى تشهد الحاجة : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له »(١) ، وقال تعالى : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل : ٣٧] أى : من يضله الله لا يهتدى أبدا ، وهذه الهداية الثالثة هى الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية : فشرط لا موجب ، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها

---

(١) مسلم (٨٦٨ / ٤٦) فى الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة .

بخلاف الثالثة ، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل .

المرتبة الرابعة : الهداية فى الآخرة إلى طريق الجنة والنار ، قال تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [الصافات] ، وأما قول أهل الجنة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة ، وأن يكونوا أرادوا الهداية فى الدنيا التى أوصلتهم إلى دار النعيم ، ولو قيل : إن كلا الأمرين مراد لهم وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم فى الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ ، وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقا لحاله ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)** ﴾ [الأنعام] .

الوجه السادس والسبعون : أن فضيلة الشىء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته ، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه ، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده ، وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده ؛ لكونه محبوبا ملائما ، فإدراكه يعقب غاية اللذة ، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وإفضاله إلى أجل المطالب ، وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه ، فإذا كان فى نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل فى نفسه ومتعلقاته ، ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم، فإنه أعم شىء نفعا وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء، بل فوق الحاجة إلى التنفس ؛ إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم .

وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح ، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين ؛ ولهذا إذا فقد من الشخص كان شرا من الحمير ، بل كان شرا من الدواب عند الله ، ولا شىء أنقص منه حينئذ ، وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده ؛ فلأنه كمال فى نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس ، فإن الجهل مرض ونقص ، وهو فى غاية الإيذاء والإيلام للنفس ، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه .

وما لجرح ميت إيلام

فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها واتصال به ، وذلك غاية لذتها وفرحتها ، وهذا بحسب المعلوم فى نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه ، والعلوم والمعلومات متفاوتة فى ذلك أعظم التفاوت وأبينه ، فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته

والتقرب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها .

وهذا يتبين بالوجه السابع والسبعين وهو : أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته ، وعظم النفع بها ، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين ، وقيوم السموات والأرضين ، الملك الحق المبين ، الموصوف بالكمال كله ، المنزه عن كل عيب ونقص ، وعن كل تمثيل وتشبيه فى كماله ، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات ، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها ، فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند فى وجوده إلى الملك الحق المبين ، ومفتقر إليه فى تحقق ذاته وأينيته ، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر فى تحقق ذاته إليه ، فالعلم به أصل كل علم كما أنه ـ سبحانه ـ رب كل شىء ومليكه وموجده .

ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام ، وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه ، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله ، وكل موجود سوى الله فهو مستند فى وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه ، والمفعول إلى فاعله ، فالعلم بذاته ـ سبحانه ـ وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه ، فهو فى ذاته رب كل شىء ومليكه ، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه ، فمن عرف الله عرف ما سواه ، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر : ١٩] ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيما ، وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه فى معاشه ومعاده ، فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ؛ لبقائها هداها الذى أعطاها إياه خالقها ، وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاته ، وما تكمل به وتزكو به وتسعد به فى معاشها ومعادها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلا .

والمقصود : أن العلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به

وتفلح به ، فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته ، يزيده إيضاحا :

الوجه الثامن والسبعون : أنه لا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه ، ودوام ذكره والسعى فى مرضاته ، وهذا هو الكمال الذى لا كمال للعبد بدونه ، وله خلق الخلق ، ولأجله نزل الوحى وأرسلت الرسل ، وقامت السموات والأرض ، ووجدت الجنة والنار ، ولأجله شرعت الشرائع ووضع البيت الحرام ، ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته ، والرضا به وعنه ، ولأجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه ، وآثر غيره عليه ، وجعل له فى الآخرة دار الهوان ، خالدا مخلدا ، وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة ، وهو قطب رحى الخلق والأمر الذى مدارهما عليه ، ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم ، فإن محبة الشيء فرع عن الشعور به ، وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له ، فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم ، فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الوجه التاسع والسبعون : أن اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه ، فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ، ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء ، وكذلك الجائع ، وكذلك من أحب شيئا كانت لذته على قدر حبه إياه ، والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن ، فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته ، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله ؛ فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات ، وسيأتى تقرير هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الوجه الثمانون : أن كل ما سوى الله يفتقر إلى العلم لا قوام له بدونه ، فإن الوجود وجودان : وجود الخلق ووجود الأمر ، والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته ، فكل ما ضمه الوجود من خلقه ، وأمره صادر عن علمه وحكمته ، فما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم ، ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ، ولا عبد الله وحده وحمد وأثنى عليه ومجد إلا بالعلم ، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم ، ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم .

واختلف هنا فى مسألة ، وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية ، فقالت طائفة : هو صفة فعلية ؛ لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول ، فإن الفعل الاختيارى يستدعى حياة الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ، ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات . وقالت طائفة : هو انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه ، فإن العالم يدرك المعلوم

على ما هو به ، فإدراكه تابع له ، فكيف يكون متقدما عليه ؟

والصواب : أن العلم قسمان : علم فعلى : وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله، فإنه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به ، فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه ، وعلم انفعالى : وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه ، كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات ، فإن العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو شرط فيه ، فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، وكلا القسمين من العلم صفة كمال ، وعدمه من أعظم النقص ، يوضحه :

الوجه الحادى والثمانون : أن فضيلة الشىء تعرف بضده ، فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد ، وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل ، وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلا مسموم من أكله قطع أمعاءه فى وقت معين لا يقدم على أكله وإن قدر أنه قدم عليه لغلبة جوع أو استعجال وفاة ، فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده الذى هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره .

وهنا اختلف فى مسألة عظيمة ، وهى : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى إلا لعدم العلم أو نقصه ، وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال ، وأنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالما . وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم . فقالت فرقة : من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال ألا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه ، واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [النساء : ١٦٢] ، فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان ، وبقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وبقوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وبقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] ، قسم الناس قسمين : أحدهما : العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثانى : العمى ، فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى فى وصف الكفار : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] ، وبقوله : ﴿ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ [التوبة] ، وبقوله تعالى : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ [البقرة : ٧] . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ**

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية] ، وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : على علمه تعالى فيه . قال الزجاج : أى على ما سبق فى علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلقه ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ أى : طبع عليه فلم يسمع الهدى ، ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلم يعقل الهدى ، ﴿ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ فلا يبصر أسباب الهدى ، وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد : ١٦] فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال، ولما كان مطبوعا على قلوبهم ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾ [الإسراء] ، فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه ، وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت] أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون ، والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ﴾ [الروم : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة : ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون ، والنص بخلافه ، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون ، وتارة بأنهم لا يعقلون ، وتارة بأنهم لا يشعرون ، وتارة بأنهم لا يفقهون ، وتارة بأنهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ الكفار بأنهم جاهلون ، كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص] ، وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

وقال النبى ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا

يعلمون » (١) . وفى الصحيحين عنه : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (٢) ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد ، ولا يقال : الحديث دل على أن من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين ، ولا يدل على أن كل من فقهه فى الدين فقد أراد به خيرا وبينهما فرق ، ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثانى ، والحديث لا يقتضيه ؛ لأنا نقول : النبى ﷺ جعل الفقه فى الدين دليلا وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيرا ، والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه ، فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

وفى الترمذى وغيره عنه ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين » (٣) ، فجعل الفقه فى الدين منافيا للنفاق ، بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذى يصحبه العمل ، كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم ، وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شىء ؟ فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك . فقال الحسن : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت بعينيك فقيها ! إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذى لا يهمز من فوقه ، ولا يسخر بمن دونه ، ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجرا .

وقال بعض السلف : إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ،ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علما ، وبالاغترار بالله جهلا . قالوا : فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا : ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها ، وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك ؛ ولهذا وصف الله ـ سبحانه ـ أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾** [النساء] .

قال سفيان الثورى : كل من عمل ذنبا من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالما ؛ إن كان عالما فمن أجهل منه ، وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله : **﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن**

(١) البخارى (٦٩٢٩) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : (٥) ، ومسلم (١٧٩٢ / ١٠٥) فى الجهاد والسير ، باب : غزوة أحد .

(٢) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

(٣) سبق تخريجه ص (١٧٨) .

قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء] ، قال : قبل الموت ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدى : كل من عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبيا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته ، فلابد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه ، فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادرا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين ؛ جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة .

وقالت الطائفة الأخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته .

قالوا : وهذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك فى الله ، وفى وحدانيته ، وفى البعث الآخر ، وفى الجنة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود فى النار ، واحتمال لعنة الله وغضبه ، وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس ؛ ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به ، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه ، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه ، وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء] ، أى : هالكا ، على قراءة من فتح التاء ، وهى قراءة الجمهور ، وضمها الكسائى وحده ، وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده ، ويشهد لها قوله تعالى إخبارا عنه وعن قومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] فأخبر ـ سبحانه ـ أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين ، وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى : أنهم قد عرفوا صدقك ، وأنك غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد ، وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة : ١٠٢] أى : علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة ، وفى التوحيد كقوله فى الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ [الأنعام] وفى الكتاب أنه منزل من عند الله : كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٥]

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قريظة والنضير ، ومن دان بدينهم كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به ، وشهدوا له بالنبوة ، وإنما كفروا بغيا وحسدا . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم ؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ؛ لأنهم كفروا بعد البينات ، ومعنى ﴿كَيْفَ يَهْدِي ﴾ أى : أنه لا يهديهم ؛ لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا ، فمن أين تأتيهم الهداية ؟ فإن الذى ترتجى هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال ؛ بل يظن أنه على هدى ، فإذا عرف الهدى اهتدى ، وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به

قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه ، فكيف يهدى الله مثل هذا .

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ [البقرة] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباها ، ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل . ثم قال بعد ذلك : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)** ﴾ [البقرة] ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم ، تقول : إذا خاطبت من عصاك عمدا : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهى إياك ؟ ومنه على أحد القولين قوله تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)** ﴾ [النحل] . قال السدى : يعنى محمدا ﷺ ، واختاره الزجاج ، فقال : يعرفون أن أمر محمد ﷺ حق ، ثم ينكرون ذلك ، وأول الآية يشهد لهذا القول .

وقال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ** ﴾ [الأعراف] . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ، فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل : إنه كان أوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)** ﴾ [العنكبوت] وهذا يدل على أن قولهم : ﴿ **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)** ﴾ [هود] إما بهت منهم وجحود ، وإما نفى لآيات الاقتراح والعنت، ولا يجب الإتيان بها ، وقد وصف ـ سبحانه ـ ثمـــود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ، ولهذا قال : ﴿ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ [الإسراء : ٥٩] أى بينة مضيئة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** ﴾ [الإسراء : ١٢] أى مضيئة ، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرا ، فهى توجب له البصر فتبصره أى: تجعله ذا بصر فهى موضحة مبينة . يقال : بصر به إذا رآه كقوله تعالى : ﴿**فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ**﴾ [القصص: ١١] ، وقوله : ﴿ **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ** ﴾ [طه : ٩٦].

وأما أبصره فله معنيان : أحدهما : جعله باصرا بالشىء أى : ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود . والثانى : بمعنى رآه كقولك : أبصرت زيدا ، وفى حديث أبى شريح العدوى : أحدثك

قولا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح فسمعته أذناى ، ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به (١) . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] قيل : المعنى : أبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك ، وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة ، والمراد : تقريب المبصر من المخاطب ، حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه .

والمقصود : أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ، وإلى الفاجرة الضالة الغاوية ، وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع ، فقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس] ، فهذا قدره وقضاؤه ، ثم قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] ، فهذا أمره ودينه ، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى ؛ فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية ، والله أعلم بما أراد .

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعدما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام] فأى علم أبين من علم من ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ، ثم لو رد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الأنعام] فهل بعد نزول الملائكة عيانا ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شىء فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول ومن نظر فى سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق فى قوله أنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان .

قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبى جهل وكان خاله : أى خال ، هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها ؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى : يا ابن أخى ، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الأمين ، وما جربنا عليه كذبا قط ، فلما

---

(١) البخارى (١٠٤) فى العلم ، باب : ليبلغ العلم الشاهد الغائب .

وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله . قال : يا خال ، فلم لا تتبعونه ؟ قال : يا بن أخى ، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى ، فمتى ندرك هذه ؟ وهذا أمية بن أبى الصلت ، كان ينتظره يوما بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معا معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال : لا أومن بنبى من غير ثقيف أبدا ، وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه، وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها قبلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبى، قال :« فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ » قالوا : إن داود عليه السلام دعا ألا يزال فى ذريته نبى ، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود ، فهؤلاء قد تحققوا نبوته ، وشهدوا له بها ، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة ، فقيل : لا يصير الكافر مسلما بمجرد شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ حتى يشهد لله بالوحدانية ، وقيل : يصير بذلك مسلما ، وقيل : إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلما بذلك ، وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلما إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين ، وهذه الأقوال الثلاثة فى مذهب الإمام أحمد وغيره .

وعلى هذا ، فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام ؛ لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته ، وإلا فلو قال : أنا أعلم أنه نبى ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه ، كان من أكفر الكفار ، كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة : أن الإيمان لا يكفى فيه قول اللسان بمجرده ، ولا معرفة القلب مع ذلك ؛ بل لابد فيه من عمل القلب ، وهو حبه لله ورسوله ، وانقياده لدينه ، والتزامه طاعته ومتابعة رسوله ، وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره ، وفيما تقدم كفاية فى إبطال هذه المقالة ، ومن قال : إن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به ، وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين ، وهذا إلزام لا محيد عنه ؛ ولهذا اضطرب هؤلاء فى الجواب عن ذلك لما ورد عليهم ، وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله ، كقول بعضهم : إن إبليس كان مستهزئا ، ولم يكن يقر بوجود الله ، ولا بأن الله ربه وخالقه ، ولم يكن يعرف ذلك ، وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع ، وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع

فى أمثالها ، ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قالوا : وقد بين القرآن أن الكفر أقسام :

أحدها : كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف،وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

الثانى : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو من له مأكل وأموال فى قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمدا .

الثالث : كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه ؛ بل هو معرض عن متابعته ومعاداته ، وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثانى والثالث كفرا ؛ لدلالته على الأول لا لأنه فى ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل .

ومن تأمل القرآن والسنة وسير الأنبياء فى أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤوا به ، وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات والقرآن ، مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به فى ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ؟ وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر.

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمنا إلا بهما جميعا ؛ واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد ، لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام ؛ بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلا . فإن الجاهل إذا عُرِّفَ وعُلِّمَ فهو قريب إلى الانقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**

وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران] .

قالوا : فحب الله ورسوله ؛ بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلما إلا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى فى أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لا شىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله ؛ ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ، فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله ، وإنما حمله على ذلك إفساد قصده وإرادته ، كما هى حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها ، وسنة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم فى عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)** ﴾ [فصلت] .

فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع ، وجاء ببينات لا ترد ولا تدافع ، فهل عندك شىء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين ، وإلا فخل المطى وحاديها وأعط النفوس باريها ؟

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق : كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان : مقتض لا يتخلف عنه موجبه ومقتضاه ، لقصوره فى نفسه ، بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها . ومقتض غير تام ، يتخلف عنه مقتضاه ؛ لقصوره فى نفسه عن التمام أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فإن أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذى لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه

الاهتداء بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية : وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتض له ، وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشىء سببا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة :

السبب الأول : ضعف معرفته بذلك .

السبب الثانى : عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فإذا كان القلب قاسيا حجريا لا يقبل تزكية ، ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧)** ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)** ﴾ [يونس] وهذا فى القرآن كثير ، فإذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لا يعمل فيه العلم شيئا ، وكذلك إذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

السبب الثالث : قيام مانع وهو إما حسد أو كبر ، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر ، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله ، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ ، وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم ، وهو الذى منع عبد الله بن أبى من الإيمان ، وبه تخلف الإيمان عن أبى جهل ، وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر، وبه تخلف الإيمان عن أمية ، وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ .

السبب الرابع : مانع الرياسة والملك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته ، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنا ، وأحبوا الدخول فى دينه لكن خافوا على ملكهم ، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة ، وقل من نجا منه إلا من عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ**

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم ؛ ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال : بينا أنت إله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك ، فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

السبب الخامس : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخر ما كلمنى به أحدهم : أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنا ، فإذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتمونى على شربها . وقال آخر منهم ، بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمت لم يصل إلى منها شىء ، وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال ، ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى .

السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

السبب السابع : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه .

السبب الثامن : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام ، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ؛ ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما كلمهم به : هو على ملة عبد المطلب ، فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب ؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب ، وأنه إنما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتى أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ؟ ولهذا قال : لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لأقررت بها عينك ، أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه ، كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريـــة دينا
لولا الملامة أو حـذار مسبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وفى قصيدته اللامية :

فو الله لولا أن تكون مســـبة تجر على أشياخنا فى المحافـــل
لكنا اتبعناه على كل حـــالـه مـن الدهر جدا غير قول التـهازل
لقد علموا أن ابننا لا مـكـذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطـــل

والمسبة التى زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال ، وتسفيه الأحلام وتضليل العقول ، فهذا هو الذى منعه من الإسلام بعد تيقنه .

السبب التاسع : متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ، ويبغض مكانه ولا يحب أرضا يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار ، وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

السبب العاشر : مانع الألف والعادة والمنشأ ، فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ؛ ولهذا قيل : هى طبيعة ثانية ، فيربى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيرا ، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال ، وهذا السبب وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم ، بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذ الإعادة ومربى تربى عليه طفلا لا يعرف غيرها ولا يحسن به ، فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس ،فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله ، خصوصا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ؟ ونقلوهم إلى الإيمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم ، وطبيعتهم الفاسدة . ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل

واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدا من العالمين .

إذا عرف أن المقتضى نوعان ؛ فالهدى المقتضى وحده لا يوجب الاهتداء ، والهدى التام يوجب الاهتداء . فالأول : هدى البيان والدلالة والتعليم ، ولهذا يقال : هدى فما اهتدى . والثانى : هدى البيان والدلالة ، مع إعطاء التوفيق ، وخلق الأرادة ، فهذا الهدى الذى يستلزم الاهتداء . ولا يتخلف عنه موجبه ، فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه ، وههنا دقيقة بها ينفصل النزاع ، وهى أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضى أمر يضعفه فى نفسه ، ويسلبه اقتضاءه وقوته أو الاقتضاء بحاله ، وإنما غلب المانع فكان التأثير له .

ومثال ذلك فى مسئلتنا : أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها ، هل يضعف العلم حتى لا يصير مؤثرا البتة ، أو العلم بحاله ؟ ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها ، فأما الأول فلا شك فيه ، ولكن الشأن فى القسم الثانى ، وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه، وربما قلبت حقيقته من القلب ، والقرآن قد دل على هذا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** (٥) ﴾ [الصف] فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (١١٠) ﴾ [الأنعام] ولهذا قيل : من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه ، ومن هنا قيل : لا رأى لصاحب هوى ، فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله .

قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ [النساء : ١٥٥] أخبر ـ سبحانه ـ أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببا لطبع الله على قلوبهم ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [النساء : ١٥٥] ، حتى صارت غلفا ، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذى قد غشيه غلاف كالسيف الذى فى غلافه ، وكل شئ فى غلافه فهو أغلف ، وجمعه غلف يقال : سيف أغلف ، وقوس غلفاء ، ورجل أغلف وأقلف ؛ إذا لم يختتن . والمعنى : قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ ، ولم تع شيئا . من قال : إن المعنى : أنها غلف للعلم والحكمة ، أى أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ، ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه :

أحدها : أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف ، وحمر وأحمر ، وجرد وأجرد ،

وغلب وأغلب ونظائره ، والأغلف من القلوب : هو الداخل فى الغلاف ، هذا هو المعروف من اللغة .

الثانى : أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال : قلب فلان غلاف لكذا ، وهذا لا يكاد يوجد فى شىء من نثر كلامهم ولا نظمه .ولا نظير له فى القرآن ، فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه .

الثالث : أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار : ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ [فصلت : ٥] ، والأكنة هنا : هى الغلف التى قلوب هؤلاء فيها ، والأكنة كالأوعية والأغطية التى تغطى المتاع ، ومنه الكنانة لغلاف السهام .

الرابع : أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذى ذكروه ، ولا يحسن مقابلته بقوله : ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ ، وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التى ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾ [الإسراء] ، وأما هنا فلما أدعوا أن قلوبهم فى أغطية وأغشية لا تفقه قوله ، قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببا لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست ، وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذى يهتدى به المهتدون سببا لضلال هذا ، كما قال تعالى : ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** (٢٦) **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٢٧) ﴾ [البقرة] ، فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس ، وهو هداه الذى هدى به رسوله وعباده المؤمنين ؛ ولهذا أخبر ـ سبحانه ـ أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (١٢٤) **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** (١٢٥) ﴾ [التوبة] ، ولا شىء أعظم فسادا لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به ، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذى قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب ، كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه ، وإذا فسد الفم فسد إدراكه ، وكذلك إذا فسدت العين . وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون : إن من خاف فى نقده نسى النقد وسلبه ، فاشتبه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا

ارتحل وقال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به ، فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب فى ذهابه ونسيانه . وأيضا ، فإن العلم يراد للعمل ، فإنه بمنزلة الدليل للسائر ، فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته ، فنزل منزلة من لم يعلم شيئا ؛ لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذى لا يعلم ، كما أن من ملك ذهبا وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس ، فهو بمنزلة الفقير العادم ، كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذى فعل الفقر

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلا ، إما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه ، وإما لأن الجهل يقال فى جانب العلم والعمل ، قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا : ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٦٧) ﴾ [البقرة] فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلا . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) ﴾ [يوسف] . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) ﴾ [الأعراف] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده ، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه .

قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم : صن نفسك عن مقابلتهم وعلى سفههم ، وهذا كثير فى كلامهم ، ومنه الحديث : « إذا كان صوم أحدكم فلا يصخب ولا يجهل »(١)، ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة : أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل ، وليس المراد أنه جاهل بالتحريم ؛ إذا لو كان جاهلا لم يكن عاصيا، فلا يترتب الحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة على جاهل بالتحريم ؛ بل نفس الذنب يسمى جهلا ، وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه ، وذلك جهل فسمى باسم سببه ، وإما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به .

الثانى : أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** (٣) ﴾ [المنافقون]

الثالث : أن العلم الذى ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلا لهم ، فسلب

(١) النسائى (٢٢١٦) فى الصيام ، باب : فى فضل الصيام ، وأحمد (٢ / ٢٧٣) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٧٦٧٩) : « إسناده صحيح » .

عنهم حقيقته ، والشيء قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه . قال تعالى في ساكن النار : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [طه] نفى الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها ويقولون : لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع ؛ ولهذا نفى عنه ـ سبحانه ـ عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها ، قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة] فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصم والنطق والبكم ، بل هذه له أصلا وللعين والأذن واللسان تبعا ، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين ، أصم ولا آفة بأذنه ، أبكم وإن كان فصيح اللسان ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج] فلا تنافى بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾ [الإسراء] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه منعهم فقه كلامه ، وهو الإدراك الذى ينتفع به من فقهه ، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذى تقوم به الحجة عليهم ، فإنهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله ، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب ، وأن الذى غشى قلوبهم كالذى غشى آذانهم ، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم ؛ ولذلك ينفى ـ سبحانه ـ عنهم السمع تارة ويثبته أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن ، وأمر الرسول بإسماعهم إياه ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [الملك] ، فهذا السمع المنفى عنهم سمع الفهم والفقه ، والمعنى : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم سمعا ينتفعون به ، وهو فقهه المعنى وعقله ، وإلا فقد سمعوه سمعا تقوم به عليهم الحجة ، لكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته

ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه ، والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به ، فينزل منزلة من لم يسمعه ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) ﴾ [هود] نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها ، وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه ، وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة ، يقولون : لا أطيق أنظر إلى فلان ، ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه .

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها ؛ إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذى تقوم به الحجة قطعا ، وإنما المراد سلب السمع الذى يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ، ووضع الآيات مواضعها ، واتباع الحق حيث كان ، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك ؛ لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذرا له ، ومن هذا : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] يعنون أنهم فى ترك القبول منه ، ومحبة الإسماع لما جاء به ، وإيثار الإعراض عنه ، وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ، ولا يبصر المخاطب لهم به ، فهذا هو الذى يقولون لا خلود فى النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [الملك : ١٠] ؛ ولهذا جعل ذلك مقدورا لهم وذنبا اكتسبوه ، فقال تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ [الملك] .

والله تعالى ينفى تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله ، وتارة ينفى عنهم السمع والعقل ، وتارة ينفى عنهم السمع والبصر ، وتارة ينفى عنهم العقل والبصر ، وتارة ينفى عنهم وحده ، فنفى الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة ، ونفى بعضها نفى له بالمطابقة والآخر باللزوم ، فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر ، بل أصل فسادهما من فساده ، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب ، فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد ، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده ؛ فلهذا يجىء فى القرآن نفى ذلك صريحا ولزوما .

وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين ، وفى استدلال الطائفة الثانية بقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] ، ونظائرها نظر ، فإن الله تعالى حيث قال : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين ، وإذا أراد

ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال ، أتى بلفظ الذين أتوا الكتاب مبنيا للمفعول .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ الآيات [القصص : ٥٢ ـ ٥٤]، وكقوله تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)** ﴾ [الأنعام] ، فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ، ليس فى سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم ، كما استشهدهم فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)** ﴾ [الرعد] ، وفى قوله : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)** ﴾ [النحل] .

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)** ﴾ [البقرة] . واختلف فى الضمير فى ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ** ﴾ فقيل : هو ضمير الكتاب الذى أوتوه . قال ابن مسعود : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويقرؤونه كما أنزل ، ولا يحرفونه عن مواضعه . قالوا : وأنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب . وقيل : هذا وصف للمسلمين ، والضمير فى ﴿ **يَتْلُونَهُ** ﴾ للكتاب الذى هو القرآن . وهذا بعيد ، إذا عرف أن القرآن يأباه .

ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)** ﴾ [البقرة] ، بل هذا حجة لنا أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم ، استشهادا بهم على من كفر وثناء عليهم ؛ ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم ، فدل على أن الأولين غير مذمومين ، وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال : آتيناهم الكتاب عند الإطلاق ، فإنهم دخلوا فى هذا اللفظ ضمنا وتبعا ، فلا يلزم تناوله لهم قصدا واختيارا .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ** ﴾ [الأنعام : ١٩ ، ٢٠] ، قيل : الرسول وصدقه ، وقيل : المذكور هو التوحيد ، والقولان متلازمان . إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا فى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب ، فإن السورة مكية ، والحجاج كان فيها مع أهل الشرك ، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب .

وأما الثانى : فكقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة]، فهذا شهادته ـ سبحانه ـ للذين أوتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم مؤمنون.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ [النساء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم ، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ؛ ولهذا لا يذكر ـ سبحانه الذين أتوا نصيبا من الكتاب إلا بالذم أيضا كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ الآية [النساء : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النساء] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران] ، فالأقسام أربعة : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهذا لا يذكره ـ سبحانه ـ إلا فى معرض المدح . و ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ لا يكون قط إلا فى معرض الذم . و ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أعم منه ، فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط . و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم ، كقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية [آل عمران] ، وقال فى الذم : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة : ١] .

وهذا الفصل ينتفع به جدا فى أكبر مسائل أصول الإسلام وهى مسألة الإيمان ، واختلاف أهل القبلة فيه . وقد ذكرنا فيه نكتا حسانا يتضح بها الحق فى المسألة ، والله أعلم .

الوجه الثانى والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ فاوت بين النوع الإنسانى أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين ، فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم ، والله ـ سبحانه ـ خلق للملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان مركبا من عقل وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته كان خيرا من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله كان شرا من الحيوانات . وفاوت ـ سبحانه ـ بينهم فى العلم ، فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

[البقرة : ٣٣] وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها ، وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له ، كما قال الشيطان لجاهلهم الذى أطاعه فى الكفر : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] وقال لجهلتهم الذين عصوا رسول :ه ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٨] ، فلله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين ؛ أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها مما الله علمه ، والآخر لا يرضى الشيطان به وليا ، وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ، ولو لم يكن فى العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلى لكفى به فضلا وشرفا ، فكيف وعز والدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله .

الوجه الثالث والثمانون : أن أشرف مافى الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذى يأتيه به ، والعين طليعته ، كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ، ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها ، فلذلك كان ملكها والمطاع فيها . وهكذا العالم فى الناس ، كالقلب فى الأعضاء .

ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفساده ، كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم ، كما قال بعض السلف : صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس ، وإذا فسدا فسد سائر الناس : العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء ، كانا فى أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه ، وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع .

الوجه الرابع والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم ، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ، ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب ، فقال تعالى فى سورة النعم ـ وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها ، فعدد نعمه فيها على عباده ، وتعرف بها إليهم واقتضاهم شكرها ، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها ، فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها ، قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل] فذكر ـ سبحانه ـ نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم ، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه ، وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه .

وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا**

أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وقال تعالى : **﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩ ﴾** [البلد] ، فذكر هنا العينين التى يبصر بهما فيعلم المشاهدات ، وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر ، وفى ذلك حديث مرفوع ومرسل ، وهو قول أكثر المفسرين ، وتدل عليه الآية الأخرى : **﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③ ﴾** [الإنسان] والهداية تكون بالقلب والسمع ، فقد دخل السمع فى ذلك لزوما ، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم ، فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه ، التى تعرف بها إلى عباده .

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التى هى أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها ، خصها ـ سبحانه ـ وتعالى بالذكر فى السؤال عنها ، فقال : **﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ㊱ ﴾** [الإسراء] ، فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس : يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد ، والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده ، والقلب ليعقلها ويفقهها ، والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه .

الوجه الخامس والثمانون : أن أنواع السعادة التى تؤثرها النفوس ثلاثة :

سعادة خارجية عن ذات الإنسان ، بل هى مستعارة له من غيره ، تزول باسترداد العارية ، وهى سعادة المال والحياة ، فبينا المرء بها سعيدا ملحوظا بالعناية مرموقا بالأبصار ، إذا أصبح فى اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهرواجى ، فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه ، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته ، فإذا جاوز بصرك كسوته ، فليس وراء عبادان قرية .

ويحكى عن بعض العلماء : أنه ركب مع تجار فى مركب ، فانكسرت بهم السفينة ، فأصبحوا بعد عز الغنى فى ذل الفقر ، ووصل العالم إلى البلد فأكرم ، وقصد بأنواع التحف والكرامات ، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له : هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة ؟ فقال : نعم ، تقولون لهم : إذا اتخذتم مالا لا يغرق إذا انكسرت السفينة ، فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم ، فجس المخاضة فلم ير شيئا ، فقالوا : كيف رأيته ؟ فقال : رأيت دارا حسنة مزخرفة ، ولكن ليس بها ساكن .

السعادة الثانية : سعادة فى جسمه وبدنه ، كصحته واعتدال مزاجه ، وتناسب أعضائه ،

وحسن تركيبة ، وصفاء لونه ، وقوة أعضائه ، فهذه ألصق به من الأولى ، ولكن هى فى الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته ، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه ، كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه ، فإن البدن - أيضا - عارية للروح وآلة لها ، ومركب من مراكبها ، فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .

السعادة الثالثة : هى السعادة الحقيقية ، وهى سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهى سعادة العلم النافع ثمرته ، فإنها هى الباقية على تقلب الأحوال ، والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره ، وفى دوره الثلاثة ؛ أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال .

أما الأولى : فإنها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجاهه .

والثانية : تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف ، فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلما طال الأمد ازدادت قوة وعلوا ، وإذا عدم المال والجاه فهى مال العبد وجاهه ، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان ، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها ، فعادات السعادة كلها إلى العلم ومايقتضيه ، والله يوفق من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها ، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب ، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض بخلاف الأوليين ، فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه ، وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث، أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع ، وصدق الطلب ، وصحة النية ، وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمـــور بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال آخر :

لـولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقـدام قتال

ومن طمحت همته إلى الأمور العالية ، فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية وهى السعادة ، وإن كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى ، وأنها متى أكرهت النفس عليها ، وسيقت طائعة وكارهة إليها ، وصبرت على لأوائها وشدتها ،

أفضت منها إلى رياض مونقة ، ومقاعد صدق ، ومقام كريم ، تجد كل لذة دونها لعب الصبى بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوك ، فحينئذ حال صاحبها ، كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنهـــــا تيقنت أنى إنما كنت ألعـــب

فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تقطع مسافتها إلا فى سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير : لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

فياوصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها ، لتجالدوا عليها بالسيوف ، ولكن حفت بحجاب من المكاره ، وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ؛ ليختص الله لها من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

الوجه السادس والثمانون : أن الله تعالى خلق الموجودات ، وجعل لكل شىء منها كما لا يختص به هو غاية شرفه ، فإذا عدم كماله انتقل إلى الرتبة التى دونه واستعمل فيها ، فكان استعماله فيها كمال أمثاله ، فإذا عدم تلك أيضا نقل إلى ما دونها ولا تعطل . وهكذا أبدا ، حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذى لا يصلح إلا للوقود ، فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك ، وأكرم إكرام مثله ، فإذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك ، فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الإجناد ، فإن تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار ، وإما حول المدار ، وإما لنقل الزبل ونحوه ، فإن عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام . كما يقال فى المثل : إن فرسين التقيا ، أحدهما تحت ملك ، والآخر تحت الروايا ، فقال فرس الملك ، أما أنت صاحبى ، وكنت أنا وأنت فى مكان واحد ، فما الذى نزل بك إلى هذه المرتبة ؟ فقال : ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسعت أنا .

وهكذا السيف إذا نبا عما هيئ له ولم يصلح له ، ضرب منه فاس أو منشار ونحوه .

وهكذا الدور العظام الحسان إذا خرجت وتهدمت،اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها .

وهكذا الآدمى إذا كان صالحا لاصطفاء الله له برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، فإذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها ، رشحه لذلك وبلغه إياه ، فإذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها ، وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة

والعلم ، جعل أهله حتى ينتهى إلى درجة عموم المؤمنين[١] ، فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشىء من الخير أصلا ، استعمل حطبا ووقودا للنار .

وفى أثر إسرائيلى : إن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال : يا موسى ، ازرع زرعا ، فزرعه ، فأوحى إليه أن احصده ، ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ، ففعل وخلص الحب وحده ، والعيدان والعصف وحده ، فأوحى إليه : إنى لأجعل فى النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التى لا يصلح إلا للنار .

وهكذا الإنسان يترقى فى درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها ، فكم بين حاله فى أول كونه نطفة ، وبين حاله والرب يسلم عليه فى داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشيا . والنبى ﷺ فى أول أمره لما جاءه الملك فقال له : اقرأ فقال : « ما أنا بقارئ » [٢] وفى آخره أمره بقول الله له : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة : ٣] ، وبقوله له خاصة : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)** ﴾ [النساء] .

وحكى أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم ، فقال قائل منهم : ما أقل عقول المسلمين ، يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم ، فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة ؟ فقال له آخر من بينهم : أما هم فو الله أعقل منا ، فإن الله بحكمته يسترعى النبى الحيوان البهيم ، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق ، حكمة من الله وتدريجا لعبده ، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكى فقلنا : هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض ، فأمسك القوم عنه .

فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله ، وعرفه السعادة والشقاوة ، أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا ، وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا ، وبأن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتقوم الملائكة فى خدمته ، وتدخل عليهم من كل باب ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾ [الرعد] .

وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه ، فعاد الأمر إلى العلم وثمرته ، والله تعالى الموفق . وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته كما قال بعض السلف : إذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة ، وصدق

---

(١) هذا التقسيم جيد ، فالأول لقوله تعالى فى الآيه السابقة ، أما جعل الولاية درجة ، ثم العبادة والعمل دونها ، ففيه نظر لأن كل عامل عابد ولى من أولياء الله تعالى بشرط الإخلاص والتقوى ، وكذلك عموم المؤمنين لهم نصيب من الولاية كل بقدر وإخلاص وتقواه ، والله تعالى أعلم . وراجع ص (٢٦٣) .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) .

القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شىء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون ، إن عاش عاش غير حميد ، وإن مات مات غير فقيد ، فقدهم راحة للبلاد والعباد ، ولا تبكى عليهم السماء ، ولا تستوحش له الغبراء .

الوجه السابع والثمانون : أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه ، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته ، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات ، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله ، وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين فى كتابه .

أما مرض الشبهات ـ وهو أصعبها وأقتلهما للقلب ، ففى قوله فى حق المنافقين : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقوله : ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج : ٥٣] ، فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة .

وأما مرض الشهوة ، ففى قوله : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] أى لا تلن فى الكلام فيطمع الذى فى قلبه فجور وزناء . قالوا : والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ، ولا تلينه وتكسره ،فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب أمراض أخر من الرياء ، والكبر ، والعجب ، والحسد ، والفخر ، والخيلاء ، وحب الرياسة ، والعلو فى الأرض . وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة ، فإنه لابد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة ؛ كالعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله ، وإرادة تعظم الخلق له ومحمدتهم ، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما .

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم ، كما قال النبى ﷺ فى حديث صاحب الشجة الذى أفتوه بالغسل فمات : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العى السؤال » [1] . فجعل العى ـ وهو عى القلب عن العلم ، واللسان عن النطق ـ

---

(١) أبو داود (٣٣٧) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم ، وابن ماجه (٥٧٢) فى الطهارة وسننها ، باب : فى المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل ، وفى الزوائد : « إسناده منقطع » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (١ / ٣٣٠) : وقال العلامة أحمد شاكر (٣٠٥٧) : « إسناده صحيح » .

مرضا ، وشفاؤه سؤال العلماء . فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان ؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ؛ ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٥٧) ﴾ [يونس] ؛ ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان ، وما يقال للعلماء : أطباء القلوب ، فهو لقدر ما جامع بينهما ، وإلا فالأمر أعظم ، فإن كثيرا من الأمم يستغنون عن الأطباء ، ولا يوجد الأطباء إلا فى اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب .

وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ، ولا يستغنى عنهم طرفة عين ، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس فى الهواء بل أعظم . وبالجملة ، فالعلم للقلب مثل الماء للسمك ، إذا فقده مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها،وكنسبة سمع الأذن،وكنسبة كلام اللسان إليه ، فإذا عدمه كان كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واللسان الأخرس ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بالعمى والصم والبكم ، وذلك صفة قلوبهم ، حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** (٧٢) ﴾ [الإسراء] والمراد عمى القلب فى الدنيا . وقال تعالى : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ [الإسراء : ٩٧] لأنهم هكذا كانوا فى الدنيا ، والعبد يبعث على ما مات عليه .

واختلف فى هذا العمى فى الآخرة ، فقيل : هو عمى البصيرة ؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار مافى القيامة ، ورؤية الملائكة ، ورؤية النار . وقيل : هو عمى البصر ، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه ، وبقوله : ﴿ **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) ﴾ [طه] وهذا عمى العين ، فإن الكافر لم يكن بصيرا بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار فى القيامة : بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ، ويحشرون من الموقف إلى النار عميا ، قاله الفراء وغيره .

الوجه الثامن والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته سلط على العبد عدوا عالما بطرق هلاكه وأسباب الشر الذى يلقيه فيه ، متفننا فيها ، خبيرا بها حريصا عليها ، لا يفتر يقظة ولا مناما ، ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه : أحدها ـ وهى غاية مراده منه : أن يحول بينه وبين العلم والإيمان فيلقيه فى الكفر ، فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح ، فإن

فاتته هذه وهدى للإسلام حرص على تلو الكفر وهى البدعة ، وهى أحب إليه من المعصية، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ؛ لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفى بعض الآثار يقول إبليس : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ؛ فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فإذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه ، فإن أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذى بينهما وهى الخامسة ، فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهى : تسليط حزبه عليه ، يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ، ويرمونه بالعظائم ؛ ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله .

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور ، ولا بعدوه ، ولا بما يحصنه منه ، فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التى يأتيه منها ، وجيشه الذى يستعين به عليه ، وعرف تداخله ومخارجه ، وكيفية محاربته ، وبأى شىء يحاربه ، وبماذا يداوى جراحته ، وبأى شىء يستمد القوة لقتاله ودفعه . وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم ، فالجاهل فى غفلة وعمى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم ؛ ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده فى القرآن كثيرا جدا ؛ لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها ، وطرق محاربته ومجاهدته ، فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه ، فالعلم هو الذى تحصل به النجاة .

الوجه التاسع والثمانون : أن أعظم الأسباب التى يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ، ولذة النعيم فى الدارين، ويدخل عليه عدو منها: هو الغفلة المضادة للعلم ، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء ، وهما من عدم العلم.

أما الغفلة : فمضادة للعلم منافية له ، وقد ذم ـ سبحانه ـ أهلها ، ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** (٢٠٥) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** ﴾ [الكهف : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾ [الأعراف]. وقال النبى ﷺ فى وصيته لنساء المؤمنين : « لا تغفلن فتنسين الرحمة » (١) . وسئل بعض العلماء عن عشق الصور ، فقال : قلوب غفلت عن ذكر الله ، فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى الشيطان ، فإنه وسواس خناس ، قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس

(١) الترمذى (٣٥٨٣) فى الدعوات ، باب : فى فضل التسبيح والتهليل والتقديس ، وقال : « غريب » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (٦ / ٣٧١) .

والخيالات الباطلة ، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله ،فهو دائما بين الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم : إن المسيح ﷺ سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له ، فإذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه ، فمناه وحدثه وقد روى فى هذا المعنى حديث مرفوع ، فهو دائما يترقب غفلة العبد ، فيبذر فى قلبه بذر الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة ، فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ، ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطى القلب ويعميه .

وأما الكسل : فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة ، وهو مناف للإرادة والعزيمة التى هى ثمرة العلم، فإن من علم أن كماله ونعيمه فى شىء طلبه بجهده ، وعزم عليه بقلبه كله ، فإن كان أحد يسعى فى تكميل نفسه ولذته ، ولكن أكثرهم أخطأ الطريق ؛ لعدم علمه بما ينبغى أن يطلبه ، فالإرادة مسبوقة بالعلم والتصور ، فتخلفها فى الغالب إنما يكون لتخلف العلم والإدراك ، وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد فى هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل فى النهوض إليه ؛ ولهذا استعاذ النبى ﷺ من الكسل ، ففى الصحيح عنه أنه كان يقول :« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ،وضلع الدين وغلبة الرجال »[(١)] . فاستعاذ من ثمانية أشياء ، كل شيئين منها قرينان ،والفرق بينهما أن المكروه الوارد على القلب إما أن يكون على ما مضى أو لما يستقبل . فالأول هو الحزن والثانى الهم . وإن شئت قلت : الحزن على المكروه الذى فات ولا يتوقع دفعه ، والهم على المكروه المنتظر الذى يتوقع دفعه وتأمله .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز ، أو يكون قادرا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل ،وصاحبه يلام عليه مالا يلام على العجز ،وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضا ، فكثيرا ما يكسل المرء عن الشىء الذى هو قادر عليه ، وتضعف عنه إرادته ، فيفضى به إلى العجز عنه ، وهذا هو العجز الذى يلوم الله عليه فى قول النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز »[(٢)] وإلا فالعجز الذى لم تخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه تحت القدرة لا يلام عليه . قال بعض الحكماء فى وصيته : إياك والكسل والضجر ، فإن الكسل لا ينهض لمكرمة ، والضجر إذا نهض إليها لا يصبر عليها ، والضجر متولد عن

(١) البخارى (٦٣٦٣) فى الدعوات ، باب : التعوذ من غلبة الرجال .

(٢) أبو داود (٣٦٢٧) فى الأقضية ، باب : الرجل يحلف على حقه ، وضعفه الألبانى .

الكسل والعجز ، فلم يفرده فى الحديث بلفظ .

ثم ذكر الجبن والبخل ، فإن الإحسان المتوقع من العبد إما بماله وإما ببدنه ، فالبخيل مانع لنفع ماله ، والجبان مانع لنفع بدنه ، والمشهور عند الناس أن البخل مستلزم الجبن من غير عكس ؛ لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل ، والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى قالوه ليس بلازم أكثره ، فإن الشجاعة والكرم وأضدادها أخلاق وغرائز ، قد تجمع فى الرجل ، وقد يعطى بعضها دون بعض . وقد شاهد الناس من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس ، وهذا كثير ما يوجد فى أمة الترك ، يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب ، فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ؛ ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل ، فيبدأ بنفسه دونه ، فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ، ومنهم من يبخل بنفسه ، ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه ، وعكسه ، والأقسام الأربعة موجودة فى الناس .

ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال ، فإن القهر الذى ينال العبد نوعان : أحدهما : قهر بحق وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل وهو غلبة الرجال ، فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم ، واقتبست كنوز العلم والحكمة من ألفاظه .

والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم ، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة ، والكمال كله إلى العلم والعزيمة ، والناس فى هذا على أربعة أضرب :

الضرب الأول : من رزق علما وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل ، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون فى القرآن بقوله : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [العصر : ٣] ،وقوله : ﴿**أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥)**﴾ [ص] ، وبقوله : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة ، وبالنور ينال العلم ، وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل .

الضرب الثانى : من حرم هذا وهذا ، وهم الموصوفون بقوله : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢)** ﴾ [الأنفال] ، وبقوله : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)** ﴾ [الفرقان] ، وبقوله : ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [النمل : ٨٠] ، وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)** ﴾ [فاطر]
وهذا الصنف شر البرية ، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار ، وعند أنفسهم أنهم يعلمون

ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهـم عن الآخـرة هم غافلون ، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم ،وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ، ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ، ولكن بالجبت والطاغوت ، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ،ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ، ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القول ، يبيتون ويدعون ولكن مع الله إلها آخر ، يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لايذكرون ، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ، ويقولون : إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة ، وجلهم إذا فكرت لها حمير أو كلاب أو ذئاب ، وصدق البحترى فى قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر :

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

فى شجر السدر منهم مثل لها رواء وما لها ثمـر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] عالمهم كما قيل فيه :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراح مافى الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ [الجمعة] .

الضرب الثالث : من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل ، فهذا فى رتبة الجاهل أو شر منه . وفى الحديث المرفوع : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . ثبته أبو نعيم وغيره ، فهذا جهله كان خيرا له وأخف لعذابه من علمه ، فما زاده العلم إلا وبالا وعذابا ، وهذا لا مطمع فى صلاحه ، فإن التائه عن الطريق يرجى

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٩٠) فى العلم ، باب : فيمن لم ينتفع بعلمه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط ، صاحب بدعة ، « ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى » .

له العود إليها إذا أبصرها ، فإذا عرفها وحاد عنها عمدا فمتى ترجى هدايته ، قال تعالى : **﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾** [آل عمران] .

الضرب الرابع : من رزق حظا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة ، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم : **﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾** [النساء] رزقنا الله من فضله ، ولا أحرمنا بسوء أعمالنا ، إنه غفور رحيم .

الوجه التسعون : أن كل صفة مدح الله بها العبد فى القرآن فهى ثمرة العلم ونتيجته ، وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته ، فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ، ومدحه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة العلم النافع ،ومدحه بالشكر ، والصبر والمسارعة فى الخيرات ،والحب له ،والخوف منه ، والرجاء ،والإنابة ، والحلم ،والوقار ، واللب والعقل ، والعفة ، والكرم ، والإيثار على النفس ، والنصيحة لعباده ، والرحمة بهم ، والرأفة وخفض الجناح ، والعفو عن مسيئهم ، والصفح عن جانيهم ، وبذل الإحسان لكافتهم ، ودفع السيئة بالحسنة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر فى مواطن الصبر ، والرضا بالقضاء ، واللين للأولياء ، والشدة على الأعداء ، والصدق فى الوعد ، والوفاء بالعهد ، والإعراض عن الجاهلين ، والقبول من الناصحين ، واليقين ،والتوكل ، والطمأنينة ، والسكينة ، والتواصل والتعاطف ، والعدل فى الأقوال والأفعال ، والأخلاق ، والقوة فى أمره ، والبصيرة فى دينه ، والقيام بأداء حقه واستخراجه من المانعين له ، والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته ، والتحذير عن سبيل أهل الضلال ، وتبيين طرق الغى وحال سالكيها ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، والحض على طعام المسكين ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وبذل السلام لكافة المؤمنين ، إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التى أقسم الله ـ سبحانه ـ على عظمها ، فقال تعالى : **﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾** [القلم] . قالت عائشة رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ـ فقالت : كان خلقه القرآن [١] ، فاكتفى بذلك السائل وقال : فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شىء بعدها ، فهذه الأخلاق ونحوها هى ثمرة شجرة العلم .

---

(١) مسلم (٧٤٦ / ١٣٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر ، والفساد ، والشرك ، والظلم ، والبغى ، والعدوان ، والجزع ، والهلع ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والحدة ، والفحش ، والبذاء ، والشح ، والبخل ؛ ولهذا قيل فى حد البخل : جهل مقرون بسوء الظن . ومن ثمرته : الغش للخلق ، والكبر عليهم ، والفخر ، والخيلاء ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والنفاق ، والكذب ، وإخلاف الوعد ، والغلظة على الناس ، والانتقام ، ومقابلة الحسنة بالسيئة ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وترك القبول من النصاحين ، وحب غير الله ورجائه ، والتوكل عليه ، وإيثار رضاه على رضا الله ، وتقديم أمره على أمر الله ، والتماوت عند حق الله ، والوثوق بما عند حق نفسه ، والغضب لها ، والانتصار لها ، فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم بأكثر من حقه ، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله ، فلا قوة فى أمره ، ولا بصيرة فى دينه . ومن ثمرتها : الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى ، واتباع الهوى ، وإيثار الشهوات على الطاعات ، وقيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ووأد البنات ، وعقوق الأمهات ، وقطيعة الأرحام ، وإساءة الجوار ، وركوب مركب الخزى والعار .

وبالجملة ، فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم ، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل ، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر ، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر ، بل كل خير فى العالم فهو من آثار العلم الذى جاءت به الرسل ومسبب عنه ، وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة . وكل شر وفساد حصل فى العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة ، فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل فى العلم والعمل ، ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذى به عمارة الدارين ، وهو الذى أرشد إلى طاعة الرسل ، وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم ، وانقاد لحكمه وعزل نفسه ، وسلم الأمر إلى أهله ، لكفى به شرفا وفضلا . وقد مدح الله ـ سبحانه ـ العقل وأهله فى كتابه فى مواضع كثيرة منه ، وذم من لا عقل له ، وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل ، فهو آلة كل علم ، وميزانه الذى به يعرف صحيحه من سقيمه ، وراجحه من مرجوحه ، والمرآة التى يعرف بها الحسن من القبيح .

قد قيل : العقل ملك ، والبدن روحه وحواسه ، وحركاته كلها رعية له . فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل : من لم يكن عقله أغلب

خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل ، فقال : إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدا منها ، فقال : أخذت العقل ، فقال الدين والحياء : أمرنا ألا نفارق العقل حيث كان ، فانحاز إليه والعقل عقلان : عقل غريزة ، وهو أب العلم ومربيه ومثمره . وعقل مكتسب مستفاد ، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته ، فإذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واستقام له أمره ، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب . وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه ، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما ، ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى ، ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب .

والتحقيق : أن صاحب العقل الغريزى الذى لا علم ولا تجربة عنده ، آفته التى يؤتى منها الإحجام ، وترك انتهاز الفرصة ؛ لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام ، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها ، وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه ، فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه ، فإذا رزق العقل الغريزى عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا ، يظن أربابه أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ، ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم ، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤونة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه ، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة ، فإنه ماذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه ، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله ، والله الموفق المعين .

وفى حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره : « أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل : قل لفلان العابد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، فما عملت فيما لى عليك ؟ قال : وما لك على ؟ قال : هل واليت فى وليا ؟ أو عاديت فى عدوا ؟ »(١) وذكر أيضا : « أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا ، قال : يارب ، إن فيهم فلانا العابد ، قال : به فابدأ ، إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط » .

الوجه الحادى والتسعون : حديث ابن عمر عن النبى ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٤١ ، ٤٢) .

سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم صفوا بهم » [١] . قال عطاء : مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام ، كيف يشترى ويبيع ، ويصوم ويصلى ويتصدق ، وينكح ويطلق ، ويحج . ذكره الخطيب فى كتاب (الفقيه والمتفقه) .

الوجه الثانى والتسعون : ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » [٢] ، وفى رفعه نظر .

الوجه الثالث والتسعون : ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه : « يسير الفقه خير من كثير من العبادة » [٣] ، ولا يثبت رفعه .

الوجه الرابع والتسعون : ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه : « فقيه أفضل عند الله من ألف عابد » [٤] . وهو فى الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا [٥]،وفى ثبوتهما مرفوعين نظر ، والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم .

الوجه الخامس والتسعون : ما رواه أيضا عن ابن عمر يرفعه : « أفضل العبادة الفقه » [٦].

الوجه السادس والتسعون : ما رواه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه : « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين » [٧] .

الوجه السابع والتسعون : ما رواه عن على أنه قال : العالم أعظم أجرا من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله .

الوجه الثامن والتسعون : ما رواه المخلص عن صاعد: حدثنا القاسم بن الفضيل بن بزيع ،حدثنا حجاج بن نصير ،حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفى ،عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة وأبى ذر أنهما قالا :باب من العلم يتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا ،وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل ، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا . وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال

---

(١) الترمذى (٣٥١٠) فى الدعوات ، باب:(٨٣) ، وقال:« حسن غريب » ،وحسنه الألبانى، وأحمد (٣/ ١٥٠) .

(٢) انظر الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤) ، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة (١ / ٢٧٨) .

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤ ، ١٥) .

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٨) .

(٥) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ماجاء فى فضل الفقه على العباد ، وقال : « غريب » ، وقال الألبانى : « موضوع » .

(٦ ، ٧) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ٢١) .

مات شهيدا » [١] . ورواه ابن أبى داود عن شاذان عن حجاج به . قلت : وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » [٢] .

الوجه التاسع والتسعون : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى هريرة قال : لأن أعلم باب من العلم فى أمر أو نهى ، أحب إلى من سبعين غزوة فى سبيل الله . وهذا إن صح فمعناه : أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم ؛ لأن العمل بلا علم فساد أكثر من صلاحه ، أو يريد علما يتعلمه ويعلمه ، فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة ، وهذا لا يحصل فى الغزو المجرد .

الوجه المائة : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى الدرداء : أنه قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة .

الوجه الحادى والمائة : ما رواه عن الحسن قال : لأن أتعلم باب من العلم فأعلمه مسلما ، أحب إلى من أن يكون لى الدنيا فى سبيل الله .

الوجه الثانى والمائة : قال مكحول : ما عبد الله بأفضل من الفقه .

الوجه الثالث والمائة : قال سعيد بن المسيب : ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ، ولكن بالفقه فى دينه . وهذا الكلام يراد به أمران : أحدهما : أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ، ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى : أنها ليست الصوم والصلاة فقط بل الفقه فى دينه من أعظم عباداته .

الوجه الرابع والمائة : قال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد ، والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل . وقد تقدم الكلام فى تفضيل العالم على الشهيد وعكسه .

الوجه الخامس والمائة : قال سفيان بن عيينة : أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء .

الوجه السادس والمائة : قال محمد بن شهاب الزهرى : ما عبد الله بمثل الفقه . وهذا الكلام ونحوه يراد به : أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه فى الدين ، فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل : عليكم بالعلم ، فإن طلبه لله عبادة ، وسيأتى إن شاء الله ذكر كلامه بتمامه . وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه فى

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٦)، وهو ضعيف كشاهده .

(٢) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

الدين ؛ لعلم الفقيه فى دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها ، وكلا المعنيين صحيح .

الوجه السابع والمائة : قال سهل بن عبد الله التسترى : من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء . وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل فى أممهم ووارثوهم فى علمهم ، فمجالسهم مجالس خلافة النبوة .

الوجه الثامن والمائة : أن كثيرا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم . فقال الشافعى: ليس شىء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ،وهذا الذى ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه ،وكذلك قال سفيان الثورى وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة .

وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات : إحداهن : أنه العلم ، فإنه قيل له : أى شىء أحب إليك أجلس بالليل أنسخ أو أصلى تطوعا ؟ قال : نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلى . وذكر الخلال عنه فى كتاب العلم نصوصا كثيرة فى تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، وقد تقدم . والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع ، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » (١) ، وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة فقال :« خير موضوع » (٢) ،وبأنه أوصى من سأله موافقته فى الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة (٣) ،وكذلك قوله فى الحديث الآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ،وحط عنك بها خطيئة » (٤) ،وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة . والرواية الثالثة : أنه الجهاد ، فإنه قال : لا أعدل بالجهاد شيئا ، ومن ذا يطيقه ؟ ولا ريب أن أكثر الأحاديث فى الصلاة والجهاد .

وأما مالك ، فقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : إن أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم ، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك : وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : أنه قرأ القرآن عندنا

---

(١) ابن ماجه (٢٧٩) فى الطهارة ، باب : المحافظة على الوضوء ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف لضعف التابع » ، ومالك فى الموطأ (١ / ٣٤) (٣٦) فى الطهارة ، باب : جامع الوضوء ، وضعفه الألبانى .

(٢) أحمد (٥ / ١٧٨ ، ١٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٦٤ ، ١٦٥) فى العلم ، باب السؤال للانتفاع وإن كثر : « فيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط » ، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٩٧) فى التاريخ ، وقال الذهبى : « السعدى ليس بثقة » ، وسكت عنه الحاكم .

(٣) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٤) مسلم (٤٨٨ / ٢٢٥) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

عدد كذا وكذا . فكتب إليه عمر : أن أفرض لهم من بيت المال ، فلما كان فى العام الثانى كتب إليه : أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك . فكتب إليه عمر : أن امحهم من الديوان ، فإنى أخاف من أن يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين فيتأولوه على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدى مالك بن أنس ، فوضعت ألواحى وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى تركته .

قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة التى فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهى الصلاة والعلم والجهاد ، هى التى قال فيها عمر بن الخطاب ﷺ : لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها : لولا أن أحمل أو أجهز جيشا فى سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر لما أحببت البقاء . فالأول : الجهاد ، والثانى : قيام الليل ، والثالث : مذاكرة العلم ، فاجتمعت فى الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم .

الوجه التاسع والمائة : ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ : أنه قال : « فضل العلم خير من نفل العمل ، وخير دينكم الورع »[1] وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة ﷺ . وفى رفعه نظر ، وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا فلابد منهما كالصوم والصلاة ، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ؛ لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها بصاحبها ؛ ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته ، والعبادة تنقطع عنه ، ولما مر من الوجوه السابقة .

الوجه العاشر بعد المائة : ما رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل ﷺ قال : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يوحد ،وبه يعرف الحلال من الحرام ، وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة وسادة ، يقتدى بهم أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١ / ٩٣) ، ومجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٢٥) فى العلم ، باب : فضل العلم ، وقال: « رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار ، وفيه عبد الله بن عبد القدوس وثقه البخارى وابن حبان ، وضعفه ابن معين » ، وقال ابن الجوزى فى العلل المتناهية رقم (٧٦) : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ » .

خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والعلم حياة القلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، التفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . هذا الأثر معروف عن معاذ ، ورواه أبو نعيم فى المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبى ﷺ ولا يثبت ، وحسبه أن يصل إلى معاذ .

الوجه الحادى عشر بعد المائة : ما رواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبى فديك : حدثنى عمرو بن كثير ، عن أبى العلاء ، عن الحسن ، عن رسول الله ﷺ قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة النبوة » (١) . وقد روى من حديث على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ . وهذا وإن كان لا يثبت إسناده فلا يبعد معناه من الصحة ، فإن أفضل الدرجات النبوة ، وبعدها الصديقية ، وبعدها الشهادة ، وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** (٦٩) ﴾ [النساء] ، فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة .

الوجه الثانى عشر بعد المائة : قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ هى العلم والعبادة ﴿ **وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] هى الجنة ، وهذا من أحسن التفسير ، فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح .

الوجه الثالث عشر بعد المائة : قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه هلاك العلماء ، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ؛ لما يرون من كرامتهم ، وإن أحدا لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم .

الوجه الرابع عشر بعد المائة : قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها .

الوجه الخامس عشر بعد المائة : قال عمر رضي الله عنه : أيها الناس ، عليكم بالعلم ، فإن لله ـ سبحانه ـ رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه ، فإن أذنب ذنبا استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به . قلت : ومعنى استعتاب الله عبده : أن يطلب منه أن يعتبه ، أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة ، فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون

---

(١) الدارمى (١ / ١٠٠) فى العلم ، باب : فضل العلم والعالم .

قد أعتب ربه ، أى أزال عتبه عليه ، والرب تعالى قد استعتبه ؛ أى طلب منه أن يعتبه . ومن هذا قول ابن مسعود ـ وقد وقعت زلزلة بالكوفة : إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه . وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه ـ سبحانه ـ فى الآخرة فى قوله : ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى لا نطلب منهم إزالة عتبنا عليهم ، فإن إزالته إنما تكون بالتوبة وهى لا تنفع فى الآخرة ، وهذا غير استعتاب العبودية كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** (٢٤) ﴾ [فصلت] فهذا معناه : أن يطلبوا إزالة عتبنا عليهم والعفو ﴿ **فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴾ أى ماهم ممن يزال العتب عليهم ، وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة .

الوجه السادس عشر بعد المائة : قال عمر ﷺ : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . ووجه قول عمر : أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده ، وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه .

الوجه السابع عشر بعد المائة : قول بعض السلف : إذا أتى علىَّ يوم لاأزداد فيه علما يقربنى إلى الله ، فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم . وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفعه إليه باطل ، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفى مثله قال القائل : إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما ذلك من عمرى .

الوجه الثامن عشر بعد المائة : قال بعض السلف: الإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم . وقد رفع هذا أيضا ،ورفعه باطل .

الوجه التاسع عشر بعد المائة : إنه فى بعض الآثار : بين العالم والعابد مائة درجة ، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة . وقد رفع هذا أيضا ، وفى رفعه نظر .

الوجه العشرون بعد المائة : ما رواه حرب فى مسائله مرفوعا إلى النبى ﷺ : « يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ، ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ، ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » [1] . وهذا وإن كان غريبا فله شواهد حسان .

الوجه الحادى والعشرون بعد المائة : قول ابن المبارك ـ وقد سئل : من الناس ؟ قال :

---

(١) انظر : الدر المنثور (١ / ٣٥٠) وعزاه للطبرانى ، والترغيب والترهيب للمنذرى (١ / ١٠١) وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : « رواته ثقات » .

العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذى يأكل بدينه .

الوجه الثانى والعشرون بعد المائة : أن من أدرك العلم لم يضره مافاته بعد إدراكه ، إذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ، ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ ، بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه . وفى هذا قال بعض السلف : أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم ! .

الوجه الثالث والعشرون بعد المائة : قال بعض العارفين : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت . وصدق ، فإن العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه ، وحياته موقوفة على ذلك ، فإذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته ، كما أن السكران الذى قد زال عقله ، والخائف الذى قد انتهى خوفه إلى غايته ، والمحب والمفكر قد يبطل إحساسهم بألم الجراحات فى تلك الحال ، فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها ، وهكذا العبد ، إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

فحتام لا تصحو وقد قرب المـــدى — وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحـو حين ينكشف الغطا — وتذكر قولى حين لا ينفع الذكــر

فإذا كشف الغطاء ، وبرح الخفاء ، وبليت السرائر ، وبدت الضمائر ، وبعثر مافى القبور ، وحصل مافى الصدور ، فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين ، والعلم حسرة على الباطلين .

الوجه الرابع والعشرون بعد المائة : قال أبو الدرداء : من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله . وشاهد هذا قول معاذ ، وقد تقدم .

الوجه الخامس والعشرون بعد المائة : قول أبى الدرداء أيضا : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة .

الوجه السادس والعشرون بعد المائة : قوله أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ، وسائر الناس همج لا خير فيهم .

الوجه السابع والعشرون بعد المائة : ما رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له »[(١)] .

---

(١) ابن حبان (٨٧) فى العلم ، باب : ذكر التسوية بين طالب العلم ومعلمه وبين المجاهد فى سبيل الله .

الوجه الثامن والعشرون بعد المائة : ما رواه أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى حلقة ، فأعرض أحدهم ، واستحى الآخر فجلس خلفهم ، وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة ، فقال النبى ﷺ : « أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (١) . فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا .

الوجه التاسع والعشرون بعد المائة : ما رواه كميل بن زياد النخعى قال : أخذ على ابن أبى طالب ؓ بيدى فأخرجنى ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد،القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عنى ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ،ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق وفى رواية :على العمل ـ والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء ،والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة . هاه هاه إن ههنا علما ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو أصبت له حملة بل أصبته لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له فى أحبائه ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ لذلك يموت العلم بموت حامليه . اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه . هاه هاه ، شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك ، إذا شئت فقم . ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره .

---

(١) ابن حبان (٨٦) فى العلم ، باب : ذكر أمان الله جل وعلا من آوى إلى مجلس علم ونيته فيه صحيحة .

قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى ،وأشرفها لفظا ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس فى أوله تقسيم فى غاية الصحة ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التى ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل ؛ إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم ، وطلبه ليس بعالم ولا طالب له ، فالعالم الربانى هو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل فى الوصف له بأنه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الربانى فى اللغة : الرفيع الدرجة فى العلم ، العالى المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : ﴿ **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ** ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وقوله : ﴿ **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ﴾ [آل عمران : ٧٩] . قال ابن عباس : حكماء فقهاء . وقال أبو رزين : فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد : سألت ثعلبا عن هذا الحرف ، وهو الربانى، فقال : سألت ابن الأعرابى : فقال : إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له : هذا ربانى ، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له ربانى .

قال ابن الأنبارى عن النحويين : إن الربانيين منسوبون إلى الرب ، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة فى النسب كما تقول : لحيانى وجبهانى ؛ إذا كان عظيم اللحية والجبهة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه ، والقاصد به نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه ، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها ، والأنفة من مجالسة البهائم . ثم قال: وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث : فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة ، التى هى فى الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل ، التى لا منزلة بعدها فى الجهل ولا دونها فى السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع ، وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق وللناعق الصائح ، وهو فى هذا الموضع الراعى ، يقال : نعق الراعى بالغنم ينعق إذا صاح بها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] .

ونحن نشير إلى بعض مافى هذا الحديث من الفوائد :

فقوله ﷺ :القلوب أوعية : يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادى ؛ لأنه وعاء للخير والشر . وفى بعض الآثار : إن لله فى أرضه آنية وهى القلوب، فخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها ، فهى أوانى مملوءة من الخير وأوانى مملوءة من الشر ،كما قال بعض السلف : قلوب الأبرار تغلى بالبر ، وقلوب الفجار تغلى بالفجور . وفى مثل هذا قيل فى المثل : وكل إناء بالذى فيه ينضح . وقال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ﴾ [الرعد: ١٧]،

شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب فى سعتها وضيقها بالأودية ، فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير ضيق يسع علما قليلا كواد صغير ضيق يسع ماء قليلا ؛ ولهذ قال النبى ﷺ: « لا تسموا العنب الكرم ، فإن الكرم قلب المؤمن » فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره ، والكرم كثيرة الخير والمنافع ، فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة مافيه من الخير والمنافع .

وقوله : « فخيرها أوعاها » : يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ، ويراد به أيضا : أحسنها وعيا ، فيكون حسن الوعى الذى هو إيعاء لما يقال له فى قلبه هو سرعته وكثرته وثباته ، والوعاء من مادة الوعى ، فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ، ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى :﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)** ﴾ [الحاقة] . قال قتادة : أذن سمعت ، وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء : لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتى بعد . فالوعى توصف به الأذن كما يوصف به القلب ، يقال : قلب واع وأذن واعية ؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط . فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب ، فهى بابه ، والرسول الموصل إليه العلم ، كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعى ، وأنها إذا وعت وعى القلب، وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبى ﷺ ولأمته وقول الملك له : « اسمع سمعت أذنك ، وعقل قلبك » [(١)] فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه ، كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب ، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة ، والعقال لما يعقل به ، وعقل الإنسان يسمى عقلا ؛ لأنه يعقله عن اتباع الغى والهلاك ؛ ولهذا يسمى حجرا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ماحواه ، فعقل الشىء أخص من علمه ومعرفته ؛ لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب ، كما تعقل الدابة التى يخاف شرودها .

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض ؛ فأولها الشعور ، ثم الفهم ، ثم المعرفة ،ثم العلم، ثم العقل . ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التى ركبها الله فى الإنسان، فخير القلوب ما كان واعيا للخير ضابطا له ، وليس كالقلب القاسى الذى لا يقبله ، فهذا قلب حجرى ، ولا كالمائع الأخرق الذى يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط . فتفهيم الأول

---

(١) الترمذى (٢٨٦٠) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « حديث مرسل » ، وقال الألبانى: « ضعيف الإسناد » .

كالرسم فى الحجر ، وتفهيم الثانى كالرسم على الماء ، بل خير القلوب ما كان لينا صلبا يقبل بلينه ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته ، فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه .

وقوله : (الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع) : هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع ، فإن العبد إما أن تكون قد حصل كماله من العلم والعمل أو لا ، فالأول العالم الربانى ، والثانى إما أن يكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى إدراكه أولا ، والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة ، الثالث وهو الهمج الرعاع ، فالأول هو الواصل ، والثانى هو الطالب ، والثالث هو المحروم .

والعالم الربانى : قال ابن عباس ﷺ : هو المعلم ، أخذه من التربية ، أى يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير : هو الفقيه العليم الحكيم . قال سيبويه : زادوا ألفا ونونا فى الربانى إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى ، كما قالوا : أشعرانى ولحيانى ، ومعنى قول سيبويه ـ رحمه الله: إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علما .

قال الواحدى : فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب ، أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى .وقال المبرد : الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به ، أى يعلمهم ويصلحهم ، وعلى قوله: فالربانى من رب يرب ربا أى يربيه ، فهو منسوب إلى التربية ، يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربى صاحب المال ماله ، ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] . فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين . قيل : إنه من الربة ـ بكسر الراء ـ وهى الجماعة . قال الجوهرى : الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس ، قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ** ﴾. ولا يوصف العالم بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعلمه معلما له ، فهذا قسم .

والقسم الثانى : متعلم على سبيل نجاة ، أى قاصدا بعلمه النجاة ، وهو المخلص فى تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علمه ، فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة ، فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة ، وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك ، وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ؛ ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه ، وليس حرف على وما عمل فيه متعلقا

بمتعلم إلا على وجه التضمين ، أى مفتش متطلع على سبيل نجاته ، فهذا فى الدرجة الثانية ، وليس ممن تعلمه ليمارى به السفهاء ، أو يجارى به العلماء ، أو يصرف وجوه الناس إليه ، فإن هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضا . قوله ﷺ :« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد رائحة الجنة»(١) . قال : وثبت أيضا قوله ﷺ : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢). فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة ، نعوذ بالله من الخذلان .

القسم الثالث : المحروم المعرض ، فلا عالم ولا متعلم ، بل همج رعاع ، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم ، وأصله من الهمج جمع همجة ، وهو ذباب صغير كالبعوض ، يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها ، فشبه همج الناس به . والهمج أيضا مصدر ، قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع تأكل عتودا أو ثلج

والهمج هنا مصدر ، ومعناه : سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم : همج هامج مثل ليل لايل . والرعاع من الناس : الحمقى الذين لا يعتد بهم .

وقوله : (أتباع كل ناعق) : أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه ، سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال ، فإنهم لا علم لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل ، فهم مستجيبون لدعوته . وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان ، فإنهم الأكثرون عددا ، الأقلون عند الله قدرا ، وهم حطب كل فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتزلها أولو الدين ، ويتولاها الهمج الرعاع . وسمى داعيهم ناعقا تشبيها لهم بالأنعام التى ينعق بها الراعى ، فتذهب معه أين ذهب ، قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (١٧١) ﴾ [البقرة] ، وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم ، فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل ، بل الكل عندهم سواء .

وقوله رضي الله عنه : (يميلون مع كل ريح) وفى رواية : (مع كل صائح) : شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف ، وشبه الأهوية والآراء بالرياح . والغصن يميل مع الريح حيث مالت ، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ، ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة

(١) جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٩٠) .

(٢) سبق تخريجه ص (٢٢٤) .

الكبيرة التى لا تتلاعب بها الرياح . وهذا بخلاف المثل الذى ضربه النبى ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى ، والمنافق كشجرة الأرز التى لا تقطع حتى تستحصد (١) ،فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها ، فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك ، فيقع مرة ويقوم أخرى ، ويميل تارة ويعتدل أخرى ، فيكفر عنه بالبلاء ، ويمحص به ويخلص من كدره . والكافر كله خبث ، ولا يصلح إلا للوقود ، فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة مافى إصابة المؤمن ، فهذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

تزول الجبال الراسيات وقلبه ... على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رضي الله عنه : (لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق) : بين السبب الذى جعلهم بتلك المثابة ، وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الآية [المائدة : ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب ، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل ، فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه ؛ ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك ، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه ، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته ، وقوى قلبه ، وهذان الأصلان هما قطب السعادة ـ أعنى العلم والقوة ـ وقد وصف بهما ـ سبحانه ـ المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)** ﴾ [النجم] ، وقال تعالى فى سورة التكوير : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)** ﴾ [التكوير] ،فوصفه بالعلم والقوة ، وفيه معنى أحسن من هذا ، وهو الأشبه بمراد على رضي الله عنه وهو : أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا بنور العلم ولا لجؤوا إلى عالم

---

(١) مسلم (٢٨٠٩ / ٥٨) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجرة الأرز ، والترمذى (٢٨٦٦) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ .

مستبصر فقلدوه ، ولا متبعين لمستبصر ، فإن الرجل إما أن يكون بصيرا أو أعمى متمسكا ببصير يقوده ، أو أعمى يسير بلا قائد .

وقوله ﷺ :(العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال) : يعنى : أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب ، فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ، ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به ، فهو كمن يأكل طعاما مسموما ، فالعلم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله ، والجاهل به يقتله جهله ، فهذا مثل حراسة العلم للعالم ، وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الأمراض والأسقام ، وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من وساوس الهلاك ، وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ،ومكائده ومداخله على العبد يحرسه علمه من الشيطان وخطراته ، وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه ،فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك ، فعلمه يحرسه من الشيطان ، فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع خاسئا خائبا . وأعظم مايحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان ، فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته ، فمتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه .

قال بعض العارفين : أجمع العارفون على أن التوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك .

وقوله : (العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة) : العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه ، فازداد كثرة وقوة وظهورا ، فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ،ويحصل له به علم مالم يكن عنده ، وربما تكون المسألة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال ، فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت ، وانفتح له منها علوم أخر . وأيضا . فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته ، كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ أنه قال فى حديث طويل : « وإن الله قال لى: أنفق أنفق عليك » (١) . وهذا يتناول نفقة العلم ، إما بلفظه ، وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه . ولزكاء العلم ونحوه طريقان : أحدهما : تعليمه ، والثانى : العمل به ، فإن العمل به أيضا ينميه ويكثره ، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه .

---

(١) مسلم (٩٩٣ / ٣٦) فى الزكاة ، باب : الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف .

وقوله : (المال تنقصه النفقة) : لا ينافى قول النبى ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال » (١) ، فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم فكالقبس من النار ، لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء ، بل يزيد العلم بالاقتباس منه ، فهو كالعين التى كلما أخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينها .

قوله : (محبة العلم أو العالم دين يدان بها) : لأن العلم ميراث الأنبياء، والعلماء ورثتهم ، فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم ، وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم ، فمحبة العلم من علامات السعادة،وبغض العلم من علامات الشقاوة . وهذا كله إنما هو فى علم الرسل الذى جاؤوا به وورثوه للأمة ، لا فى كل ما يسمى علما .

وأيضا ، فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه ، وذلك هو الدين ، وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال ، وأيضا فإن الله ـ سبحانه ـ عليم يحب كل عليم ، وإنما يضع علمه عند من يحبه ، فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به .

قوله : (العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك) : أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ، ويقال: كسبه ذلك عزا وطاعة ، وأكسبه ، لغتان ، ومنه حديث خديجة ﵂ : « إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم » (٢) روى بفتح التاء وضمها ، ومعناه : تكسب المال والغنى ، هذا هو الصواب . وقالت طائفة : من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزا ، ومن رواه بفتحها فمعناه : تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ، ومعاذ الله من هذا الفهم ، وخديجة أجل قدرا من تكلمها بهذا فى هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله ﷺ : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله ، إنك تكسب الدرهم والدينار ، وتحسن التجارة ! ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتر بها فى تفسير كلام الله ورسوله .

والمقصود : أن قوله :(العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته): أى يجعله مطاعا ؛ لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للملوك فمن دونهم ،فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم ، فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته ، قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾** [النساء : ٥٩] ، وفسر أولى الأمر بالعلماء

---

(١) مسلم (٢٥٨٨ / ٦٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : استحباب العفو والتواضع .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) ، ومسلم (١٦٠ / ٢٥٢) فى الإيمان ، باب : بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ .

قال ابن عباس : هم الفقهاء والعلماء أهل الدين ، الذين يعلمون الناس دينهم ، أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد . وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد ، والآية تتناولها جميعا ، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة العلماء كذلك ، فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع فى أهل الأرض من كل أحد ، فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس ، والجاهل فى حياته حى وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم فى وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم فى الناس أموات

وقال آخر :

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا ... فذلك حى وهو فى التراب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه ، كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم ، لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هى الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المتنبى :

ذكر الفتى عيشه الثانى وحاجته ... مافاته وفضول العيش أشغال

قوله : (وصنيعة المال تزول بزواله) : يعنى : أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك ، فإنها هى مراعاة لماله ، فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها ، حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ويسعى فى مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى فى أشعارهم وكلامهم وفى مثل قولهم : من ودك لأمر ملك عند انقضائه ، قاله بعض العرب .

ومن هذا ما قيل : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين . وهذا أمر لا ينكر فى الناس ، حتى إنهم ليكرمون الرجل لثيابه ، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة ، وقال مالك : بلغنى أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب ، فرجع فلبس غير تلك الثياب فأدخل ، فلما وضع الطعام أدخل كمه فى الطعام فعوتب فى ذلك ، فقال : إن هذه الثياب هى التى

أدخلت ، فهى تأكل . حكاه ابن مزين الطليطلى فى كتابه ، وهذا بخلاف صنيعة العلم ، فإنها لا تزول أبدا ، بل كل مآلها فى زيادة ، مالم يسلب ذلك العالم علمه ، وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال ؛ لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح ، فهى صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضا فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته ، وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضا فصنيعة المال صنيعة معاوضة ، وصنيعة العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة . وأيضا فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر ، وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك . وقد يراد من هذا أيضا معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صنيعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده ، وأما من اصطنعت إليه صنيعة علم وهدى ، فإن تلك الصنيعة لا تفارقه أبدا ، بل ترى فى كل وقت ، كأنك أسديتها إليه حينئذ .

وقوله:(مات خازن الأموال وهم أحياء) قد تقدم بيانه ، وكذا قوله : (والعلماء باقون ما بقى الدهر) .

وقوله : (أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة) : المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالى ، أى وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم فى القلوب لا تفارقها ، وهذا هو الوجود الذهنى العلمى ؛ لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم يوجب ألا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم ، فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم ، كما قيل :

ومن عجب أنى أحن إليهـــم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعـى

وقال آخر :

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق ... وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثـــواك فى قلبى فأيـــن تغيب

قوله:(آه ، إن هاهنا علما ـ وأشار إلى صدره): يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به ،ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام :﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ [يوسف] ،فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود ، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم،وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره فى عيونهم ، والأول بكثرة فى قلوبهم وعيونهم ،وإنما الأعمال بالنيات . وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفى بذلك حقا له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه

أطماع السفلة فيه ، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله ، والأحسن فى هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله ، فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير ، وهو فى الغالب مذموم ، لما يقترن به من الفخر والتعاظم .

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة :

أحدهم : من ليس هو بمأمون عليه وهو الذى أوتى ذكاء وحفظا ولكن مع ذلك لم يؤت ذكاء ، فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا ، يستجلبها به ، ويتوسل بالعلم إليها ، ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا ، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ، ولا يجعله الله إماما فيه قط ؛ فإن الأمين هو الذى لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته ، فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه . وهذا الذى قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجرا للدنيا ، قد خان الله ، وخان عباده ، وخان دينه . فلهذا قال : غير مأمون عليه .

وقوله :(يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده) : هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه إستظهر بتلك النعمة على الناس،وإذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله . ومعنى (استظهاره بالعلم على كتاب الله): تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه ، وهذه حال كثير ممن يحصل له علم ، فإنه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ، ويجعل كتاب الله تبعا له، يقال :استظهر فلان على كذا بكذا : أى ظهر عليه به وتقدم ،وجعله وراء ظهره .وليست هذه حال العلماء ، فإن العالم ـ حقا ـ يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه، فيقدمه ويحكمه ،ويجعله عيارا على غيره مهيمنا عليه،كما جعله الله تعالى كذلك،فالمستظهر به موفق سعيد ، والمستظهر عليه مخذول شقى ، فمن استظهر على الشىء فقد جعله خلف ظهره مقدما عليه ما استظهر به ، وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه ، وقدم غيره وأخره .

والصنف الثانى : من حملة العلم المنقاد الذى لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه ، بل هو ضعيف البصيرة فيه ، لكنه منقاد لأهله ، وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم . وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة ، فليسوا من دعاة الدين ، وإنما هم من مكثرى سواد الجيش ، لا من أمرائه وفرسانه .

وقوله : (ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة): هذا لضعف علمه وقلة بصيرته ، إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكا ؛ لأنه

قد رسخ فى العلم فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة . والشبهة وارد يرد على القلب ، يحول بينه وبين انكشاف الحق له ، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه ، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة ، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا . والقلب يتوارده جيشان من الباطل ؛ جيش شهوات الغى ، وجيش شبهات الباطل ، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها ، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها ، فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات ، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه ، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه .

وقال لى شيخ الإسلام ﷺ ـ وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات ، أو كما قال . فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كانتفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل . وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر ، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها . ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد ، نظرا إلى ما عليه من لباس الفضة . والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه ، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذى تحته . وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره ، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا فى كتب الناس ما شاء الله ، وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفى مثل هذا قال أئمة السنة ، منهم الإمام أحمد وغيره : لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت . فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيها وتجسيما ، ومن أثبت ذلك مشبها فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر ، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون

عليه من الألفاظ ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ، ولا تغتر باللفظ . كما قيل فى هذا المعنى :

تقول هذا جنى النحل تمدحـــه وإن نشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه ســوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى : هو حق أو باطل ؟ فجرده من لباس العبارة ، وجرد قلبك عن النفرة والميل ، ثم أعط النظر حقه ، ناظرا بعين الإنصاف ، ولا تكن ممن ينظر فى مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرا تاما بكل قلبه ، ثم ينظر فى مقالة خصومه ، وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة ، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ والناظر بعين المحبة عكسه ، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويـا

وقال آخر :

نظــروا بعين عداوة لــو أنها عين الرضا لا ستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا فى نظر العين الذى يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها ، فما الظن بنظر القلب الذى يدرك المعانى التى هى عرضة المكابرة . والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ، ورد الباطل وعدم الاغترار به .

وقوله :(بأول عارض من شبهة): هذا دليل ضعف عقله ومعرفته ، إذ تؤثر فيه البداآت ،ويستفز بأوئل الأمور ، بخلاف الثابت التام العاقل ، فإنه لا تستفزه البداآت ، ولا تزعجه وتقلقله، فإن الباطل له دهشة وروعة فى أوله ، فإذا ثبت له القلب رد على عقبيه ، والله يحب من عنده العلم والأناة فلا يعجل ، بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ،ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهى الفوت ، فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره ؛ ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن النبى ﷺ : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد » (١) .وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت

(١) النسائى (١٣٠٤) فى السهو ، باب : نوع آخر من الدعاء ، وأحمد ٤ / ١٢٤ ، ١٢٥ ، وضعفه الألبانى .

له ، أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح ، والله ولى التوفيق .

الصنف الثالث : رجل نهمته فى نيل لذته ،فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ،ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ،ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة .قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير:لا ينال العلم براحة الجسم . وقال إبراهيم الحربى : أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ،ومن آثر الراحة فاتته الراحة ، فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء !

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فإن العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة ، فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا ، فإذا صارت شهوته فى العلم ولذته فى كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله . ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلوى فى الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده . وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان ، فإنها تكمل بعد المفارقة ؛ لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها ، فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح ، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو فى العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان ، وأيضا فإن تلك اللذات سريعة الزوال ، وإذا انقضت أعقبت هما وغما ، وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه ، وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه ، لكن يحمله عليه مدواة ذلك الغم والهم ، فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبال عليه والتنعم بذكره ، فهذه هى اللذة الحقيقية .

الصنف الرابع : من حرصه وهمته فى جمع الأموال وتثميرها وادخارها ، فقد صارت لذته فى ذلك وفنى بها عما سواه ، فلا يرى شيئا أطيب له مما هو فيه ، فمن أين هذا ودرجة العلم ؟

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ، ولا من طلبته الصادقين فى طلبه . ومن تعلق منهم بشىء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله ، المدعين لوصاله المبتوتين من حباله . وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون ، فإن الناس

يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ، ويقولون : لسنا خيرا منهم ، ولا نرغب بأنفسنا عنهم ، فهم حجة لكل مفتون ؛ ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وقوله : (أقرب شبها بهم الأنعام السائمة) : وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ﴾ [الفرقان] فما أقصر ـ سبحانه ـ على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . والسائمة : الراعية . وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم فى سعى الدنيا وحطامها ، والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالحمر ، وهذا تشبيه لمن تعلم علما ولم يعقله ولم يعمل به ، فهو كالحمار الذى يحمل أسفارا . وتارة بالكلب ، وهذا لمن انسلخ عن العلم ، وأخلد إلى الشهوات والهوى .

وقوله : (كذلك يموت العلم بموت حامليه) : هذا من قول النبى ﷺ فى حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضي الله عنهم وغيرهما : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال ،ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ،فضلوا وأضلوا » رواه البخارى فى صحيحه (١). فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه : إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب . وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

وقوله :(اللهم بك لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله) : ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ،لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » (٢) . ويدل عليه أيضا مارواه الترمذى عن قتيبة : حدثنا حماد بن يحيى الأبح ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » قال : هذا حديث حسن غريب (٣) . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح ، وكان يقول :هو من شيوخنا . وفى الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن فى أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضا فإن هذه الأمة أكمل الأمم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين لا نبى بعده ، فجعل الله

---

(١) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) مسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) فى الإمارة ، باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » .

(٣) الترمذى (٢٨٦٩) فى الأمثال ، باب : (٦) ، وقال الألبانى: « حسن صحيح » .

العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ؛ لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبى خلفه نبى ، فكانت تسوسهم الأنبياء . والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء فى بنى إسرائيل . وأيضا ففى الحديث الآخر : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) . وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا فى القرون قرنا بعد قرن . وفى صحيح أبى حاتم من حديث الخولانى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فى طاعته ، وغرس الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله » (٢) ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر .

وزاد الكذابون فى حديث على : (إما ظاهرا مشهورا وإما خفيا مستورا) ، وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ، ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابيهم ، والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب ، وحجج الله لا تقوم بخفى مستور لا يقع العالم له على خبر ، ولا ينتفعون به فى شىء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدى به ، ولا خائف يأمن به ، ولا ذليل يتعزز به ، فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ، ولا سيما على أصول القائلين به ، فإن الذى دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا : لابد منه فى اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيا لله العجب ! أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم ؟ ! وأى حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ ! فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل فى تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل فى العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذى فررتم منه وقعتم فى شر منه ، وكنتم فى ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة ، وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، ولقد أحسن القائل :

ما أنا للسرداب أن يلد الذى ... حملتموه بزعمكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

---

(١) كشف الأستار (١ / ٨٦) رقم (١٤٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٤٥) فى العلم ، باب: أخذ الحديث من الثقات : «رواه البزار وفيه عمرو بن خالد القرشى كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع ».

(٢) ابن ماجه (٨) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وأحمد (٤ / ٢٠٠)، وقال الألبانى: « حسن ». .

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فأنتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها ، وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضي الله عنه بأن حامل حجج الله فى الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله رضي الله عنه ، ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة .

وقوله : (لكيلا تبطل حجج الله وبيناته) : أى لكيلا تذهب من بين يدى الناس وتبطل من صدورهم ، وإلا فالبطلان محال عليها ؛ لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان .

وقوله : (أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا) يعنى : هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا ، وهذا سبب غربتهم ، فإنهم قليلون فى الناس ، والناس على خلاف طريقهم ، فلهم نبأ ، وللناس نبأ . قال النبى ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء »(١) . فالمؤمنون قليل فى الناس ، والعلماء قليل فى المؤمنين ، وهؤلاء قليل فى العلماء ، وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فإنهم يقولون : لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ، ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس ، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عددا . قال ابن مسعود : لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم ـ سبحانه ـ الأكثرين فى غير موضع ، كقوله : ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وقال : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** (١٠٣) ﴾ [يوسف] ، وقال : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣) ﴾ [سبأ] ، وقال : ﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ [ص : ٢٤] . وقال بعض العارفين : انفرادك فى طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى وإلا فخاطـــر   واطرق الحى والعيون نواظـر

لا تخف وحشة الطريق إذا سـر   ت وكن فى خفارة الحق سائر

وقوله : (بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم) : وهذا لأن الله ـ سبحانه ـ ضمن حفظ حججه وبيناته ، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة (٢) ، فلا يزال غرس الله الذين غرسهم فى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهَّلهم

---

(١) مسلم (١٤٥ / ٢٣٢) فى الإيمان ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا .

(٢) سبق تخريجه ص (٢٤٩)

الله لذلك وارتضاهم ، فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم ، فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفى الأثر المشهور : لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته ؛ وكان من دعاء بعض من تقدم : اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك . ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة ، إما فى قلوب أمثاله ، وإما فى كتب ينتفع بها الناس بعده ، وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد ، فإن العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقى له ذكره ،وهو عمر ثان وحياة أخرى ، وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ، ورغب فيه الراغبون .

وقوله : (هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون) : الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ، ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق ـ لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم ـ قل سالكوها ، وزاهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم ، وما هيئوا له وهيئ لهم ، فقل علمهم بذلك ، واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى ، وتوعرت عليهم الطريق ، وبعدت عليهم الشقة ، وصعب عليهم مرتقى عقابها ، وهبوط أوديتها ، وسلوك شعابها ، فأخلدوا إلى الدعة والراحة ، وآثروا العاجل على الآجل وقالوا : عيشنا اليوم نقد ، وموعودنا نسيئة ، فنظروا إلى عاجل الدنيا ، وأغمضوا العيون عن آجلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، ولم يتأملوا باطنها ، وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها ، ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع ، واشتغلوا به عن التفكر فى الفطام ومرارة الانقطاع ، وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا فى ذلك :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فى أمته ، فإنهم لكمال علمهم وقوته نفد بهم إلى حقيقة الأمر ، وهجم بهم عليه ، فعاينوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين ، فاطمأنت قلوبهم به ، وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه ، وأسمعهم منادى الإيمان النداء فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ، ورغبوا فيما لديه . علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ومنزل عبور لا مقعد حبور ، وأنها خيال طيف أو سحابة صيف ، وإن من فيها كراكب ، قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها ، وتيقنوا أنها أحلام نوم ، أو كظل زائل :

إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأن واصفها صدق فى وصفها إذ يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجـــوع

أراها وإن كانت تحب فإنـــها سـحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها موليه ، وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق مقبلة ، فامتطوا ظهور العزائم ، وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم . علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود ، فسارعوا فى الجهاز ، وجد بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل ، وطووا المفاوز .

وهذا كله من ثمرات اليقين ، فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عيانا ، زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ؛ ولأن له ما استوعره المترفون . وهذه المرتبة هى أول مراتب اليقين ، وهى علمه وتيقنه ، وهى انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئى للبصر ، ثم يليها المرتبة الثانية وهى :مرتبة عين اليقين ،ونسبتها إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ، ثم تليها المرتبة الثالثة وهى : حق اليقين ،وهى مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام ، فالأولى كعلمك بأن فى هذا الوادى ماء ، والثانية كرؤيته ،والثالثة كالشرب منه .

ومن هذا ما يروى فى حديث حارثة وقول النبى ﷺ : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها. قال:« عبد نور الله قلبه » (١) فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون ، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ، ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف ،وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه،وطمأنينة القلب لأمر الله،والإنابة إلى ذكر الله ومحبته ،والفرح بلقائه، والتجافى عن دار الغرور، كما فى الأثر المشهور : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح ، قيل:وما علامة ذلك ؟ قال:التجافى عن دار الغرور ،والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٦٢) : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » والعقيلى فى الضعفاء الكبير ٤ / ٤٥٥ وقال : ليس لهذا الحديث إسناد يثبت .

للموت قبل نزوله . وهذه هى الحال التى كانت تحصل للصحابة عند النبى ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار ، كما فى الترمذى وغيره من حديث الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسدى ـ وكان من كتاب النبى ﷺ ـ أنه مر بأبى بكر رضي الله عنه وهو يبكى فقال : مالك يا حنظلة فقال : نافق حنظلة يا أبا بكر ، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثير . قال :فوالله ،إنا لكذلك . انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقنا ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « مالك يا حنظلة؟ » قال : نافق حنظلة يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ، ونسينا كثيرا . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ،ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة » . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح [(١)]. وفى الترمذى أيضا نحوه من حديث أبى هريرة .

والمقصود : أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص ، والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ويضعف بضعفه ، والمحب لا يستوعر طريقا توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها .

وقوله : (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ـ وفى رواية : بالمحل الأعلى) : الروح فى هذا الجسد بدار غربة ، ولها وطن غيره ، فلا تستقر إلا فى وطنها ، وهى جوهر علوى مخلوق من مادة علوية ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف ، فهى دائما تطلب وطنها فى المحل الأعلى ، وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها ، وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن، وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلى الأرض ، ونسيت معلمها ووطنها الذى لا راحة لها فى غيره ، فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ، والدنيا سجنه حقا ، فلهذا تجد المؤمن بدنه فى الدنيا ، وروحه فى المحل الأعلى ـ وفى الحديث المرفوع : « إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدى ، بدنه فى الأرض وروحه عندى » [(٢)] رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف . القلوب جوالة ، فقلب حول الحشر ، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش ، فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها فى أعماق البدن ، واشتغالها بملاذه ، وانقطاعها

---

(١) الترمذى (٢٥١٤) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٥٩) ، ورواه مسلم (٢٧٥٠ / ١٢) فى التوبة ، باب : فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ، وابن ماجه (٤٢٣٩) فى الزهد ، باب : المداومة على العمل .

(٢) أحمد فى الزهد ص ٢٨٠ ، وقال ابن حجر فى التلخيص الحبير رقم (١٦٣) : « حديث منقطع » .

عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ، ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب ، فإذا صحت من سكرها ، وأفاقت من غمرتها ، أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب ، فحينئذ تتقطع حسرات على مافاتها من كرامة الله وقربه والأنس به ، والوصول إلى وطنها الذى لا راحة لها إلا فيه ، كما قيل :

صحبتك إذ عينى عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل ، لم تستقر ولم تطمئن إلا فى وطنها ومحلها الذى خلقت له ، كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتـى ... وحنينه أبـدا لأول مـنزل

وإذا كانت الروح تحن أبدا إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى ، وكثيرا ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ، وهى دائما تحن إليه ، مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب فى مفارقته إلى مثله ، فكيف بحنينها إلى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى ، فالعبد المؤمن فى هذه الدار سبى من الجنة إلى دار التعب والعناء ، ثم ضرب عليه الرق فيها ، فكيف يلام على حنينه إلى داره التى سبى منها ، وفرق بينه وبين من يحب ، وجمع بينه وبين عدوه ، فروحه دائما معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا ، ولى من أبيات فى ذلك :

وحى على جنات عـدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل تـرى ... نعـود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنا غيره ، أبت ذلك روحه وقلبه ، كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريبا فى هذه الدار أين حل منها ، فهو فى دار غربة ، كما قال النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[1] ، ولكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه ومنزله ، وإنما الغربة التى لا يرجى انقطاعها فهى غربة فى دار الهوان ، ومفارقة

---

(١) البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق ، باب : قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، والترمذى (٢٣٣٣) فى الزهد ، باب : ما جاء فى قصر الأمل ، وابن ماجه (٤١١٤) فى الزهد ، باب : مثل الدنيا ، وأحمد ٢ / ٢٤ .

وطنه الذى كان قد هيئ وأعد له ، وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه ، فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له ، فتلك غربة لا يرجى إيابها ، ولا يجبر مصابها ، ولا تبادر إلى إنكار كون البدن فى الدنيا والروح فى الملأ الأعلى ، فللروح شأن وللبدن شأن ، والنبى ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه ، فبدنه بينهم ، وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء : إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش ، فإن كان طاهرا أذن لها بالسجود ، وإن لم يكن طاهرا لم يؤذن لها بالسجود . فهذه ـ والله أعلم ـ هى العلة التى أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم . وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم ، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد ، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه فى موضع آخر عند محبوبه ، وفى هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف .

وقوله :(أولئك خلفاء الله فى أرضه،ودعاته إلى دينه)هذا حجة أحد القولين فى أنه يجوز أن يقال :فلان خليفة الله فى أرضه واحتج أصحابه أيضا بقوله تعالى للملائكة : ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة : ٣٠] ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [فاطر : ٣٩] ،وهذا خطاب لنوع الإنسان ، وبقوله تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] ،وبقول موسى لقومه: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)**﴾ [الأعراف] ، وبقول النبى ﷺ : « إن الله ممكن لكم فى الأرض ومستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء » (١) . واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر رضي الله عنه :

خليفة الرحمن إنا معشــر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله فى أموالنا حق الزكـــاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الإطلاق وقالت:لا يقال لأحد أنه خليفة الله؛ فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره ،والله تعالى شاهد غائب ، قريب غير بعيد ، راء وسامع ، فمحال أن يخلفه غيره ، بل هو ـ سبحانه ـ الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته ، كما قال النبى ﷺ فى حديث الدجال :« إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ،وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مؤمن» (٢) والحديث فى

---

(١) مسلم (٢٧٤٢) فى الذكر ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ، والترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب : ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن ، باب : فتنة النساء ، وأحمد ٣ / ١٩ .

(٢) مسلم (٢١٣٧ / ١١٠) فى الفتن وأشراط الساعة ، باب : ذكر الدجال وصفته وما معه .

الصحيح. وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سافر: «اللهم أنت الصاحب فى السفر ،والخليفة فى الأهل والحضر » الحديث(١).
وفى الصحيح : أن النبى ﷺ قال: « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى أهله » (٢) ،فالله تعالى هو خليفة العبد ؛ لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه فى أهله قالوا : ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له : يا خليفة الله . قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ، وحسبى ذلك .

قالوا : وأما قوله تعالى :﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته ، وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله فى الأرض ، قيل : عن الجن الذين كانوا سكانها ، وقيل : عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن ، وقصتهم مذكورة فى التفاسير .

وأما قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣٩] فليس المراد به خلائف عن الله ، وإنما المراد به : أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا ، فكلما هلك قرن خلفه قرن ، إلى آخر الدهر . ثم قيل : إن هذا خطاب لأمة محمد ﷺ خاصة ، أى جعلكم خلائف من الأمم الماضية فهلكوا ، وورثتم أنتم الأرض من بعدهم . ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة ، والمراد نوع الإنسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله ، وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] .

وأما قول موسى لقومه : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] فليس ذلك استخلافا عنه ، وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه ، أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم ، وكذا قول النبى ﷺ : « إن الله مستخلفكم فى الأرض » (٣) أى من الأمم التى تهلك ، وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم .

قالوا : وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق، لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا ؟ ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة أم لا ؟ قلت : إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها ، وإن أريد بالإضافة أن الله

---

(١) مسلم (١٣٤٢ / ٤٢٥) فى الحج ، باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .
(٢) مسلم (٩٢٠ / ٧) فى الجنائز ، باب : فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، وأبو داود (٣١١٨) فى الجنائز ، باب : تغميض الميت .
(٣) سبق تخريجه ص (٢٥٦) .

استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة ، وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره ، وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين : (أولئك خلفاء الله فى أرضه) .

فإن قيل : هذا لا مدح فيه ؛ لأن هذا الاستخلاف عام فى الأمة ، وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .

فالجواب : أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة ، فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده،كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾[الحجر : ٤٢] . ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** ﴾[الفرقان:٦٣] ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له ، فخلفاء الأرض كالعباد فى قوله: ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)** ﴾[آل عمران] ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)** ﴾ [غافر] ، وخلفاء الله فى قوله : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر : ٤٢] ونظائره .

وقوله :(ودعاته إلى دينه): الدعاة جمع داع ، كقاض وقضاة ورام ورماة ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص ، أى الدعاة المخصوصون به ، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة ، وأعلاهم قدرا ، يدل على ذلك :

الوجه الثلاثون بعد المائة : وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)** ﴾ [فصلت] . قال الحسن : هو المؤمن أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته ، فهذا حبيب الله ، هذا ولى الله . فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)** ﴾ [الجن] .

وقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] جعل ـ سبحانه ـ مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة ،وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن . هذا هو الصحيح فى معنى هذه الآية ، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام ،والمجادلة بالتى هى أحسن القياس الجدلى ، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات . وهذا باطل ، وهو مبنى على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] . قال الفراء وجماعة : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوف على الضمير فى ﴿ أَدْعُو ﴾ يعنى : ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو . وهذا قول الكلبى ، قال : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويذكر بالقرآن والموعظة . ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الأنبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ،فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر فى أولاهما أنه يدعو إلى الله وفى الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة ، والقولان متلازمان ،فلا يكون الرجل من أتباعه حقا حتى يدعو إلى مادعا إليه . وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة ، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهى لا تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به وإليه ،بل لابد فى كمال الدعوة من البلوغ فى العلم إلى حد يصل إليه السعى ،ويكفى هذا فى شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام ،والله يؤتى فضله من يشاء .

الوجه الحادى والثلاثون بعد المائة : أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ؛ ولهذا مدح الله ـ سبحانه ـ أهله فى كتابه ، وأثنى عليهم بقوله : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا (١) الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝١١٨ ﴾ [البقرة] ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥ ﴾ [الأنعام] ، وذم من لا يقين عنده فقال : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢ ﴾ [النمل] .

وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى ، عن خيثمة ، عن عبد الله بن مسعود ـ يرفعه : « لا ترضين أحدا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدا على فضله ، ولا تذمن أحدا على مالم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » (٢) . فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نورا ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلأ شكرا لله وذكرا له ، ومحبة وخوفا ، فحى عن بينة . واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها .

---

(١) فى المطبوعة : « كذلك نفصل » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ١٠ / ٢٦٦ (٤ / ١٠٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع(٤ / ٧٤) : « فيه خالد بن يزيد العمرى واتهم بالوضع » .

وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير فى القلب . وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله . وقيل : من علاماته الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون . وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا . قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها ، فإذا كانت مأمورا بها فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة ، فالعلم أول درجات اليقين ؛ ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك ، فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين ، قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن : ١١] . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم ؛ فلهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه .

الوجه الثانى والثلاثون بعد المائة : ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس ابن مالك ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) . وهذا وإن كان فى سنده حفص بن سليمان وقد ضعف ، فمعناه صحيح ، فإن الإيمان فرض على كل واحد ، وهو ماهية مركبة من علم وعمل ، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل .

ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها ، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهل تمكن عبادة الله ـ التى هى حقه على العباد كلهم ـ إلا بالعلم ؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه ؟ ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان .

ضرب منه فرض عين ، لا يسع مسلما جهله ، وهو أنواع :

النوع الأول : علم أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الإيمان ، ولا يستحق اسم المؤمن ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وقال :

---

(١) أبو يعلى فى مسنده (٢٨٣٧) ، والحديث رواه أيضا ابن ماجه (٢٢٤) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وقال البوصيرى فى مصباح الزجاجة ١/ ٣٠ : « هذا إسناد ضعيف ؛ لضعف حفص بن سليمان » ، وصححه الألبانى .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦) ﴾ [النساء] . ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » قال : صدقت (١) . فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام ، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة ، التى اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف] فهذه محرمات على كل واحد ، فى كل حال ، على لسان كل رسول ، لا تباح قط ؛ ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقا ، وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره ، كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما ، والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته ، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات مِنْ تعلم أحكام البياعات، كالواجب على من لا يبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه .

وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب ، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول : اعتقاد وفعل وترك ، فالواجب فى الاعتقاد مطابقته للحق فى نفسه ، والواجب فى العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمر وإباحة ، والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله ، وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب ، فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان .

وأما فرض الكفاية : فلا أعلم فيه ضابطا صحيحا ، فإن كل أحد يدخل فى ذلك ما يظنه فرضا ،فيدخل بعض الناس فى ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة ،وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها ، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين ، وبناه على

(١) البخارى (٥٠) فى الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ومسلم (٩ / ٥) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

عدم صحة إيمان المقلد ، وكل هذا هوس وخبط ، فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله ـ فياسبحان الله ! هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما ، حاسبا مهندسا ، أو حائكا ، أو فلاحا ، أو نجارا ، أو خياطا ، فإن فرض الكفاية كفرض العين فى تعلقه بعموم المكلفين ، وإنما يخالفه فى سقوطه بفعل البعض ، ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم ، فإنه ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر ، بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم ، فيجب على كل أحد أن يكون حسابا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا ، فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك : إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا ، لأن فرض الكفاية يجب على العموم .

وأما المنطق : فلو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها ، فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده ، وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ فى فكره ، ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ، ومناقضة كثير منه للعقل الصريح . وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجبا من فساد أصوله وقواعده ، ومباينها لصريح المعقول ، وتضمنها لدعاو محضة غير مدلول عليها ، وتفريقه بين متساويين ، وجمعه بين مختلفين ، فيحكم على الشىء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم ، أو يحكم على الشىء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به . قال : إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شىء من ذلك ، فأفكر فيه ثم قال : هذا علم قد صقلته الأذهان ، ومرت عليه من عهد القرون الأوائل ـ أو كما قال ـ فينبغى أن نتسلمه من أهله ، وكان هذا من أفضل ما رأيت فى المنطق . قال : إلى أن وقفت على رد متكلمى الإسلام عليه ،وتبيين فساده وتناقضه ، فوقفت على مصنف لأبى سعيد السيرافى النحوى فى ذلك ،وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم ، كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى عبد الجبار ، والجبائى وابنه ، وأبى المعالى ، وأبى القاسم الأنصارى ، وخلق لا يحصون كثرة ، ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الإشكال ومخالفتها ، ما كان ينقدح لى كثير منه . ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ فإنه أتى فى كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب ، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم ، فقلت فى ذلك :

واعجبا لمنطق اليونان ... كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان ... ومفسد لفطرة الإنسان

مضطرب الأصول والمبانى   على شفا هار بناه البانى
أحوج ما كان إليه العانى   يخونه فى السر والإعلان
يمشى به اللسان فى الميدان   مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتوانى   كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمئ الحيرانى   فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن   فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران   يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر فى الأمانى   وعاين الخفة فى الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة ، فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علما تعلمه فرض كفاية أو فرض عين . وهذا الشافعى وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم ، لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ؟ وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا ؟ بل هم كانوا أجل قدرا وأعظم عقولا من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين ، وما دخل المنطق على علم إلا أفسده ، وغير أوضاعه ، وشوش قواعده .

ومن الناس من يقول : إن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعانى والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية ؛ لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول : تعلم أصول الفقه فرض كفاية؛ لأنه العلم الذى يعرف به الدليل ومرتبته ، وكيفية الاستدلال .

وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول ، فليس وجوبها عاما على كل أحد ولا فى كل وقت ،وإنما يجب وجوب الوسائل فى بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص ، بخلاف الفرض الذى يعم وجوبه كل أحد ، وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام ،فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب مالا يتم الواجب إلا به ، ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه ، دون المسائل التى هى فضلة لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها . فلا يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق ، إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها ، وكذلك أصول الفقه القدر الذى يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التى هى فضلة ، فكيف يقال : إن تعلمها واجب ؟ ! وبالجملة ، فالمطلوب الواجب من

العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شىء منها ، كان ذلك الشىء واجبا وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقـف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان ، فليس لذلك حد مقدر ، والله أعلم .

الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة : ما رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ربه عن ست خصال ، كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها قال : يا رب ، أى عبادك أتقى ؟ قال : الذى يذكر ولا ينسى ، قال : فأى عبادك أهدى ؟ قال : الذى يتبع الهدى ، قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال : الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه ، قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه ، قال : فأى عبادك أعز ؟ قال : الذى إذا قدر عفا ، قال : فأى عبادك أغنى ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص »(١) . فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم ، فهو يجمع علم الناس إلى علمه ؛ لنهمته فى العلم وحرصه عليه . ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله ،وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن ، وأكرم الخلق على الله فى زمانه ،وأعلم الخلق . فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له ، فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة ، وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخضر فى قوله : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف] فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك ، وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدا . فهذا النبى الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله ، صلوات الله وسلامه عليه .

الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته ، وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به ، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ؛ ولذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه . فكمال العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ؛ ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران] ، فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته، وإذا فعل

---

(١) ابن حبان (٦١٨٤) .

فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات ، فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده ، وهو دائما بين سراء يشكر الله عليها ، وضراء يصبر عليها ، فهو سائر إلى الله دائما فى نومه ويقظته .

قال بعض العلماء : الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى،والحمقى عباداتهم عادات .

وقال بعض السلف حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم ، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله ،وإن سكت سكت لله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله،فهو لله وبالله ومع الله ،ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها،ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم ، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ،ولأنه فى نفسه صفة كمال ، بل حاجته إليه كحاجته إلى مابه قوام نفسه وذاته ؛ ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين[1] لمريديهم بالعلم وطلبه ، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح ،حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة .

قال ذو النون ـ وقد سئل : من السفلة ؟ فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرفه .

وقال أبو يزيد :و نظرتم إلى الرجل ـ وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء ـ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى،وحفظ الحدود ،ومعرفة الشريعة.

وقال أبو حمزة البزاز : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله .

وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد : ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس : صنف لا يعملون بما يعلمون ، وصنف يعملون بما لا يعلمون ، وصنف لا يعملون ولا يعلمون ، وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت :

الصنف الأول : من له علم بلا عمل فهو أضر شىء على العامة ، فإنه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة .

---

(١) العارف بالله عند المحققين من علماء السنة : يراد به من يزهد الناس فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة ويحببهم فى الله تعالى ورسوله وعمل الخيرات،على الإخلاص ووفق الاتباع،لا الابتداع ،على خلاف ما يعتقده كثير من أدعياء التصوف بلا علم حيث العارف عندهم من يتوسل به إلى الله تعالى ولو كان قد مات منذ زمن أو يقدس فى حياته ويعظم بما يضعه بما لا يليق بالبشر. والله أعلم .

والصنف الثانى : العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله ، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله : (احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة) .

والصنف الثالث : الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة .

والصنف الرابع : نواب إبليس فى الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين ، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه .

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف ـ رحمة الله عليه ـ وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة . وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته ، إنه بعباده خبير بصير ، ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم . فعاد الخير بحذافيره إلى العلم وموجبه ، والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه .

الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه ،وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه ،وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة ، قال تعالى: **﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) ﴾** [الانعام] ،وقد قيل : إن هؤلاء القوم هم الأنبياء ، وقيل : أصحاب رسول الله ﷺ ،وقيل : كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه ، كقول من قال :هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار ، أو قوم من أبناء فارس ، وقال آخرون : هم الملائكة . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم فى الآيات قبل هذه الآية . قال : وذلك أن الخبر فى الآيات قبلها عنهم مضى وفى التى بعدها عنهم ذكر ، فما يليها بأن يكون خبرا عنهم أولى وأحق بأن يكون خبرا عن غيرهم ، فالتأويل : فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها ، فقد استحفظناها ، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ، ولا يكذبون بها ، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها .

قلت : السورة مكية ،والإشارة بقوله **﴿ هَؤُلاءِ ﴾** إلى من كفر به من قومه أصلا ومن

عداهم تبعا ، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة . والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا والمؤمنون بهم تبعا ، فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها . ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعا ، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه فى أمته وورثته ، فهم الموكلون بها ، وهذا ينتظم فى الأقوال التى قيلت فى الآية .

وأما قول من قال : إنهم الملائكة ، فضعيف جدا ، لا يدل عليه السياق ، وتأباه لفظة (قوما) ، إذ الغالب فى القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببنى آدم دون الملائكة .

وأما قول إبراهيم لهم : ﴿ **قَوْمٌ مُنكَرُونَ** ﴾ فإنما قاله لما ظنهم من الإنس ، وأيضا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ؛ ولهذا لو أظهر ذلك وقيل : فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة ، فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها ، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم ، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها ، والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء .

وأيضا ، فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها ، وأنه لا ضيعة عليها ، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ، ويرعونها ويذبون عنها . فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا ، فإن لها أهلا ومستحقا سواهم . فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته ، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها ، والمسارعة إلى قبولها ، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم ، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين ، وما تحته من احتقارهم وازدرائهم ، وعدم المبالاة والاحتفال بهم ، وإنكم وإن تؤمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨)** ﴾ [الإسراء] .

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده ، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره ، فنظر إليهم وقال : إن يكفر هؤلاء نعمى ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى ، فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم ، تطيعون أمرى وتحفظون عهدى ، وتؤدون حقى ، فإن عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية ، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم ، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان .

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها ،والقيام بحقوقها ،ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها ، كما يوكل الرجل غيره بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه و(بها)

الأولى متعلقة بوكلنا ، و (بها) الثانية متعلقة بكافرين ، والباء فى (بكافرين) لتأكيد النفى .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين : إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال: ولى الله .

قلت : لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق ، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال : خليفة الله لقوله : ﴿ **وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ١٢٩] وقوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [النور : ٥٥] ،فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم : إنه خليفة الله ؛ لأنه استخلاف مقيد . ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . ولكن يسوغ أن يقال : هو وكيل بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا** ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

والمقصود : أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها ، وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . وأيضا ، فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة ، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه؛ ولهذا قال بعض السلف : (فقد وكلنا بها قوما) يقول : رزقناها قوما . فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها : أنه وكيل لله . وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالاة ، فإنها المحبة والقرب ، فكما يقال : عبد الله وحبيبه ، يقال : وليه ، والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه ، وجبرا له ورحمة ، بخلاف المخلوق فإنه يوالى المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته ، وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة ، قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)** ﴾ [الإسراء] ، فلم ينف الولى نفيا عاما مطلقا ، بل نفى أن يكون له ولى من الذل ، وأثبت فى موضع آخر أن له أولياء بقوله : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)** ﴾ [يونس] ، وقوله: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر ، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ، يوضح هذا :

الوجه السادس والثلاثون بعد المائة : وهو ما روى عن النبى ﷺ من وجوه متعددة أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) ، فهذا الحمل المشار إليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية ، فأخبر ﷺ أن العلم الذى جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

لا يضيع ويذهب ، وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحملة العلم الذى بعث به ، وهو المشار إليه فى قوله :« هذا العلم » ، فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وأن يكون عدلا ؛ ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء . ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح ، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوى وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ ؛ ولهذا لا يقبل قدح بعضهم فى بعض ، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه ، كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين ، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم ، فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ، ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة ، فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك ، بل هو عدل مؤتمن على الدين ، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه فإن هذا لا ينافى العدالة كما لا ينافى الإيمان والولاية .

الوجه السابع والثلاثون بعد المائة : أن بقاء الدين والدنيا فى بقاء العلم ، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين ، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم . قال الأوزاعى : قال ابن شهاب الزهرى : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب : أخبرنى يزيد عن ابن شهاب قال : بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله .

الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة : أن العلم يرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما ، فالعلم يزيد الشريف شرفا ، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك ، كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى الطفيل : أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على أهل مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . فقال : من ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى، فقال : إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض ، فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » (١) .

قال أبو العالية : كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش ، فيأخذ بيدى فيجلسنى معه على السرير فتغامز بى قريش ، ففطن لهم ابن عباس فقال : كذا هذا العلم ،

---

(١) مسلم (٢٦٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

يزيد الشريف شرفا ، ويجلس المملوك على الأسرة .

وقال إبراهيم الحربى : كان عطاء بن أبى رباح عبدا أسود لامرأة من مكة ، وكان أنفه كأنه باقلاة ، قال : وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه : قوما ، فقاما . فقال : يا بنى ،لا تنيا فى طلب العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود . قال الحربى : وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل فى بدنه ، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان ، فقالت أمه : يا بنى ، لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به ، فعليك بطلب العلم، فإنه يرفعك . فولى قضاء مكة عشرين سنة . قال : وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم ، قال : ومرت به امرأة وهو يقول : اللهم اعتق رقبتى من النار ، فقالت له: يا ابن أخى ، وأى رقبة لك ؟

وقال يحيى بن أكثم : قال الرشيدى : ما أنبل المراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ،قال : فتعرف أجل منى ؟ قلت : لا ، قال : لكنى أعرفه ، رجل فى حلقة يقول: حدثنا فلان ، عن فلان ، عن رسول الله ﷺ . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ وولى عهد المؤمنين ؟ قال : نعم ويلك ، هذا خير منى لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ ، لا يموت أبدا ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقى الدهر .

وقال خيثمة بن سليمان : سمعت أبى الخناجر يقول : كنا فى مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه ، فمر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس ، وفى المجلس ألوف ، فالتفت إلى أصحابه وقال : هذا الملك .

وفى تاريخ بغداد للخطيب : حدثنى أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد قال : سمعت الحسن بن على المقرى يقول : سمعت أبا الحسن بن فارس يقول : سمعت الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى ، فكان الطبرانى يغلب بكثرة حفظه ، وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته ، وزكا أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابى : عندى حديث

ليس فى الدنيا إلا عندى ، فقال هاته ، فقال :حدثنا أبو خليف ، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث . فقال الطبرانى : أنبأنا سليمان بن أيوب ، ومنى سمع أبو خليفة ، فاسمع من حتى يعلو إسنادك ، فإنك تروى عن أبى خليفة عنى . فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى . قال ابن العميد : فوددت فى مكانى أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى ، وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث ، أو كما قال .

وقال المزنى : سمعت الشافعى يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل مقداره ، ومن تعلم اللغة رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقد روى هذا الكلام عن الشافعى من وجوه متعددة .

وقال سفيان الثورى : من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم . وقال عبد الله بن داود : سمعت سفيان الثورى يقول : إن هذا الحديث عز ، فمن أراد به الدنيا وجدها ، ومن أراد به الآخر وجدها .

وقال النضر بن شميل : من أراد أن يشرف فى الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى دين الله ، ويكون بين الله وبين عباده . وقال حمزة بن سعيد المصرى : لما حدث أبو مسلم اللخمى أول يوم حدث قال لابنه : كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ؟ قال : ثلاثمائة دينار ، قال : فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا أن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته . وفى (كتاب الجليس والأنيس) لأبى الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى : حدثنا محمد بن الحسين بن دريد ، حدثنا أبو حاتم عن العتبى عن أبيه قال : ابتنى معاوية بالأبطح مجلسا ، فجلس عليه ومعه ابنه قرظة ، فإذا هو بجامعة على رحال لهم ، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلنى يساجل ماجدا ... يملأ الدلو إلى عقد الكرب

قال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن جعفر ، قال : خلوا له الطريق ، ثم إذا هو بجامعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكـــرننى أبصرننى ... عند قيد الميل يسعى بى الأغر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم ... قد عرفناه وهل يخفى القمـر

قال : من هذا ؟ قالوا : عمر بن أبى ربيعة ، قال : خلوا له الطريق فليذهب ، قال : ثم إذا هو بجماعة ، وإذا فيهم رجل يسأل ، فيقال له : رميت قبل أن أحلق ، وحلقت

قبل أن أرمى ، فى أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج ، فقال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال : هذا وأبيك الشرف ، هذا والله شرف الدنيا والآخرة .

وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

وقال سهل التسترى : من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، يجيء الرجل فيقول : يافلان ، أيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته . ويجيء آخر فيقول : حلفت بكذا وكذا ، فيقول : ليس يحنث بهذا القول . وليس هذا إلا لنبى أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة : أن النفوس الجاهلة التى لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والإزراء عليها ، والتنقص بها أسرع منه إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام . قال الأعمش : إنى لأرى الشيخ لا يروى شيئا من الحديث فاشتهى أن ألطمه . وقال معاوية : سمعت الأعمش يقول : من لم يطلب الحديث أشتهى أن أصفعه بنعلى . وقال هشام بن على : سمعت الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له،فإنه من شيوخ القمراء. قال أبو صالح : قلت لأبى جعفر : ما شيوخ القمراء ؟ قال : شيوخ دهريون يجتمعون فى ليالى القمر ، يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة . وقال المزنى : كان الشافعى إذا رأى شيخا سأله عن الحديث والفقه ، فإن كان عنده شيء وإلا قال له : لا جزاك الله خيرا عن نفسك ولا عن الإسلام ، قد ضيعت نفسك ، وضيعت الإسلام .

وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمه ، فأذن له وغطى الرقعة ، فلما جلس قال له : ياعم ، هل قرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : هل كتبت شيئا من السنة ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى الفقه واختلاف الناس ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى العربية وأيام الناس ؟ قال : لا ، قال : فقال الخليفة : اكشف الرقعة . ثم أتم اللعب ، وزال احتشامه وحياؤه منه ، وقال له ملاعبه : يا أمير المؤمنين ، تكشفها ومعنا من تحتشم منه ، قال : اسكت فما معنا أحد .

وهذا لأن الإنسان إنما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم ، فإذا عدم ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهى الحيوانية البهيمية ، ومثل هذا لا يستحى منه الناس ، ولا يمنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم .

الوجه الأربعون بعد المائة : أن كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم أن غير بضاعته خير منها زهد فى بضاعته ، ورغب فى الأخرى ، وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم ، فإنه ليس يحب أن له بحظه منها حظ أصلا . وكان سفيان الثورى إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيرا .

قال أبو جعفر الطحاوى : كنت عند أحمد بن أبى عمران ، فمر بنا رجل من بنى الدنيا ، فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة ، فقال لى : كأنى بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا ، قلت له : نعم ، قال : هل أدلك على خلة ؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول إليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش هو عالما فقيرا ؟ فقلت : ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده ، فالعلم غنى بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال ، وفى ذلك قيل :

العلم كنز وذخـــــر لا نفاد لــه ... نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يحـــــرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحـــربا
وجامع العلم مغبوط به أبـــــدا ... ولا يحاذر منه الفـــوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن بــه درا ولا ذهبـــا

الوجه الحادى والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه يجزى على الإحسان بالعلم ، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء . أما المقام الأول ففى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)** ﴾ [الزمر] ، وهذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى ، وأما المقام الثانى ففى قوله تعالى : ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)** ﴾ [يوسف] . قال الحسن : من أحسن عبادة الله فى شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه ، وذلك قوله : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)** ﴾ [القصص] . ومن هذا قال بعض العلماء : تقول الحكمة : من التمسنى فلم يجدنى فليعمل بأحسن ما يعلم ، وليترك أقبح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفنى .

الوجه الثانى والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض ، فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر ، فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه : يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله تعالى يحيى

القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بوابل المطر ؛ ولهذا فإن الأرض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات ، فإذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه ، وأما العلم فيحتاج إليه بعدد الأنفاس ، ولا تزيده كثرته إلا صلاحا ونفعا .

الوجه الثالث والأربعون بعد المائة : أن كثيرا من الأخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طالب العمل كالملق ، وترك الاستحياء والذل ، والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة : جاء فى الحديث : ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم . وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس : ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار ، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لى ، ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه .

وقال أبو إسحاق : قال على : كلمات لو رحلتم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحيى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحيى إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد ، وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان .

ومن كلام بعض العلماء : لا ينال العلم مستحى ولا متكبر ، هذا يمنعه حياؤه من التعلم ، وهذا يمنعه كبره ، وإنما حمدت هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق تحصيله ، فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن : من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله ، فاقطعوا سرابيل الحياء ، فإنه من رق وجهه رق عمله . وقال الخليل : منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه : قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان . وقال إبراهيم لمنصور : سل مسألة الحمقى ، واحفظ حفظ الأكياس ، وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل ، وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم ، فإنه عين كماله ومروءته وعزه . كما قال بعض أهل العلم : خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل : إذا جلست إلى عالم فسل تفقها لا تعنتا .

وقال رؤبة بن العجاج : أتيت النسابة البكرى فقال : من أنت ؟ قلت : أنا ابن العجاج . قال : قصرت وعرفت ، لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى ، وإن تكلمت لم يعوا عنى . قلت : أرجو ألا أكون كذلك . قال : ما أعداء المروءة ؟ قلت : تخبرنى قال : بنو عم السوء ، إن رأوا حسنا ستروه ، وإن رأوا سيئا أذاعوه . ثم قال : إن العلم آفة ونكدا وهجنة ، فآفته نسيانه ، وهجنته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابى :

مـا أقـرب الأشيـاء حين يسوقها ... قـدروا بعـدها إذا لـم تقـدر
فسل الفقـيه تكـن فقيهـا مـثله ... مـن يسـع فـى علـم بـذل يمهر
فتدبـر العلـم الـذى تفتـى بـه ... لا خـير فـى علـم بغـير تدبـر
ولقـد يجـد المـرء وهـو مقصر ... ويخيـب جـد المرء غـير مقصر
ذهـب الرجـال المقتـدى بفعالهم ... والمنكـرون لـكـل أمـر منكـر
وبقـيت فـى خلـف يزين بعضهم ... بعضـا ليدفـع معـور عـن معور

وللعلم ست مراتب :

أولها : حسن السؤال .

الثانية : حسن الإنصات والاستماع .

الثالثة : حسن الفهم .

الرابعة : الحفظ .

الخامسة : التعليم .

السادسة ـ وهى ثمرته : وهى العمل به ومراعاة حدوده .

فمن الناس من يحرمه لعدم سؤاله ، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شىء وغيره أهم إليه منه ، كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ، ويدع مالا غنى له عن معرفته . وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين . ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته ، فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات ، وهذه آفة كامنة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم ، وهى تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم .

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال : من كان حسن الفهم ردىء الاستماع ، لم يقم خيره بشره . وذكر عبد الله بن أحمد فى (كتاب العلل) له قال : كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس ، فكان يخزن علمه عنه ، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جريج : لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء إلا برفقى به . وقال بعض السلف : إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول . وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** (٣٧) ﴾ [ق] .

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم ، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى ؟ وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها ؟ فإنه ـ سبحانه ـ أمر

عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة ، بما تكون تذكرة لمن كان له قلب ، فإن من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له ، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات ، فإنه يراها ، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين : أحدهما : أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه. فإن كان غائبا عنه مسافرا فى الأمانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به ، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه .

وهاهنا ثلاثة أمور : أحدها : سلامة القلب وصحته وقبوله . الثانى : إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق . الثالث : إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر . فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة فى هذه الآية . قال ابن عطية : القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله ، والمعنى : لمن كان له قلب واع ينتفع به . قال : وقال الشبلى : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين . وقوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته فى سمعه ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أى أثبتها عليك ، وقوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو شاهد مقبل على الأمر ، غير معرض عنه ولا مفكر فى غير ما يسمع . قال : وقال قتادة : هى إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه قال : إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر ، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها ؛ لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بنى إسرائيل . قال : فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة ، وعلى التأويل الثانى من الشهادة . وقال الزجاج : معنى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : ٣٧] : من شرف قلبه إلى التفهم ، ألا ترى أن قوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : ١٨] أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد ، فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع

ومعنى ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع ، والعرب تقول : ألق إلىَّ سمعك : أى استمع منى ، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أى : قلبه فيما يسمع ، وجاء فى التفسير : أنه يعنى به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبى ﷺ فالمعنى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] : أشاهد أن صفة النبى ﷺ فى كتابه ، وهذا هو الذى حكاه ابن عطية عن قتادة ، وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أى مخبر . وقال صاحب الكشاف : لمن كان له قلب واع ؛ لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع الإصغاء ، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ : أى حاضر بفطنته ؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، أو هو مؤمن شاهد

على صحته وأنه وحى من الله ، وهو بعض الشهداء فى قوله : ﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وعن قتادة : وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده ، فلم يختلف فى أن المراد بالقلب الواعى ، وأن المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على المذكر ، وتفريغ سمعه له .

واختلف فى الشهيد على أربعة أقوال ، أحدها : أنه من المشاهدة وهى الحضور ، وهذا أصح الأقوال ، ولا يليق بالآية غيره . الثانى : أنه شهيد من الشهادة ، وفيه على هذا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه شاهد على صحة مامعه من الإيقان ، الثانى : أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة ، الثالث : أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة .

والصواب القول الأول ، فإن قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ جملة حالية والواو فيها واو الحال ، أى ألقى السمع فى هذه الحال ، وهذا يقتضى أن يكون حال إلقائه السمع شهيدا ، وهذا هو من المشاهدة والحضور ، ولو كان المراد به الشهادة فى الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى ، إذ يصير الكلام : إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه فى التوراة ، أو حال كونه شاهدا يوم القيامة . ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضا فالآية عامة فى كل من له قلب وألقى السمع ، فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبى ﷺ . وأيضا فالسورة مكية ، والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ، ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع ، فكيف يقال : هى فى أهل الكتاب ؟

فإن قيل : المختص بهم قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ فهذا أفسد وأفسد ؛ لأن قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع ، فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولا ولا دلالة فى اللفظ عليه ؟ وأيضا، فإن المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه ، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به ، إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه ، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور ، فإنه لا يقتضى مفعولا مشهودا به ليتم الكلام بذكره وحده . وأيضا ، فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين ؛ أحدهما : من كان له قلب ، والثانى : من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب ، فهو حاضر القلب ، شاهده لا غائبه . وهذا ـ والله أعلم ـ سر الإتيان بأو دون الواو ؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

أحدهما : ذو القلب الواعى الزكى ، الذى يكتفى بهدايته بأدنى تنبيه ، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع زكى ، قابل للهدى غير معرض عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ؛ لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه مكتوبا فيه ، فهو قد أدركه مجملا ، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا ، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل ، كما هى حال الصديق الأكبر رضي الله عنه .

والنوع الثانى : من ليس له هذا الاستعداد والقبول ، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه ، وأحضر قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله . وهذه طريقة أكثر المستجيبين ، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها . والأولون هم الذين يدعون بالحكمة ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة ، فهؤلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتى هى أحسن ، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة . فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد . ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام ، متناولة لها كلها ، كما قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب : هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق ، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة ، فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق ، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد : من ليست له هذه القوة ـ فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته ، وإصغاؤه إليه ألا يزيغ فى فكره . وفسر قوله : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ : أنها القياس البرهانى ، و ﴿ **وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ : القياس الخطابى ، و ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ : القياس الجدلى . فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ، ولا أحد من أئمة التفسير ، بل ولا من تفاسير المسلمين ، وهو تحريف لكلام الله تعالى ، وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان . وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن ، وينزلونه على مذاهبهم الباطلة ، والقرآن برىء من ذلك كله ، منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات . وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التى نحن فيها والآية الأخرى فى موضع آخر من وجوه متعددة ، وبينا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا ، وأنه

يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك ، وبالله التوفيق .

والمقصود : بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها : ترك السؤال . الثانى : سوء الانصات وعدم إلقاء السمع . الثالث : سوء الفهم . الرابع : عدم الحفظ . الخامس : عدم نشره وتعليمه ، فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه ، جزاء من جنس عمله ، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود . السادس : عدم العمل به ، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه ، فإذا أهمل العمل به نسيه .

قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضا : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا ارتحل ، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته ، وترك العمل به إضاعة له ، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ، وأما قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فليس من هذا الباب ، بل هما جملتان مستقلتان ، طلبية وهى الأمر بالتقوى ، وخبرية وهى قوله تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ أى : والله يعلمكم ما تتقون ، وليست جوابا للأمر بالتقوى ، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول : واتقوا الله يعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم ، كما قال : ﴿ **إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ [الأنفال : ٢٩] فتدبره .

الوجه الرابع والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين العالم وغيره ، كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب ، وبين الأعمى والبصير ، وبين النور والظلمة ، وبين الظل والحرور ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبين الأبكم العاجز الذى لا يقدر على شىء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وبين المؤمنين والكفار ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض ، وبين المتقين والفجار . فهذه عشرة مواضع فى القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف ، وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة ، والظل من الحرور ، والطيب من الخبيث ، ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله ، وهذا كاف فى شرف العلم وأهله ، بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها وجدت نفى التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه ، فبه وقع التفضيل ، وانتفت المساواة .

الوجه الخامس والأربعون بعد المائة : أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابا شديدا أو يذبحه ، إنما نجا منه بالعلم ، وأقدم عليه فى خطابه له بقوله : ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ [النمل : ٢٢] خبرا . وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم ، وإلا فالهدهد مع

ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة : أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال : لا أعلمها ، فقال : أحد تلامذته : أنا أعلم هذه المسألة . فغضب الأستاذ وهم به ، فقال له : أيها الأستاذ ، لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت فى العلم ما بلغت ، ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ فلم يعتب عليه ولم يعنفه .

الوجه السادس والأربعون بعد المائة : أن من نال شيئا من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم . وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة ، واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التى تلقاها من ربه . وما حصل ليوسف من التمكين فى الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به ، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التى توصل إليها بالعلم ، كما أشار إليها ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف] جاء فى تفسيرها : نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم . وقال فى إبراهيم ﷺ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة ، والأول رفعة بعلم السياسة . وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه فى السؤال ، حتى قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ [الكهف] . وذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ولذلك قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل]. وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾ [الأنبياء]. وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه. وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

الوجه السابع والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ ﴾ [النحل] فهذه أربع أنواع من الثناء ، افتتحها بأنه أمة ، والأمة هو القدوة الذى يؤتم به .

قال ابن مسعود : والأمة المعلم للخير . وهى فعلة من الائتمام كقدوة ، وهو الذى يقتدى به .

الثانى : قوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ : قال ابن مسعود : القانت المطيع ، والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : قوله : ﴿ حَنِيفًا ﴾ : والحنيف المقبل على الله ، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ : والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان : الأقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها فى مرضاته ، والعمل فيها بما يجب . فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة . والمقصود : أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه ، وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم ، والعمل بموجبه، ودعوة الخلق إليه .

الوجه الثامن والأربعون بعد المائة : قوله ـ سبحانه ـ عن المسيح أنه قال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم] . قال سفيان بن عيينة : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ : قال : معلما للخير ، وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه ، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه ، وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ؛ ولهذا سمى ـ سبحانه ـ كتابه مباركا ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ [ص : ٢٩] . ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم : ٣١] فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله .

الوجه التاسع والأربعون بعد المائة : مافى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم فى الصحيح [(١)] . وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته ، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به ، فكأنه حى لم ينقطع عمله ، مع ماله من حياة الذكر والثناء، فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية . وخص النبى ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى

---

(١) مسلم (١٦٣١ / ١٤) فى الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته .

الميت لأنه سبب لحصولها ، والعبد إذا باشر السبب الذى يتعلق به الأمر والنهى يترتب عليه مسببه ، وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه ، فلما كان هو السبب فى حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع ، جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه ، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه . وقد ذكر تعالى هذين الأصلين فى كتابه فى سورة براءة فقال : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١٢٠) ﴾ [التوبة] ، فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم ، وإنما المقدور لهم أسبابها التى باشروها ، ثم قال : ﴿ **وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٢١) ﴾ [التوبة] ، فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم ، وقال فى القسم الأول : ﴿ **كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ إلا أن المتولد حاصل عن شيئين : أفعالهم وغيرها ، فليست أفعالهم سببا مستقلا فى حصول المتولد بل هى جزء من أجزاء السبب ، فيكتب لهم فى ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم .

وأيضا ، فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ، ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح . وأما القسم الآخر : وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح ، فيكتب لهم نفسه ، إذ هو مقدور لهم ، حاصل بإرادتهم وقدرتهم ، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها ، وبالله التوفيق .

الوجه الخمسون بعد المائة : ماذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال : إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب ، فيقول : ادخلوا الجنة على ما كان فيكم ، إنى لم أجعل علمى فيكم إلا لخير أردته بكم . قال ابن عبد البر : وزاد غيره فى هذا الخبر : أن الله يحبس العلماء يوم القيامة فى زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يدعو العلماء فيقول : يامعشر العلماء ، إنى لم أضع حكمتى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، قد علمت أنكم تخلطون من المعاصى ما يخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم ، وإنما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ، ادخلوا الجنة بغير حساب . ثم قال : لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى . قال وروى نحو هذا المعنى بإسناد متصل مرفوع . وقد روى حرب الكرمانى فى مسائله نحوه مرفوعا ، وقال إبراهيم : بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة ، وسيئاته فى الكفة الأخرى ، فتشيل حسناته ، فإذا يئس فطن أنها النار جاء شىء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته . قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟ فيقول : لا ، فيقال: هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك .

فإن قيل : فقواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم ، وأنه يغفر له مالا يغفر للعالم ، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل ، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل ، وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبى بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فأرتعها فى مراتع الهلكات ، وتجرأ على انتهاك الحرمات ، واستخف بالتبعات والسيئات ، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس فى مرتبته ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** (٣٠) ﴾ [الأحزاب] ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر ، ومما يدل على هذا : الحديث المشهور الذى أثبته أبو نعيم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . قال بعض السلف : يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب . وقال بعضهم أيضا : إن الله يعافى الجهال ما لا يعافى للعلماء ؟

فالجواب : إن هذا الذى ذكرتموه حق لا ريب فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضا : أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه لا يحمل (٢) أدنى خبث . ومن هذا قول النبى ﷺ لعمر : « وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٣) . وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين ، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرا ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة فى جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبى ﷺ على الصدقة ، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال : «ماضر عثمان ما عمل بعدها » (٤) . وقال لطلحة ـ لما تطأطأ للنبى ﷺ حتى صعد على

(١) الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٩٠) وقال : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ، ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : « يحمل » بالإثبات .

(٣) البخارى (٣٩٨٣) فى المغازى ، باب : فضل من شهد بدرا ، ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم .

(٤) الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب ، باب : فى مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقال الترمذى : « حسن غريب من هذا الوجه » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد ٥ / ٦٣ .

ظهره إلى الصخرة : « أوجب طلحة » (١) . وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ، ألقى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسرى فى النبى ﷺ وقال : شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبى الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئا عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذى قام به موسى ، والعدو الذى برز له ، والصبر الذى صبره والأذى الذى أوذيه فى الله ، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تعير فى وجهه ، ولا تخفض منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس ، مستقر فى فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ، حتى أنه ليختلج داعى عقوبته على إساءته ، وداعى شكره على إحسانه ، فيغلب داعى الشكر لداعى العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحـــد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا ... فأفعاله اللاتى سررن كثيـر

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة ـ الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعى طبعهم أحيانا من العفو والمسامحة ـ مالا يفعله مع غيرهم .

وأيضا ، فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة ، وتدارك الفارط ، ومداواة الجرح . فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه ، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل .

وأيضا ، فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه ، وإزرائه على نفسه بارتكابه ، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ، ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره ، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره ، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية ، فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب فى هذا الموضع ، وبه يتبين أن الأمرين حق ، وأنه لا منافاة بينهما ، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ، ويضعف تأثيرها ، ويزيل أثرها ، فعاد القبح فى الموضعين إلى

---

(١) الترمذى (٣٧٣٨) فى المناقب ، باب : مناقب طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وأحمد ١ / ١٦٥ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤١٧) : « إسناده صحيح » .

الجهل وما يستلزمه ، وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه ، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله ، وبالله التوفيق .

الوجه الحادى والخمسون بعد المائة : أن العالم مشتغل بالعلم والتعليم ، لا يزال فى عبادة . فنفس تعلمه وتعليمه عبادة . قال ابن مسعود : لا يزال الفقيه يصلى ، قالوا : وكيف يصلى ؟ قال : ذكر الله على قلبه ولسانه . ذكره ابن عبد البر . وفى حديث معاذ مرفوعا وموقوفا : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح . وقد تقدم ، والصواب أنه موقوف .

وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا : لأن تغدو فتتعلم بابا من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة . وهذا لا يثبت رفعه .

وقال ابن وهب : كنت عند مالك بن أنس ، فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظر فى العلم بين يديه ، فجمعت كتبى وقمت لأركع ، فقال لى مالك : ما هذا ؟ فقلت : أقوم إلى الصلاة ، فقال : إن هذا لعجب ، ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيه النية . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة .

وقال سفيان الثورى : ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية .

وقال رجل للمعافى بن عمران : أيما أحب : الليل أقوم أصلى إليك كله أو أكتب الحديث ؟ فقال : حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره . وقال أيضا : كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة .

وقال ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ،وفى مسائل إسحاق ابن منصور ، قلت لأحمد بن حنبل : قوله : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىَّ من إحيائها أى علم أراد ؟ قال : هو العلم الذى ينتفع به الناس فى أمر دينهم . قلت : فى الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا ؟ قال : نعم . قال إسحاق : وقال لى إسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد .

وقال أبو هريرة : لأن أجلس ساعة فأتفقه فى دينى ، أحب إلى من إحياء ليلة إلى الصباح.

وذكر ابن عبد البر من حديث أبى هريرة يرفعه :« لكل شىء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه ، وما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين » [1] الحديث ، وقد تقدم .

وقال محمد بن على الباقر : عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد ، وقال أيضا :

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١ / ٢٦ .

رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد . ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح ، كان من أفضل الأعمال ، ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة .

الوجه الثانى والخمسون بعد المائة : مارواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقى فى ماله ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأحسن المنازل عند الله . ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو يخبط فى ماله ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله . ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الوزر سواء » حديث صحيح ، صححه الترمذى والحاكم وغيرهما [١] .

فقسم النبى ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام : خيرهم من أوتى علما ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . ويليه فى المرتبة من أوتى علما ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء ، فذلك إنما كان بالنية ، وإلا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة ، والعالم الذى لا مال له إنما ساواه فى الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث : من أوتى مالا ولم يؤت علما فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله ؛ لأن ماله طريق إلى هلاكه ، فلو عدمه لكان خيرا له ، فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة ، فجعله زادا له إلى النار . الرابع : من لم يؤت مالا ولا علما ، ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله ، فهذا يلى الغنى الجاهل فى المرتبة ، ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها ، وهو القول الذى لم يقدر على غيره . فقسم السعداء قسمين ، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما . وقسم الأشقياء قسمين ، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه ، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته .

الوجه الثالث والخمسون بعد المائة : ما ثبت عن بعض السلف أنه قال : تفكر ساعة

(١) الترمذى (٢٣٢٥) فى الزهد ، باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الألبانى، وأحمد ٤ / ٢٣١ .

خير من عبادة ستين سنة . وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته ، فقالت : كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل . وكان سفيان كثيرا ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] قال : أمنعهم التفكر فيها . وقال بعض العارفين : لوطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عين .وقال الحسن : طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة . وقال وهب : ما طالت فكرة أحد قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه ـ وقد رآه مفكرا : أين بلغت ؟ قال : الصراط وقال بشر : لو فكر الناس فى عظمة الله ما عصوه . وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة ، وتحيى القلوب . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به . وقال الحسن : إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . ومن كلام الشافعى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة . وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

وأيضا ، فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها فى الخير والشر ، ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها ، والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه ، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة ، فيشتغل به دون الأول ، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس ، والخيال الذى هو مركبها ، بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه ، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة

صحيحة ، وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة .

وكذلك إذا فكر فى عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها ، وعلم مراتبها ، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته ، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته ، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللذة والفرحة ، ومن فكر فى ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه ، وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها ، حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام ، التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها ، وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها ، وسهل عليه معاناتها ، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة ، وكذلك إذا فكر فى منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره ، استحى من عقله ونفسه أن يكون عبدا لذلك ، كما قيل :

لو فكر العاشق فى منتهى   حسن الذى يسبيه لم يسبه

وكذلك إذا فكر فى آخر الأطعمة المفتخرة التى تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام ، وما يصير أمرها إليه عند خروجها ، ارتفعت همته عن صرفها إلى الاعتناء بها ، وجعلها معبود قلبه الذى إليه يتوجه ، وله يرضى ويغضب ، ويسعى ويكدح ، ويوالى ويعادى ، كما جاء فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا ، وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير »[(١)] أو كما قال ﷺ . فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره ، وكانت نفسه حرة أبية ، ربأ بها أن يجعلها عبدا لما آخره أنتن شىء وأخبثه وأفحشه .

إذا عرف هذا ، فالفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثال ذلك : إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين ، أثمر له ذلك علما ثالثا وهو : أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة ، ثم له فى معرفة الآخرة حالتان :

إحداهما : أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ، ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة . وهذا حال أكثر الناس ، فيتجاذبه داعيان : أحدهما داعى العاجلة وإيثارها ، وهو أقوى الداعيين عنده ؛ لأنه مشاهد له محسوس . وداعى الآخرة ، وهو أضعف الداعيين عنده ؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ، ولا

---

(١) أحمد ٥ / ١٣٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٩١) : « رجاله رجال الصحيح غير عتى ، وهو ثقة » .

كافحه حقيقته العلمية ، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوما لمظنون ، أو متحققا لموهوم ، فلسان الحال ينادى عليه : لا أدع ذرة منقودة لذرة موعودة . وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسعى لها سعيها ، وهى من ضعف العلم بها وتيقنها ، وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ؛ ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ، ثم قيل له : إنه مسموم ، فإنه لا يقدم عليه ؛ لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرة على لذة أكله ، فما بال الإيمان بالآخرة ! لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب ، وعدم استقرارها فيه . وكذلك إذا كان سائرا فى طريق فقيل له : إن بها قطاعا ولصوصا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه ، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين : إما ألا يصدق المخبر ، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم ، وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه ، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم ، فإنه لا يسلكها ، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك ، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة ، لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبدا .

الحالة الثانية : أن يتيقن ويجزم جزما لا شك فيه بأن له دارا غير هذه الدار ، ومعادا له خلق ، وإن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ، ومنزل من منازل السائرين إليه ، ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم ثم ينزعها ، فالذى تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها ، وأن يسعى لها سعيها، وهذا يسمى تفكرا وتذكرا ، ونظرا وتأملا ، واعتبارا وتدبرا واستبصارا . وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء ، وتتفرق فى آخر .

ويسمى تفكرا ؛ لأنه استعمال الفكرة فى ذلك وإحضاره عنده . ويسمى تذكرا ؛ لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** (٢٠١) ﴾ [الأعراف] . ويسمى نظرا ؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه . ويسمى تأملا ؛ لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه . ويسمى اعتبارا ، وهو افتعال من العبور ؛ لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهى المقصود من الاعتبار ؛ ولهذا يسمى عبرة ، وهى على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة ، إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ**

لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ [النازعات] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ [النور] .
ويسمى تدبرا ؛ لأنه نظر فى إدبار الأمور وهى أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبر القول .
وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] ، وتدبر الكلام أن ينظر فى أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين . وسمى استبصارا ، وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة .

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر ، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة ، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب . فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ؛ ولهذا قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ، فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه . كما قال بعض السلف : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها . فالمذاكرة بها لقاح العقل ، فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر ، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر ، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم ، فإن كل من علم شيئا من المحاب أو المكروه لابد أن يبقى لقلبه حالة ، وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . فهاهنا خمسة أمور : الفكر ، وثمرته العلم ، وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب ، وثمرة ذلك الإرادة ، وثمرتها العمل . فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

فالفكر هو الذى ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة ، فأصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات ، والعزوم فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له ، وفيما أمر به ، وفيم هيئ له وأعد له من النعيم

المقيم أو العذاب الأليم ، لم يجد لبذره موضعا ، وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا فارغا فتمكنا

فإن قيل : فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره فى الخير والشر ، فما متعلقه الذى ينبغى أن يوقع عليه ويجرى فيه ، فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذى يقع الفكر فيه وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال .

قيل : مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور :

أحدها : غاية محبوبة مرادة الحصول .

الثانى : طريق موصلة إلى تلك الغاية .

الثالث : مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول .

الرابع : الطريق المفضى إليها الموقع عليها ، فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة ، وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والأمانى الباطلة ، كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر ، وهو يأخذ ويعطى ، وينعم ويحرم . وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك ، وهو يتصرف فى البلاد والرعية ، ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التى من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل ، فالأفكار الردية هى قوت الأنفس الخسيسة التى هى فى غاية الدناءة ، فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ، ثم لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ، ووساوس وأمراضا بطيئة الزوال .

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التى ذكرناها ، فله أيضا محلان ومنزلان : أحدهما : هذه الدار والآخر: دار القرار ، فأبناء الدنيا الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة فى هذه الدار ، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت ، ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة ، تبين الرابح من المغبون ، وخسر هنالك المبطلون . وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها ، ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول :

كل طالب لشىء فهو محب له ، مؤثر لقربه ، ساع فى طريق تحصيله ، متوصل إليه بجهده . وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التى يحب لأجلها ، وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ، ففكره فى حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان ، فكلما قويت محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى

يستغرق أجزاء القلب ، فلا يبقى فيه فضل لغيره ، بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله فى حضرة محبوبه ، فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعا لمحبته ، فهو أسعد المحبين به ، وقد وضع الحب موضعه ، وتهيأت نفسه لكمالها الذى خلقت له ، والذى لا كمال لها بدونه بوجه . وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة الملاشية التى تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها ، فقد وضع المحبة فى غير موضعها ، وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه ، وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها .

وإذا عرف هذا ، عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه ، فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة ، وهى مضرة عليه فى حياته وبعد موته ، والمحب الذى قد ملك المحبوب أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ، ثم فكره فى محبوبه لا يخرج عن حالتين : إحداهما : فكرته فى جماله وأوصافه . والثانية : فكرته فى أفعاله وإحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته .

وإن تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضا عن حالتين : إما أن يفكر فى أوصافه المسخوطة ، التى يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه ، فهو دائما يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها . والثانية : أن يفكر فى الصفات والأخلاق والأفعال التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها . فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها ، والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره ، فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود ـ سبحانه ـ وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها ، وما يمنع من السير فيها إليه .

فتفكره فى صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له ، وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور : أحدها : أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف به أم لا ؟ والثالث : إذا كان متصفا به فما طريق دفعه والعافية منه ، وإن لم يكن متصفا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه ؟

وكذلك الفكرة فى الصفة المحبوبة تستدعى ثلاثة أمور : أحدها : أن هذه الصفة هل هى محبوبة لله مرضية له أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف بها أم لا ؟ الثالث : أنه إذا كان متصفا بها فما طريق حفظها ودوامها ، وإن لم يكن متصفا بها فما طريق اجتلائها والتخلق بها ؟ ثم فكرته فى الأفعال على هذين الوجهين أيضا سواء ، ومجارى هذه الأفكار

ومواقعها كثيرة جدا لاتكاد تنضبط : و إنما يحصرها ستة أجناس : الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصى الظاهرة والباطنة ، والصفات والأخلاق الحميدة ، والأخلاق والصفات الذميمة .

فهذه مجارى الفكرة فى صفات نفسه وأفعالها . وأما الفكرة فى صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والإقرار والتعطيل ، وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام .

ومجارى هذه الفكرة تدبر كلامه وما تعرف به ـ سبحانه ـ إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله ، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغى له ولا يليق به ـ سبحانه ـ وتدبر أيامه وأفعاله فى أوليائه وأعدائه التى قصها على عباده ، وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، ويستدلوا بها على أنه على كل شىء قدير ، وأنه بكل شىء عليم ، وأنه شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، وأنه العزيز الحكيم ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة ، والعدل والمصلحة ، لا يخرج شىء منها عن ذلك . وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه ، والنظر فى آثار أفعاله .

وإلى هذين الأصلين ندب عباده فى القرآن فقال فى الأصل الأول : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [النساء : ٨٢] ، ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [ص : ٢٩] ، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)** ﴾ [يوسف] ، ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)** ﴾ [فصلت] . وقال فى الأصل الثانى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس : ١٠١] ، ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)** ﴾ [الجاثية] ، ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [الروم : ٩] ، ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [الروم : ٤٢] ، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ**

أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم] .

ونوع ـ سبحانه ـ الآيات فى هذه السور ، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم ؛ لاشتراكهم فى العلم بذلك ، وظهوره ووضوح دلالته ، وجعل خلق الأزواج التى تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون ، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة ، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التى صدر عنها ذلك ، دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذى أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته .

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف فى المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون ، وهو سمع الفهم ، وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له ، مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم ، وقيامهم من قبورهم ، كما أحياهم ـ سبحانه ـ بعد موتهم وأقامهم للتصرف فى معاشهم . فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه ، واستدل بهذه الآية عليه .

وجعل إراءتهم البرق ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون ، فإن هذه أمور مرتبطة بالأبصار ، مشاهدة بالحس ، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله ، استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها . وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل ، فإن الحس دل على الآية ، والعقل دل على ما جعلت له آية ، فذكر ـ سبحانه ـ الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم] فتبارك الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور .

وبالجملة ، فلا شىء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر ، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين ، وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر ، وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكماله ، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه . فلو علم الناس مافى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم

الآية إلى الصباح . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح ، وهى قوله : ﴿ **إن تُعذِّبهم فإنَّهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم** (١١٨) ﴾ [المائدة] [١] . فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ، ولهذا قال ابن مسعود : لاتهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب . لايكن هم أحدكم آخر السورة . وروى أبو أيوب عن أبى جمرة قال : قلت لابن عباس : إنى سريع القراءة، إنى أقرأ القرآن فى ثلاث . قال : لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها، أحب إلىَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ .

والتفكر فى القرآن نوعان : تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه ، وتفكر فى معانى ما دعا عباده إلى التفكر فيه ، فالأول تفكر فى الدليل القرآنى ، والثانى تفكر فى الدليل العيانى . الأول تفكر فى آياته المسموعة ، والثانى تفكر فى آياته المشهودة ؛ ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به ، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه . قال الحسن البصرى : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا [٢] .

فصل

من منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « العلم » .

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه ، فسلوكه على غير طريق . وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح ، مغلقة عنه أبوابها . وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ، ونواب إبليس وشُرطه .

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد ـ رحمه الله [٣] : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

---

(١) النسائى (١٠١٠) فى الافتتاح ، باب : ترديد الآية ، وابن ماجه (١٣٥٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما جاء فى القراءة فى صلاة الليل ، وحسنه الألبانى .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٨ ـ ١٨٧) .

(٣) الجنيد هو الإمام القدوة المحدث ، شيخ الصوفية ، الفقيه الفاضل ، والمحدث الصدوق (٤٦٦ ـ ٥٤٧) رحمه الله تعالى .سير أعلام النبلاء (١٥ / ٧٦) ط / دار الفكر .

وقال أبو حفص ـ رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يعد فى ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله : ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة .

وقال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ـ طاعة كان أو معصية ـ فهو عيش النفس . وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء : فهو عذاب على النفس .

وقال السرى: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه،ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب،ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد: عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ،واختلاف العلماء رحمة ،إلا فى تجريد التوحيد .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

وقال : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء . ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله . ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟

وقال أحمد بن أبى الحوارى ـ رحمه الله : من عمل عملا بلا اتباع سنة ، فباطل عمله .

وقال أبو عثمان النيسابورى ـ رحمه الله : الصحبة مع الله : بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ : باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم ، ومع أولياء الله : بالاحترام والخدمة ، ومع الأهل : بحسن الخلق ، ومع الإخوان : بدوام البشر ، مالم يكن إثما ، ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة .

زاد غيره : ومع الحَافِظَين (١) : بإكرامهما واحترامهما ،وإملائهما ما يحمدانك عليه ،

(١) يقصد الملكين الحَافَظين ، فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ق] .

ومع النفس : بالمخالفة ، ومع الشيطان : بالعداوة .

وقال أبو عثمان أيضا : من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا : نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا : نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور : ٥٤]

وقال أبو الحسين النورى : من رأيتموه يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه .

وقال محمد بن الفضل البامجى من مشايخ القوم الكبار : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما يعملون ويمنعون الناس من التعلم والتعليم .

وقال عمرو بن عثمان المكى: العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك، جموح خداعة رواغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل .

وقال ابن عطاء : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

وألقى بُنان الحمال[1] بين يدى السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أخرج قيل له: ما الذى كان فى قلبك حين شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر السباع .

وقال أبوحمزة البغدادى : من أكابر الشيوخ ، وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل: ماتقول ياصوفى ؟ من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله وأقواله وأفعاله .

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطى يوم الجمعة إلى الجامع ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل صيدلانى. فقال: تدرى لم انقطع شسع نعلى؟ فقلت: لا . فقال: لأنى ما اغتسلت للجمعة . فقال: ههنا حمام تدخله ؟ فقال : نعم . فدخل واغتسل .

(١) هو بُنان الحمّال ، الإمام المحدث الزاهد ، شيخ الإسلام أبو الحسن بن محمد بن حمدان بن سعيد الواسطى . السير (١١ / ٤٣٨) ط / دار الفكر .

وقال أبو إسحاق الرقى ـ من أقران الجنيد : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة رسوله ﷺ .

وقال أبو يعقوب النهرجورى : أفضل الأحوال : ماقارن العلم .

وقال أبو القاسم النصراباذى ـ شيخ خراسان فى وقته : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم كرامات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

وقال أبو بكر الطمستانى ـ من كبار شيوخ الطائفة : الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم ؛ لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله : فهو الصادق المصيب .

وقال أبو عمرو بن نجيد : كل حال لا يكون عن نتيجة علم ، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه . وقال : التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهى .

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول : يامعشر الصوفية ، لاتفارقوا السواد فى البياض تهلكوا (١) .

فصل
ومن فضائل العلم

به تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمام ، والعمل مأموم . وهو قائد ، والعمل تابع . وهو الصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة ، والأنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لافقر على من ظفر بكنزه ، والكنف الذى لاضيعة على من آوى إلى حرزه .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام . والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٤ ـ ٤٦٨) .

وروينا عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك رضي الله عنه ، فوضعت ألواحى وقمت أصلى . فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجَلّ مشهود به وهو « التوحيد » ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته . وفى ضمن ذلك تعديلهم ، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل المبطلين » (١) .

وهو حجة الله فى أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ومدنيهم من كرامته .

ويكفى فى شرفه : أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، وحتى النمل فى جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طلب العلم هو وفتاه ، حتى مسهما النصب فى سفرهما فى طلب العلم ، حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] .

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة ، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة . فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدى عليه صيدها من الأعمال شيئا ، والله سبحانه وتعالى أعلم (٢) .

فصل
ومن أسباب شرح الصدور

العلم ، فإنه يشرح الصدر يوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٧٠ ، ٤٧١) .

والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل علم ، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ ، وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا (١) .

فصل
فى تهذيب الأخلاق بالعلم

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع (٢) .

فصل
فى بيان فضل العالم

فإن قيل : قد ذكرتم : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره ، ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه . وكذلك العالم أيضا ، يغفر له مالا يغفر للجاهل ، كما روى الطبرانى بإسناد جيد ـ مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن الله ـ سبحانه ـ إذا جمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، قال للعلماء : إنى كنت أعبد بفتواكم ، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس ، وإنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » (٣) هذا معنى الحديث . وقد روى مسندا ومرسلا .

فهذا الذى ذكرتم صحيح ، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم مايكره ؟ كقوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)** ﴾ [الإسراء] أى : لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشىء ، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٢٤) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٧٦) .

(٣) الطبرانى فى الصغير (٥٩١) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣١) : « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف جدا »، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٨٦٨) : « ضعيف جدا » .

الممات ؛ أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة . وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾ [الحاقة] أى : لو أتى بشىء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه ، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه . وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه ، ومن التقول عليه سبحانه . وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به ، كأرباب البدع كلهم ، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه .

فالجواب: أن هذا أيضا حق ، ولا تنافى بين الأمرين . فإن من كملت عليه نعمة الله ، واختصه منها بما لم يختص به غيره : فى إعطائه منها ما حرمه غيره ، فحبى بالإنعام ، وخص بالإكرام . وخص بمزيد التقريب ، وجعل فى منزلة الولى الحبيب ، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص : بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع . فلشدة الاعتناء به ، ومزيد تقريبه ، واتخاذه لنفسه ، واصطفائه على غيره ، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ، ونعمه عليه أكمل ، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره . فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البرانى ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضا . فيجتمع فى حقه الأمران .

وإذا أردت معرفة اجتماعهما ، وعدم تناقضهما ، فالواقع شاهد به . فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم ، ويأخذهم ، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم . وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا ، ولا تناقض بين الأمرين .

وأنت إذا كان لك عبدان ، أو ولدان ، أو زوجتان ، أحدهما : أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك ، وأعز عليك : عاملته بهذين الأمرين ، واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك ، وحبك له ، وعزته عليك . فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه ، وإتمام نعمتك عليه : اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه ، من التنبيه وعدم الإهمال . وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك ، وطاعته وخدمته ، وكمال عبوديته ونصحه : وهبت له وسامحته ، وعفوت عنه ، بما لا تفعله مع غيره . فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه .

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع ، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا : الرجم ، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد . وكذلك ضاعف الحد على الحر الذى قد ملكه نفسه ، وأتم عليه نعمته ، ولم يجعله مملوكا لغيره . وجعل حد العبد المنقوص بالرق ، الذى لم تحصل له هذه النعمة : نصف ذلك .

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين ، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين .

لله سر تحت كل لطيفة   فأخو البصائر غائص يتملق (١)

وأيضا

لما كان الجلاد بالسيف والسنان ، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين ، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه .

فالإصابة فى الرمى والنضال كالإصابة فى الحجة والمقال ، والطعن والتبطيل : نظير إقامة الحجة ، وإبطال حجة الخصم والخروج : نظير الإيراد والاحتراز منه ، وجواب القرن عند دخوله عليك : كجواب الخصم عما يورده عليك .

فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمى والطعان . ولما كان أصحاب النبى ﷺ أكمل الخلق فى الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان ، والبلاد بالسيف والسنان . وما الناس إلا هؤلاء الفريقان ومن عداهما ، فإن لم يكن ردءا وعونا لهما فهو كَلٌّ على نوع الإنسان ، وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين ، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد فى المعاش والمعاد ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء ، والرفعة وعلو المنزلة فى الدارين إنما هى لهاتين الطائفتين وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما (٢) .

فصل
فى بيان فضل الراسخين فى العلم

الطبقة الرابعة (٣) : ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة الخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى : **﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾** [النساء] ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٣ ـ ٣٣٥) .

(٢) الفروسية (٧٠ ، ٧١) .

(٣) من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة .

النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ [الحديد : ١٩] وقيل : إن الوقف على قوله تعالى ﴿ **هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ ثم يبتدئ ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ ، فيكون الكلام جملتين أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه ، وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ؛ ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين ، هنا وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى ﷺ فى قوله : « أثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيد » (١) ؛ ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتا له رضي الله عنه .

وقيل : إن الكلام كله جملة واحدة ، وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين . وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ، ويكون قوله : ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ** ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ؛ لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدا فى سبيل الله (٢) .

فصل
فى خشية العلماء لله عز وجل

الخشية أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] فهى خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبى ﷺ : « إن

---

(١) البخارى (٣٦٧٥) فى فضائل الصحابة ، باب : قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذا خليلا » .
(٢) طريق الهجرتين (٣٥١) .

أتقاكم لله وأشدكم له خشية » (١) (٢) .

وأيضا

على قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية ، كما قال النبى ﷺ : « إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » ، وفى رواية : « خوفا » ، وقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » (٣) (٤) .

فصل
فى تقديم الأعلم

ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها ، فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقرب . وهكذا يجب على المستفتى أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة فإنه يقلد أعلم من يجده وعلى هذا فطر الله عباده كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما ، وله يقصد ، وعليه يعتمد ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل (٥) .

فصل
فى بيان فضل التفقه فى دين الله عز وجل

وهذا الكلام (٦) لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله ، فإن من شهد حقيقة الخلق

---

(١) البخارى (٥٠٦٤) فى النكاح ، باب : الترغيب فى النكاح ، ومسلم (١١١٠ / ٧٩) فى الصيام ، باب : صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥١٢) .

(٣) الترمذى (٢٣١٢) فى الزهد ، باب : قول النبى ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٤١٩٠) فى الزهد ، باب : الحزن والبكاء .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٣٢) .

(٦) إشارة إلى ما تقدم من قوله : « قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتا » .

وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى، لم يجد بدا من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتا واستهانة ، فهذا هو الفقيه (١) .

فصل
فى الحث على طلب العلم

المرتبة الخامسة (٢) : الحياة التى أشار إليها المصنف وهى « حياة العلم من موت الجهل » فإن الجهل موت لأصحابه ، كما قيل :

وفى الجهل ـ قبل الموت ـ موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبـــور
وأرواحهم فى وحشة من جسـومهـم ... فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حى البدن ، فجسده قبر يمشى به على وجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ [يس] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [الروم : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر] ، وشبههم ـ فى موت قلوبهم ـ بأهل القبور ، فإنهم قد ماتت أرواحهم ، وصارت أجسامهم قبورا لها ، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور كذلك لا يسمع هؤلاء ، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة وملزومهما ، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان ولم تتحرك له ، كانت ميتة حقيقة ، وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن ، بل ذلك موت القلب والروح .

وقد ذكر الإمام أحمد فى (كتاب الزهد) من كلام لقمان أنه قال لابنه : « يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل القطر » .

وقال معاذ بن جبل : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ،

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .
(٢) من مراتب الحياة .

ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتضى آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة . التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابع له ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » . رواه الطبرانى وابن عبد البر وغيرهما وقد روى مرفوعا إلى النبى ﷺ والوقف أصح .

والمقصود : قوله : « لأن العلم حياة القلوب من الجهل » فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان (١) .

فصل
فى فضل تعلم العلم وتعليمه

جهاد النفس أربع مراتب :

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح لها ، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت فى الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ، فمن علم

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٦١ ـ ٢٦٣) .

وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السموات [١] .

فصل
فى الجود بالعلم وبذله

الجود بالعلم وبذله من أعلى مراتب الجود ، والجود به أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال .

والناس فى الجود به على مراتب متفاوتة ، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلا أبدا .

ومن الجود به : أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحا . ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة ، استقصيت له جوابها جوابا شافيا ، لا يكون جوابك له بقدر ماتدفع به الضرورة ، كما كان بعضهم يكتب فى جواب الفتيا : « نعم » أو « لا » مقتصرا عليها .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ فى ذلك أمرا عجيبا : كان إذا سئل عن مسألة حكمية ، ذكر فى جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر ، ومأخذ الخلاف ، وترجيح القول الراجح ، وذكر متعلقات المسألة التى ربما تكون أنفع للسائل من مسألته . فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته . وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس ، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم : أنه لا يقتصر على مسألة السائل ، بل يذكر له نظائرها ، ومتعلقها ، ومأخذها ، بحيث يشفيه ويكفيه .

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبى ﷺ عن التوضئ بماء البحر ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » [٢] ، فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم فى بعض الأحيان إليه أحوج مماسألوه عنه .

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته ، كما سألوه عن بيع الرطب

---

(١) زاد المعاد (٣ / ١٠) .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والدارمى ١ / ١٨٦ فى الطهارة ، باب : الوضوء من ماء البحر ، وأحمد ٢ / ٢٣٧ .

بالتمر ؟ فقال : « أينقص الرطب إذا جف ؟ » قالوا : نعم ، قال :« فلا إذن » (١) . ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه ، ولكن نبههم على علة الحكم .

وهذا كثير جدا فى أجوبته ﷺ ، مثل قوله : « إن بعت من أخيك ثمرة ، فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئا ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ » (٢) ، وفى لفظ : « أرأيت إن منع الله الثمرة ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ » (٣) ، فصرح بالعلة التى يحرم لأجلها إلزامه بالثمن ، وهى منع الله الثمرة التى ليس للمشترى فيها صنع .

وكان خصومه ـ يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك ويقولون : سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلا ـ فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند ، وأى حاجة بالسائل إلى ذلك ؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب ، وإنما العيب : الجهل والكبر ، وهذا موضع المثل المشهور :

لقبوه بحامض وهو خل ... مثل من لم يصل إلى العنقود (٤)

فصل
فى درجات العلم

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله : « العلم ماقام بدليل ، ورفع الجهل » .

يريد : أن للعلم علامة قبله ، وعلامة بعده . فعلامته قبله : ماقام به الدليل ، وعلامته بعده : رفع الجهل .

قال : « وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : علم جلى ، به يقع العيان ، واستفاضة صحيحة ، أو صحة تجربة قديمة » .

يريد بالجلى : الظاهر ، الذى لاخفاء به ، وجعله ثلاثة أنواع .

---

(١) أبو داود (٣٣٥٩) فى البيوع ، باب : فى التمر بالتمر ، والترمذى (١٢٢٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى النهى عن المحاقلة والمذابنة ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) مسلم (١٥٥٤ / ١٤) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٣) البخارى (٢١٩٨) فى البيوع ، باب : إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ثم أصابته عاهة فهو من البائع ، ومسلم (١٥٥٥ / ١٥) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٥) .

أحدها : ماوقع عن عيان ، وهو البصر .

والثانى : ما استند إلى السمع ، وهو علم الاستفاضة .

والثالث : ما استند إلى العقل ، وهو علم التجربة .

فهذه الطرق الثلاثة ـ وهى السمع ، والبصر ، والعقل ـ وهى طرق العلم وأبوابه ولا تنحصر طرق العلم فيما ذكره ، فإن سائر الحواس توجب العلم .

وكذا مايدرك بالباطن ، وهى الوجدانيات .

وكذا مايدرك بخبر المخبر الصادق ، وإن كان واحدا .

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط ، وإن لم يكن عن تجربة .

فالعلم لا يتوقف على هذه الثلاثة التى ذكرها فقط .

قال : « الدرجة الثانية : علم خفى ، ينبت فى الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية ، بماء الرياضة الخالصة ، ويظهر فى الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية ، فى الأحايين الخالية ، والأسماع الصاحية ، وهو علم يظهر الغائب ، ويغيب الشاهد ، ويشير إلى الجمع » .

يعنى : أن هذا العلم خفى على أهل الدرجة الأولى ، وهو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة .

قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » : لفظ « السر » يطلق فى لسانهم ويراد به أمور :

أحدها : اللطيفة المودعة فى هذا القالب ، التى حصل بها الإدراك والمحبة والإرادة والعلم ، وذلك هو الروح .

الثانى : معنى : قائم بالروح ، نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، وغالب مايريدون به : هذا المعنى .

وعندهم : أن القلب أشرف مافى البدن ، والروح أشرف من القلب ، والسر ألطف من الروح .

وعندهم : للسر سر آخر ، لا يطلع عليه غير الحق سبحانه ، وصاحبه لا يطلع عليه ، وإن اطلع على سره . فيقولون : « السر » مالك عليه إشراف ، و « سر السر » مالا اطلاع عليه لغير الحق ـ سبحانه .

والمعنى الثالث : يراد به مايكون مصونا مكتوبا بين العبد وبين ربه ، من الأحوال والمقامات . كما قال بعضهم : أسرارنا بكر ، لم يفتضها وهم واهم .

ويقول : قائلهم : لو عرف زرى سرى لطرحته .

والمقصود قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » ، يعنى : الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها ، وعلائقها التى تعوق الأرواح عن ديار الأفراح . فإن هذه أكدار ، وتنفسات فى وجه مرآة القلب والروح ، فلا تنجلى فيها صور الحقائق كما ينبغى ، والنفس تنفس فيها دائما بالرغبة فى الدنيا والرهبة من فوتها ، فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت ، وظهرت فيها الحقائق والمعارف .

وأما « الأبدان الزكية » : فهى التى زكت بطاعة الله ، ونبتت على أكل الحلال . فمتى خلصت الأبدان من الحرام ، وأدناس البشرية ، التى ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا : زكت أرض القلب ، فقبلت بذر العلوم والمعارف . فإن سقيت ـ بعد ذلك ـ بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية ـ وهى التى لا تخرج عن علم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تعطل سنة ـ أنبتت من كل زوج كريم ، من علم وحكمة وفائدة وتعرف ، فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد ، والثمار المختلفة الألوان ، والأذواق ، كما قال بعض السلف : إذا عقدت القلوب على ترك المعاصى ، جالت فى الملكوت ، ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد .

قوله : « وتظهر فى الأنفاس الصادقة » : يريد بالأنفاس أمرين :

أحدهما : أنفاس الذكر والمعرفة .

والثانى : أنفاس المحبة والإرادة ، وما يتعلق بالمعروف المذكور ، وبالمحبوب المراد من الذاكر والمحب . و « صدقها » : خلوصها من شوائب الأغيار والحظوظ .

وقوله : « لأهل الهمم العالية » : فهى التى لا تقف دون الله عز وجل ، ولا تعرج فى سفرها على شئ سواه . وأعلى الهمم : ما تعلق بالعلى الأعلى . وأوسعها : ما تعلق بصلاح العباد ، وهى همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وورثتهم .

وقوله : « فى الأحايين الخالية » : يريد بها : ساعات الصفاء مع الله تعالى ، وأوقات النفحات الإلهية ، التى من تعرض لها يوشك ألا يحرمها . ومن أعرض عنها فهى عنه أشد إعراضا .

وقوله : « فى الأسماع الصاحية » : فهى التى صحت من تعلقها بالباطل واللغو ، وأصاخت لدعوة الحق ، ومنادى الإيمان . فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول ، فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق .

قوله : « وهو علم يظهر الغائب » : أى يكشف ما كان غائبا عن العارف .

قوله : « ويغيب الشاهد » : أى يغيبه عن شهود ماسوى مشهوده الحق .

« ويشير إلى الجمع » وهو مقام الفردانية ، واضمحلال الرسوم ، حتى رسم الشاهد نفسه ، والله سبحانه أعلم .

قال : « الدرجة الثالثة : علم لدنى ، إسناده وجوده ، وإدراكه عيانه ، ونعته حكمه ، وليس بينه وبين الغيب حجاب » .

يشير القوم بالعلم « اللدنى » إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة ، بل بإلهام من الله ، وتعريف منه لعبده ، كما حصل للخضر عليه السلام يغير واسطة موسى ، قال الله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] .

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما « من عنده » و « من لدنه » ، إذ لم ينلهما على يد بشر ، وكان « من لدنه » أخص وأقرب من « عنده » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾ [الإسراء] فـ « السلطان النصير » الذى من لدنه سبحانه : أخص وأقرب مما عنده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ ، وهو الذى أيده به . والذى من عنده : نصره بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [الأنفال] .

و « العلم اللدنى » ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص له ، وبذل الجهد فى تلقى العلم من مشكاة رسوله ، وكمال الانقياد له . فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس ؟ ـ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، فهذا هو العلم اللدنى الحقيقى .

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ، ولم يتقيد بهما : فهو من لدن النفس والهوى ، والشيطان . فهو لدنى ، لكن من لدن من ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا : بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل . فالعلم اللدنى نوعان : لدنى رحمانى ، ولدنى شيطانى بطناوى . والمحك : هو الوحى ، ولا وحى بعد رسول الله ﷺ .

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : فالتعلق بها فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدنى إلحاد ، وكفر مخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم .

والفرق : أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ،

ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ؛ ولهذا قال له : « أنت موسى نبى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم » ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، فرسالته عامة للجن والإنس ، فى كل زمان ، ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حين لكانا من أتباعه ، وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ .

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى ، أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، وليتشهد شهادة الحق ؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية ، فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله ، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه .

وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم ، وبين أهل الاستقامة منهم ، فحرك تره .

قوله : « إسناده وجوده » : يعنى : أن طريق هذا العلم : وجدانه ، كما أن طريق غيره : هو الإسناد .

و « إدراكه عيانه » : أى إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر ، والاستنباط ، وإنما يؤخذ عيانا وشهودا .

« ونعته حكمه » يعنى : أن نعوته لا يوصل إليها إلا به ، فهى قاصرة عنه ، يعنى أن شاهده منه ، ودليله وجوده وإنيته [1] لميته ، فبرهان الإن فيه هو برهان اللم ، فهو الدليل وهو المدلول ؛ ولذلك لم يكن بينه وبين الغيوب حجاب ، بخلاف ما دونه من العلوم ، فإن بينه وبين العلوم حجابا .

والذى يشير إليه القوم هو نور من جناب المشهود ، يمحو قوى الحواس وأحكامها ، ويقوم لصاحبها مقامها ، فهو المشهود بنوره ، ويفنى ماسواه بظهوره ، وهذا عندهم معنى الأثر الإلهى : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، فبى يسمع ، وبى يبصر » [2] .

والعلم اللدنى الرحمانى : هو ثمرة هذه الموافقة ، والمحبة التى أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض .

واللدنى الشيطانى : ثمرة الإعراض عن الوحى ، وتحكيم الهوى والشيطان . والله المستعان [3] .

---

(١) المراد بالإنية ، والبرهان الإنى : الاستدلال بالمعلول على العلة ، وهو منسوب إلى « إن » التوكيدية . وبالبرهان «اللمى » الاستدلال بالعلة على المعلول ، وهو منسوب إلى « لم ؟ » الاستفهامية والمراد أن العلة والمعلول متساويان فى هذا العلم ، أحدهما عين الآخر .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤٧١ ـ ٤٧٧) .

وأيضا

فالعلم اللدنى : ما قام الدليل الصحيح عليه : أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدنى من لدن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود . وقد انبثق سد العلم اللدنى ورخص سعره ، حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدنى ، وصار من تكلم فى حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ويلقيه شيطانه فى قلبه : يزعم أن علمه لدنى .

فملاحدة الاتحادية وزنادقة المنتسبين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدنى . وقد صنف فى العلم اللدنى متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكل يزعم أن علمه لدنى ، وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدنى » منسوب إلى « لدن » بمعنى « عند » ، فكأنهم قالوا : العلم العندى ولك الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه .

وقد ذم الله بأبلغ الذم من ينسب إليه ماليس من عنده ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

فكل من قال : هذا العلم من عند الله وهو كاذب فى هذه النسبة ، فله نصيب وافر من هذا الذم وهذا فى القرآن كثير ، يذم الله ـ سبحانه ـ من أضاف إليه مالا علم له به ومن قال عليه مالا يعلم ؛ ولهذا رتب ـ سبحانه ـ المحرمات أربع مراتب . وجعل أشدها : القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرمات التى لا تباح بحال ، بل هى محرمة فى كل ملة وعلى لسان كل رسول . فالقائل : « إن هذا علم لدنى » لما لا يعلم أنه من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين [١] .

فصل
فى مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة :

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٢ ، ٤٣٣) .

« رواية » : وهى مجرد النقل وحمل المروى .

و « دراية » : وهى فهمه وتعقل معناه .

و « رعاية » : وهى العمل بموجب ما علمه ومقتضاه .

فالنقلة همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية ، وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته [١] .

فصل
من مراتب العلم والهداية إليه من الله عز وجل

المرتبة الرابعة [٢] : مرتبة التحديث ، وهذه دون مرتبة الوحى الخاص ، وتكون دون مرتبة الصديقين ، كما كانت لعمر بن الخطاب ﷺ ، كما قال النبى ﷺ : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب » [٣] .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم ؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها .

والمحدث : هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء ، فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا : والصديق أكمل من المحدث . لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عما منه .

قال : وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ماجاء به الرسول ، فإن وافقه قبله ، وإلا رده ، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : « حدثنى قلبى عن ربى »

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٠) .

(٢) من مراتب الهداية الخاصة والعامة .

(٣) البخارى (٣٦٨٩) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر بن الخطاب ﷺ عن أبى هريرة ، وعن عائشة عند مسلم (٢٣٩٨ / ٢٣) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر ﷺ .

فصحيح أن قلبه حدثه ، ولكن عمن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال : « حدثنى قلبى عن ربى » كان مسندا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب . قال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوه به يوما من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوما : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقال لا ، امحه ، واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » ، وقال فى الكلالة : « أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان » ، فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ . وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى الشطاح ، والسماعى : مجاهر بالقحة والفرية ، يقول : « حدثنى قلبى عن ربى » .

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحدا .

فصل

المرتبة الخامسة : مرتبة الإفهام: قال الله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء] فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة . وقال على بن أبى طالب ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ ـ فقال : « لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر » . وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنهما : « والفهم الفهم فيما أدلى إليك » ، فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله فى قلبه ، يعرف به ، ويدرك مالا يدركه غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره ، مع استوائهما فى حفظه ، وفهم أصل معناه .

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عد ألف بواحد . فانظر إلى فهم ابن عباس ، وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)** ﴾ [النصر] ، وما خص به ابن عباس من فهمه منها : « أنها نعى الله ـ سبحانه ـ نبيه إلى نفسه » ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا . وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص ؟ ويدق

هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلى غيره ، ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه ، وأما فى حق صاحب الفهم : فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

فصل

المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام ، وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه ، بحيث يصير مشهودا للقلب ، كشهود العين للمرئيات .

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه ، التى لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ [التوبة: ١١٥] ، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم ، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به ، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله ـ سبحانه ـ أحدا قط إلا بعد هذا البيان .

وإذا عرفت سر القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات فى هذا الباب ، وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده . والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع ، كقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] وقولهم: ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [النساء : ١٥٥] فالأول : كفر عناد . والثانى : كفر طبع ، وقوله : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)** ﴾ [الأنعام] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له . فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت : ١٧] فهذا هدى بعد البيان والدلالة ، وهو شرط لاموجب ؛ فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ، ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه . وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل ، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)** ﴾ [إبراهيم] فالرسل تبين ،

والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته .

فصل

المرتبة السابعة : البيان الخاص ، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عن الهداية البتة ، قال تعالى فى هذه المرتبة : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل : ٣٧] ، وقال : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] فالبيان الأول شرط ، وهذا موجب .

فصل

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** (٢٣) ﴾ [الأنفال] ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ** (١٩) **وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ** (٢٠) **وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ** (٢١) **وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** (٢٢) **إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ** (٢٣) ﴾ [فاطر] وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب ، فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه ـ سبحانه ـ نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** (٢) **لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنبياء] وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها . وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه : ﴿ **مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [محمد : ١٦] [١] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩ ـ ٤٤) .

فصل
فى بيان فضل الله عز وجل
على خلقه فيما أعطاهم من العلم وما منعه عنهم

تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به ، فجهله به لا يضر ، وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلا ، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير ، وكل ما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم ، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه ـ سبحانه ـ والإقرار به ، ويسر عليه طرق هذه المعرفة ، فليس فى العلوم ما هو أجل منها ، ولا أظهر عند العقل والفطرة ، وليس فى طرق العلوم التى تنال بها أكثر من طرقها ، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح ، فكل ما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك ، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسك ، فهو دليل على الرب تبارك وتعالى ، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس فى المعلوم أجلى منها ، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغى أن يخطر له شك ما فى وجود الله ـ سبحانه ـ ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ، ولا يطيق حصرها إلا الله ، ثم ركز ذلك فى الفطرة ووضعه فى العقل جملة .

ثم بعث الرسل مذكرين به ؛ ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] ، وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر] وهو كثير فى القرآن .

ومفصلين لما فى الفطرة والعقل العلم به جملة ، فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته فى خلقه وأمره ، المقتضية إثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، مودعا فى الفطرة مركوزا فيها ، فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ، ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته فى أفعاله وبالثواب والعقاب ، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ماجحدت ، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة ، فانقادوا طوعا واختيارا

ومحبة وإذعانا بما جعل من شواهد ذلك فى قلوبهم ، حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها .

ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة ؛ لئلا تحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها ، فيحق القول عليها بإقامة الحجة ، فلا يكون ـ سبحانه ـ ظالما لها بتعذيبها وإشقائها . وقد بين ذلك ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ [يس] .

فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد ، وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله ، والبعث للجزاء مسطورة مثبتة فى الفطرة ، ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة فى فطرته، فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرا فى فطرته شاهدا به عقله ، بل وجوارحه ولسان حاله ، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان ، وهو الذى كتبه ـ سبحانه ـ فى قلوب أوليائه وخاصته فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها ؛ لعظم حاجته فى معاشه ومعاده إليها ، ثم وضع فى العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذى هو ظله فى أرضه وعدله بين عباده ونوره فى العالم ، مالو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أنه يقترحوا شيئا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة فى معاشها ومعادها ، فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه على أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ومثال ، فضلا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى ، وقطع المعذرة ، وإزاحة العلة والشبهة : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾ [الأنفال] .

فأثبت فى الفطرة حسن العدل والإنصاف ، والصدق والبر والإحسان ، والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق ، ورحمة المسكين ، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر فى مواطن الصبر ، والبذل فى مواطن البذل ، والانتقام فى موضع الانتقام ، والحلم فى موضع الحلم ، والسكينة والوقار ، والرأفة والرفق والتؤدة ، وحسن الأخلاق، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات ، وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة، والسماحة ، والبصيرة ، والثبات والعزيمة ، والقوة فى الحق ، واللين لأهله ،

والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ، والسعى فى إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وتنزيل الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ، ولإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال جفوتهم ، واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق .

فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا ، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبا قريبا ، إلى غير ذلك من معرفة العقل الذى وضعه بينهم فى المعاملات والمناكحات والجنايات ، وما أودع فى فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لاشريك له ، وأن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه ، وإيثاره على ماسواه . وأثبت فى الفطر علمها بقبيح أضداد ذلك .

ثم بعث رسله فى الأمر بما أثبت فى الفطر حسنه وكماله ، والنهى عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه ، فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل بجملته ، وقامت شواهد دينه فى الفطر تنادى للإيمان : حى على الفلاح ، وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظلم الإباء ، كما صدع الليل ضوء الصباح ، وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح .

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم ؛ كعلم الطب والحساب ، وعلم الزراعة والغراس ، وضروب الصنائع ، واستنباط المياه ، وعقد الأبنية ، وصنعة السفن ، واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها ، وتركيب الأدوية ، وصنعة الأطعمة ، ومعرفة ضروب الحيل فى صيد الوحش والطير ودواب الماء ، والتصرف فى وجوه التجارب ، ومعرفة وجوه المكاسب ، وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم . ثم منعهـم ـ سبحانه ـ علم ماسوى ذلك مما ليس فى شأنهم ،ولا فيه مصلحة لهم،ولا نشأتهم قابلة له ؛ كعلم الغيب ، وعلم ما كان وكل ما يكون،والعلم بعدد القطر وأمواج البحر،وذرات الرمال ،ومساقط الأوراق،وعدد الكواكب ومقاديرها،وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى،وما فى لجج البحار وأقطار العالم،وما يكنه الناس فى صدورهم،وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، إلى سائر ما عزب عنهم علمه.

فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه ، وبخس من التوفيق حظه ، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد فى أكثر أمـره ، وجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع ، وأقلهم صوابا . فترى عند من لا يرفعون به

رأسا من الحكم والعلم الحق النافع مالا يخطر ببالهم أصلا ، وذلك من حكمة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم ، ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال ، وضروب المحال ، وفنون الوساوس والهوى ، والهوس والخبط ، وهم يحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فالحمد لله الذى من على المؤمنين : ﴿ **إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (١٦٤) ﴾ [آل عمران] .

ومن حكمته ـ سبحانه ـ ما منعهم من العلم : علم الساعة ومعرفة آجالهم ، وفى ذلك من الحكمة البالغة مالا يحتاج إلى نظر ، فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش ، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت ، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا ، وإنما عمارتها بالآمال ، وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء ، فلا يبالى بالانهماك فى الشهوات والمعاصى وأنواع الفساد ، ويقول : إذا قرب الوقت أحدثت توبة . وهذا مذهب لا يرتضيه الله عز وجل من عباده ، ولا يقبله منهم ، ولا تصلح عليه أحوال العالم ، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه .

فلو أن عبدا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعواما ، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك ، لم تقبل منه ، ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك . وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع ، قال تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ [النساء : ١٨] ، وقوله : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ** (٨٤) **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** ﴾ [غافر] .

والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة ، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه ، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه ؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له ، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه ، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه ، خائف مختلج فى صدره شهوة النفس الذنب ، وكراهة الإيمان له ، فهو يجيب داعى النفس تارة وداعى الإيمان تارات .

فأما من بنى أمره على ألا يقف عن ذنب ، ولا يقدم خوفا ، ولا يدع لله شهوة ، وهو فرح مسرور ، يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب ، فهذا الذى يخاف عليه أن يحال

بينه وبين التوبة ولا يوفق لها ، فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا ، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل .

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا ؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس ، صعب عليها ، أثقل من الجبال ، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة ، وقلة النصيب من الإيمان ، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة ، ولا عاجلا بآجل ، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل : أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا ؟ فقال : لا هذا ولا هذا ، ولكن ربع درهم من أول أمس . فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله ، فإذا بلغ العبد حد الكبر ، وضعفت بصيرته ، ووهت قواه ، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة فى غيه ، وضعفا فى إيمانه ، صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها ، فإن كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة فى الغى والمعاصى ، وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرا زائدا على أثر ما قبله ، فيقوى الأثران وهلم جرا ، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال ، فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه ، لم يتطهر للقدوم على الله ، فما ظنه بربه .

ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته ، ومحيت سيئاته ، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، ولا شىء لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ، ولكن فرط فى أداء الدين حتى نفذ المال ، ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه ، وسيعلم المسرف والمفرط أى ديان أدان وأى غريم يتقاضاه ، يوم يكون الوفاء من الحسنات ، فإن فنيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم ، فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه ، فينكف عما يضره فى معاده ، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم [1] .

فصل
فى الجمع بين العلم والحال

قال [2] : « والمعنى الثانى : اسم الطريق سالك ، يسير بين تمكن وتلون ، لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ويلتفت إلى العلم ، فالعلم يشغله فى حين ، والحال يحمله

(١) مفتاح دار السعادة (٢٨٠ ـ ٢٨٤) .

(٢) أى صاحب منازل السائرين .

فى حين ، فبلاؤه بينهما ، يذيقه شهودا طورا ، ويكسوه عبرة طورا ، ويريه غيره تفرقًا طورا » .

هذا المعنى هو المعنى الثانى من المعانى الثلاثة من معانى الوقت عنده .

قوله : « اسم لطريق سالك » : هو على الإضافة ، أى لطريق عبد سالك .

قوله : « يسير بين تمكن وتلون » : أى ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون . و « التمكن » : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال ، و« التلون » ـ فى هذا الموضع خاصة : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالعلم . فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينا ، والعلم بلونه بحسب متعلقاته وأحكامه .

قوله : « لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ، ويلتفت إلى العلم » : يعنى أن هذا العبد هو سالك إلى التمكن ما دام يسلك الحال ويلتفت إلى العلم . فأما إن سلك العلم والتفت إلى الحال ، لم يكن سالكا إلى التمكن .

فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ، ملتفتون إلى العلم ، وهم إلى التمكن أقرب ، وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال ، وهم إلى التلون أقرب هذا حاصل كلامه .

وهذه الثلاثة : هى المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال ، حتى كأنهما غيران وحزبان ، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى ، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه .

وهذا من تقصير الفريقين ، حيث ضعف أحدهما عن السير فى العلم . وضعف الآخر عن الحال فى العلم ، فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم ، فأخذ هؤلاء العلم ، وسعته ونوره ، ورجحوه ، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ، ورجحوه ، وصار الصادق الضعيف من الفريقين : يسير بأحدهما متلفتا إلى الآخر .

فهذا مطيع للحال ، وهذا مطيع للعلم ، لكن المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعا محجوبا ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون ، والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعا منقوصا ، مشتغلا بالوسيلة عن الغاية .

وصاحب التمكين يتصرف علمه فى حاله ، ويحكم عليه فينقاد لحكمه ، ويتصرف حاله فى علمه فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم . فيجيبه ويلبى دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة ، ومن استقرأ أحوال الصحابة ﷺ وجدها كذلك .

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل ، والله المستعان

﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾ [الشورى] ، فكذلك يهب لمن يشاء علما ، ولمن يشاء حالا ، ويجمع بينهما لمن يشاء ، ويخلى منهما من يشاء .

قوله : « فالعلم يشغله فى حين » : أى يشغله عن السلوك إلى تمكن الحال ؛ لأن العلم متنوع التعلقات ، فهو يفرق والحال يجمع ؛ لأنه يدعوه إلى الفناء ، وهناك سلطان الحال .

قوله : « والحال يحمله فى حين » : أى يغلب عليه الحال تارة ، فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه على السلوك ، فيشتد سيره بحكم الحال ، يعنى : وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك . وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين : أن العلم عندهم يشغل عن السلوك ؛ ولهذا يعدون السالك من سلك على الحال ملتفتا عن العلم .

وأما على ما قررناه ـ من أن العلم يعين على السلوك ، ويحمل عليه ، ويكون صاحبه سالكا به وفيه ـ فلا يشغله العلم عن سلوكه ، وإن أضعف سيره على درب الفناء . فلا ريب أن العلم لا يجامع الفناء ، فالفناء ليس هو غاية السالكين إلى الله ، بل ولا هو لازم من لوازم الطريق ، وإن كان عارضا من عوارضها ، يعرض لغير الكمل .

فبينا أن الفناء الكامل ، الذى هو الغاية المطلوبة : هو الفناء عن محبة ماسوى الله وإرادته ، فيفنى بمحبة الله عن محبة ماسواه ، وبإرادته ورجائه ، والخوف منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه عن إرادة ماسواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه .

وهذا الفناء لا ينافى العلم بحال ، ولا يحول بين العبد وبينه ، بل قد يكون فى أغلب الأحوال من أعظم أعوانه ، وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين ، بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه ، ولكن لم يخل الله الأرض من قائم به ، داع إليه .

قوله : « فبلاؤه بينهما » : أى عذابه وألمه بين داعى الحال وداعى العلم ، فإيمانه يحمله على إجابة داعى العلم ، ووارده يحمله على إجابة داعى الحال ، فيصير كالغريم بين مطالبين ، كل منهما يطالبه بحقه ، وليس بيده إلا ما يقضى أحدهما .

وقد عرفت أن هذا من الضيق ، وإلا فمع السعة يوفى كلا منهما حقه .

قوله : « يذيقه شهودا طورا » : أى ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهودا طورا ، وهو الطور الذى يكون الحاكم عليه فيه هو العلم .

قوله : « ويكسوه عبرة طورا » : الظاهر : أنه عبرة بالباء الموحدة والعين ، أى اعتبارا

بأفعاله ، واستدلالا عليه ، فإنه ـ سبحانه ـ دل على نفسه بأفعاله ، فالعلم يكسو صاحبه اعتبارًا واستدلالا على الرب بأفعاله .

ويصح أن يكون « غيرة » بالغين المعجمة والياء المثناة من تحت ، ومعناه : أن العلم يكسوه غيرة من حجابه عن مقام صاحب الحال ، فيغار من احتجابه عن الحال بالعلم ، وعن العيان بالاستدلال ، وعن الشهود ـ الذى هو مقام الإحسان ـ بالإيمان ، الذى هو إيمان بالغيب .

قوله : « ويريه غيره تفرق طورا » : هذا بالغين المعجمة ليس إلا ، أى : ويريه العلم غيره تفرقه فى أوديته ، فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم ، وهو حال صحو وتمييز .

وكأن الشيخ يشير إلى أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته على الله ، فنفسه تفر من الجمعية على الله إلى تفرق العلم ، فإنه لا أشق على النفوس من جمعيتها على الله ، فهى تهرب من الله إلى الحال تارة ، وإلى العمل تارة ، وإلى العلم تارة ، هذه نفوس السالكين الصادقين (١) .

وأيضا

قال أبو يعقوب النهرجورى : « أفضل الأحوال ما قارن العلم » . وهذا كثير فى كلام المشايخ ، وإنما وصوا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين : أنه يجرى مع ذوقه ووجده وما يراه وما يهواه غير متبع لسبيل الله التى بعث بها رسوله ، وهذا هو اتباع الهوى بغير هدى من الله .

ولا ريب أن السماع المحدث من أعظم المحركات للهوى ولهذا سمى بعض الأئمة المصنفين كتابه فى إبطاله وذمه بالدليل الواضح فى النهى عن ارتكاب الهوى الفاضح ولهذا يأمر المشايخ المستقيمون منهم باتباع العلم ويعنون به الشريعة ، كقول أبى يزيد البسطامى : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . وقال أبو الحسين النورى : من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه . وقال أبو عثمان النيسابورى : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة . والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم . والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة . والصحبة مع الأهل بحسن الخلق . والصحبة من الإخوان بدوام بشر

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٣ ـ ١٣٦) .

مالم يكن إثما . والصحبة من الجهال بالدعاء لهم والرحمة والشفقة عليهم ؛ وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد والعمل وذلك يتضمن الحب ، فكثيرا مايعمل السالك بمقتضى ما يجده فى قلبه من المحبة ، وما يدركه بذوقه من طعم العبادة ، وهذا إذا لم يكن موافقا لأمر الله ورسوله فصاحبه فى ضلال ، وهو ممن اتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** (٤٣) ﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥٠) ﴾ [القصص] ، فجعل كل ما خالف الأمر فصاحبه متبع هواه ، فما ثم واسطة بل إما الأمر وإما الهوى ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** (١٢٠) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (١٤٥) ﴾ [البقرة] [١] .

وأيضا

دخل الداخل على أكثر السالكين وانعكس سيرهم ، حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه .

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا ، وهو إحالة الحال على العلم وتحكيمه عليه ، وتقديمه ووزنه به ، وقبول حكمه ، فإن وافقه العلم وإلا كان حالا فاسدا منخرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم ، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم راع والحال من رعيته ، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد ، وغايته : الانسلاخ من العلم والدين ، كما جرى ذلك لمن جرى له ، والله المستعان [٢] .

وأيضا

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وألا تعارضه بجمعية ولا ذوق ولا حال ، بل امض معه حيث ذهب ، فالواجب تسليط العلم على الحال وتحكيمه عليه ، وألا يعارض به .

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٩) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٨٨) .

وهذا صعب جدا إلا على الصادقين من أرباب العزائم ، فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقا ، وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة أو غلبه حال أو ذوق خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا ، وحكم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين ، وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ؛ ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به (١) .

وأيضا

العلم خير من الحال ، العلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم هاد والحال تابع ، والعلم آمر ناه ، والحال منفذ قابل ، والحال سيف ، إن لم يصحبه علم ألقى صاحبه فى المهالك والمتالف ، والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر ، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالا على صاحبه .

الحال بلا علم كالسلطان الذى لا يزعه عن سطوته وازع .

الحال بلا علم كالنار التى لا سائس لها .

نفع الحال لا يتعدى صاحبه ، ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر .

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة . ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه . وربما ضاقت عنه .

العلم هاد والحال الصحيح مهتد به ، وهو تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم ووراثهم ، وهو حياة القلوب . ونور البصائر . وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهوالميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد ، والهدى والضلال .

به يعرف الله ويعبد ، ويذكر ويوحد ، ويحمد ويمجد . وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون (٢) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧٧) .

(٢) المرجع السابق (٢ / ٤٦٩) .

فصل
فى الجمع بين العلم والعمل

السائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقوته العلمية كنور عظيم بيده ، يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطبها . وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فإن السير هو عمل المسافر .

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقى عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر ، مسافرا فى الطريق ، قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل ، وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة ،فهو يقول : يانفس ، أبشرى فقد قرب المنزل ، ودنا التلاقى ، فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول ، فيحال بينك وبين منازل الأحبة . فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة ، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله ، لا تنقطعى فى المفازة ، فهو ـ والله ـ الهلاك والعطب لو كنت تعلمين .

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعام ، وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء ، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها فى الطلب ، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، فلتختر أيها شاءت ، وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها

ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره . ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم ، بل هى من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلام والوصول إليهم ، فياقرة عينه إذ ذاك ، ويافرحته إذ يقول : ﴿ **لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)** ﴾ [يس] .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه ، غدوا ورواحا وسحرا ، قرب من الدار ، وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنسا ، وكثافته لطافة ، ودرنه طهارة [١] .

وأيضا

لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهما الهدى ودين الحق ، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين كما قال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** ﴾ [العصر] أقسم ـ سبحانه ـ أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد فى المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته [٢] .

وأيضا

إن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له . فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة .

---

(١) طريق الهجرتين (١٨٣ ، ١٨٤) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٦) .

فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه ، وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس] . والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله من العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به ، ومن ههنا كان اليهود أحق به ، وهو متغلظ فى حقهم كقوله تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة : ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة] .

والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال ، ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة] ، فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود ، والثانية : فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حبان من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » (١) (٢) .

فصل
فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية

من الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه مالم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله .

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضى هذه القوة السير والسلوك ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، والجد والتشمير فى العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الأعمال

(١) الترمذى (٢٩٥٤) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١١) .

والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته ، وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجد والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان .

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه ، لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ، ولا يقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ، ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة شأنها شديد ، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ، ولكن الله يفعل ما يريد . والوقت ، كما قيل : سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك ، فإذا كان السير ضعيفا ، والهمة ضعيفة ، والعلم بالطريق ضعيفا ، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة ، فإنه جهد البلاء ، ودرك الشقاء ،وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمته من حيث لا يحتسب ، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع ، والله ولى التوفيق (١) .

فصل
فى بدعة التزهيد فى العلم

الكلمات التى تروى عن بعضهم : من التزهد فى العلم ، والاستغناء عنه ، كقول من قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » .

وقول الآخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ ـ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، من يسمع من الخلاق ؟

(١) طريق الهجرتين (١٨٤ ، ١٨٥) .

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل .

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدثنا » فاغسل يدك منه .

وقول الآخر : لنا علم الحرف ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شىء من الإسلام .

ومن أحالك على غير « أخبرنا » و « حدثنا » فقد أحالك إما على خيال صوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى . فليس بعد القرآن و « أخبرنا » و « حدثنا » إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين . ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم (١) .

فصل
فى أن أساس العلم ملازمة الكتاب والسنة

كان الجنيد يقول دائما : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، ولم يتفقه لا يقتدى به .

وقال غيره من العارفين : كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهى كفر .

وقال الجنيد : علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ .

وقال أبو سليمان الدارانى : إنه لتمر بقلبى النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل ، من الكتاب والسنة . وقال النصر أبادى : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، والاقتداء بالسلف ، وترك ما أحدثه الآخرون ، والإقامة على ما سلكه الأولون .

فهذا العلم الصافى ، المتلقى من مشكاة الوحى والنبوة : يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية . وحقيقتها : التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا ، وتحكيمه باطنا وظاهرا ، والوقوف معه حيث وقف بك ، والمسير معه حيث سار بك ، بحيث تجعله بمنزلة شيخك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٨ ، ٤٦٩) .

الذى قد ألقيت إليه أمرك كله ، سره وظاهره ، واقتديت به فى جميع أحوالك ، ووقفت مع ما يأمرك به ، فلا تخالفه البتة . فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخا وإماما وقدوة وحاكما ، وتعلق قلبك بقلبه الكريم ، وروحانيتك بروحانيته ، كما يعلق المريد روحانيته بروحانية شيخه . فتجيبه إذا دعاك ، وتقف معه إذا استوقفك ، وتسير إذا سار بك ، وتقيل إذا قال ، وتنزل إذا نزل ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، وإذا أخبرك عن شىء أنزلته منزلة ما تراه بعينك ، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك .

وبالجملة : فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ، ومعلمك ومربيك ومؤدبك ، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا فى التبليغ ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل فى العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا فى وصول أمره ونهيه ورسالته إليك .

وهذان التجريدان : هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . والله وحده هو المعبود المألوه ، الذى لا يستحق العبادة سواه ، ورسوله المطاع المتبع ، المهتدى به ، الذى لا يستحق الطاعة سواه . ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته . فيطاع تبعا للأصل .

وبالجملة : فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ ، واقتدى به فى ظاهره وباطنه .

فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق ، فليس حظه من سلوكه إلا التعب ، وأعماله **﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾** [النور] .

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق ، فإنه واصل ولو زحف زحفا ، فاتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم ، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم ، كما قيل :

من لى بمثل سيرك المدلل ... تمشى رويدا وتجى فى الأول

والمنحرفون عن طريقه ، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم ، قعد بهم عدولهم عن طريقه .

فهم فى السرى لم يبرحوا من مكانهم ... وما ظعنوا فى السير عنه ، وقد كلوا (١)

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٤٢ ـ ١٤٥) .

فصل
فى بيان خطورة الجهل

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة ، قال موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾ [البقرة] لما قال له قومه : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أى من المستهزئين ، وقال يوسف الصديق : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى من مرتكبى ما حرمت عليهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء : ١٧] قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ماعصى الله به فهو جهالة ، وقال غيره : أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل . وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلا ؛ إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل ، وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله (١) .

فصل
فى أن دواء الجهل سؤال العلماء

قد جعل النبى ﷺ الجهل داء ، وجعل دواءه سؤال العلماء ، فروى أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حَجَرٌ ، فَشَجَّهُ فِى رَأْسِه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه ، قتلهم الله ! ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويَعْصِرَ ـ أَوْ يَعْصِبَ ـ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ، ثم يمسح عليها ، ويغسل سائر جسده » (٢) .

فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٦٩) .

(٢) الداء والدواء (١٩) ، أبو داود (٣٣٦) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم .

فصل
فى حرمة القول على الله بغير علم

إن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريما عارضا فى وقت دون وقت ، قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ ، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ **وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه . فقال : ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال : ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [الاعراف] فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما ، فإنه يتضمن الكذب على الله ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثما ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش ، والظلم والعدوان . إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد ، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شئ أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله ، فقال : ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ الآية [النحل : ١١٦] .

فكيف بمن نسب إلى أوصافه ـ سبحانه وتعالى ـ ما لم يصف به نفسه ؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه ؟ .

قال بعض السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا . فيقول الله : كذبت ، لم أحل هذا ، ولم أحرم هذا .

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد ، بلا برهان من الله ورسوله .

وأصل الشرك والكفر : هو القول على الله بلا علم ؛ فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله ، يقربه إلى الله ، ويشفع له عنده ، ويقضى حاجته بواسطته ، كما

تكون الوسائط عند الملوك ، فكل مشرك قائل على الله بلا علم ، دون العكس . إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله ، فهو أعم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده .

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبا لدخول النار ، واتخاذ منزلة منها مبوأ ، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه ؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم ، كصريح الكذب عليه ؛ لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل ، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع .

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو إليها ، ويحض عليها ؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة ، وكثرة اطلاعه عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدا .

فإن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ، ولا تقوم لها . وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمة كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس . ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة ، إلا المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله ، بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله ، والهجرة إلى رسوله ، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » (١) ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان (٢) .

فصل
فى المناظرة فى العلم وفوائدها

المناظرة فى العلم نوعان :

أحدهما : للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات .

---

(١) البخارى (١) فى بدء الوحى ، باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤) .

والثانى : لنصر الحق وكبت الباطل .

والأول يشبه السباق والنضال ، والثانى يشبه الجهاد وقتال الكفار ، قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ** ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، قال مالك : قال زيد ابن أسلم : بالعلم ، فعلم الحجة يرفع درجة صاحبه .

فإن العلم بالحجج والقوة على الجهاد مما رفع الله تعالى به درجات الأنبياء ، وأتباعهم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)** ﴾ [ص] فالأيدى : القوى التى يقدرون بها على إظهار الحق وأمر الله وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه ، والأبصار : البصائر فى دينه ؛ ولهذا يسمى الله ـ سبحانه ـ الحجة سلطانا . قال ابن عباس : كل سلطان فى القرآن فهو الحجة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)** ﴾ [الصافات] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [النجم : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)** ﴾ [الروم] ، وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه ، فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه وإن كان عاجزا عنه بيده . وهذا هو أحد أقسام النصرة التى نصر الله تعالى بها رسله والمؤمنين فى الدنيا كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)** ﴾ [غافر] (١) .

فصل
فى تثبيت العلم وتأكيده

فى « الصحيحين » : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ، إذ أتى بجمار نخلة ، فقال النبى ﷺ : « إن من الشجرة شجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها ، أخبرونى ماهى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هى النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا ، فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » فذكرت ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (٢) .

---

(١) الفروسية (٩٥ ، ٩٦) .

(٢) البخارى (٦١) فى العلم ، باب : قول المحدث : « حدثنا » أو « أخبرنا » و « أنبأنا » ، ومسلم (٢٨١١ / ٦٣) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

ففى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم .

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه .

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم .

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب .

وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه وإن لم يعرفه الأب ، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه .

وفيه ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة ؛ من كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام (١) .

فصل
فى الوكالة فى إلقاء العلم

ومنها (٢) : توكيل العالم لبعض أصحابه أن يتكلم عنه ، ويجيب عنه (٣) .

فصل
فى تعليم المرأة الكتابة

وفى الحديث (٤) دليل على جواز تعليم النساء الكتابة (٥) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٩٧) .

(٢) أى من الفقه فى قصة قدوم وفد بنى حنيفة على النبى ﷺ .

(٣) زاد المعاد (٣ / ٦١٣) .

(٤) هو حديث الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال : « ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة » أبو داود (٣٨٨٧) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٨٥) .



كتاب لطائف الكلم



العمل بالقرآن

قال بعض السلف : أنزل الله القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا [١] .

الأخذ بالكتاب والسنة

قال أبو سليمان الدارانى : تعرض علىّ النكتة من نكت القوم ،فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى طريقنا [٢] .

الصلاة المقبولة

قال بعض السلف : الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة ، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة ،فكيف بالصلاة التى يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى ؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبا ،وليس من العمل الطيب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه [٣] .

السعادة فى تحقيق العبودية

كان شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يقول :من أراد السعادة الأبدية ، فليلزم عتبة العبودية [٤] .

(١) الداء والدواء (٢٧٢) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٥٢٦) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣١) .

إحسان الله عز وجل إلى الخلق

إن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى ، وهو يُمِدُّه بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويُسْبِل عليه ستره [١] .

إن الحبيب يسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه وإذا هفا [٢] هفوة ملكه [٣] عاقبتها ، بأن جعلها سببا لرفعته وعلو درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح وذل خاص ، وانكسار بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد فى قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له مسن حسنات كثيرة . وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحِزبه .

وقد استشهد الشيخ بقصة سليمان عليه السلام حين ألهته الخيل عن صلاة العصر ، فأخذته الغضبة لله والحمية ، فحملته على أن مسح عراقيبها وأعناقها بالسيف ، وأتلف مالاً شغله عن الله فى الله ، فعوضه الله منه : أن حمله على متن الريح فملكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة وجعلها سببًا لنيل تلك المنزلة الرفيعة ،واستشهد بقصة موسى صلى الله عليه وسلم حين ألقى الألواح وفيها كلام الله عن رأسه وكسرها ، وجر بلحية أخيه وهو نبى مثله ولم يعاتبه الله على ذلك كما عتب على آدم عليه السلام فى أكل لقمة من الشجرة ، وعلى نوح فى ابنه حين سأل ربه أن ينجيه ،وعلى داود فى شأن امرأة أوريا ، وعلى يونس فى شأن المغاضبة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربه ، وفى ليلة الإسراء عاتب ربه فى النبى صلى الله عليه وسلم إذ رفعه فوقه ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التى أوجبت له هذا الدلال ؛ فإنه قاوم فرعون ـ أكبر أعداء الله تعالى ـ وتصدى له ولقومه ، وعالج بنى إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد فى الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره .

وذو النون لما لم يكن فى هذا المقام ،سجنه فى بطن الحوت من غضبة ،وقد جعل الله لكل شئ قدراً [٤] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٣٢) .

(٢) أى : العبد .

(٣) أى : الله عز وجل .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٥) .

سعادة المرء بربه عز وجل

مِنْ أحسن كلام العامة قولهم : لا هَمَّ مع الله (١) .

حاجة الإنسان إلى الله عز وجل

أكثر النوع الإنساني ليس له قاهر من نفسه، فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإياله : ينتظم بها أمره ضرورة ، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس (٢) .

حُسْن الفهم مِنَّةٌ من الله عز وجل

حُسْن الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يمن الله به على من يشاء من عباده (٣) .

محبة الله عز وجل

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ـ أو نحو هذا من الكلام (٤) .

محبة الله عز وجل والقرآن

قال بعض الصحابة : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧١) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٠٤) .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٤١٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٤) .

(٥) الكلام على مسألة السماع (٤٧٦).

أنواع الرجاء

الرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ونوع غرور مذموم .

فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه ، وجوده وحلمه وكرمه .

والثالث : رجل متماد في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب (١) .

الخوف والرجاء

قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ،ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : **﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾** [الإسراء : ٥٧] . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ،فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ،ويقول : المحب لا يضره ذنب .وصنف بعضهم فى ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا « إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب » وهذا كذب قطعا مناف للإسلام ،فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن ، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول الله ﷺ فمعاذ الله من ذلك ، فله محمل ؛ وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله ،وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحى أثره ولا يضره الذنب ، وكلما أذنب وتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود : أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٦) .

تخرج عن الدرب ، والرجاء حاد يحدوها ، يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق ،وتركت تركب التعاسيف ،خرجت عن الطريق وضلت عنها ،فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء ،مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا ،فإنه قال: **﴿اذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾**[الاعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول : خفية ،وقال فى الدعاء: **﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** [الاعراف:٥٦] فلم يحتج أن يقول فى الأول :ادعوا ربكم تضرعا وخيفة،فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام ،ودلت على ذلك أكمل دلالة،وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبنى عليه،فإن الداعى مالم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع ،وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه .

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (١) .

وأيضا

قال أبو على الروذبارى :الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت (٢) .

العبودية والحرية

الناس فى هذا المقام ثلاثة : عبد محض ، وحر محض ، ومكاتب قد أدى بعض كتابته وهو يسعى فى بقية الأداء .

فالعبد المحض : عبد الماء والطين ، الذى قد استعبدته نفسه وشهوته وملكته وقهرته ، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه .

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١ ـ ١٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٦) .

والحر المحض : هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها ، فانقادت معه وذلت له ، ودخلت تحت رقه وحكمه .

والمكاتب : من قد عُقد له سبب الحرية وهو يسعى فى كمالها ، فهو عبد من وجه حر من وجه ، وبالبقية التى بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقى عليه درهم ،فهو عبد ما بقى عليه حظ من حظوظ نفسه .

فالحر من تخلص من رق الماء والطين ، وفاز بعبودية رب العالمين ، فاجتمعت له العبودية والحرية ، فعبوديته من كمال حريته ، وحريته من كمال عبوديته (١) .

حبس النفس على الله

أشق ما على النفوس : جمعيتها على الله وهى تناشد صاحبها ألا يوصلها إليه ،وأن يشغلها بما دونه ، فإن حبس النفس على الله شديد ،وأشد منه :حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه ، فهى دائماً ترضيك بالعلم عن العمل ، وبالعمل عن الحال ، وبالحال عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلى الله ، وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه (٢) .

خشية الله عز وجل

قال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف ، ويدل على هذا قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .وقول النبى ﷺ :« أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » (٣) (٤) .

إيثار مرضاة الله عز وجل

إنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ،وتحمل ثقل ذلك ومؤنته ،

(١) مدارج السالكين (٣ / ٧٤) .

(٢) مدارج السالكين (٣ / ١٣٧) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٩) .

(٤) البخارى معلقا (الفتح ١ / ٧٠) فى الإيمان ، باب : قول النبى ﷺ : « أنا أعلمكم بالله » ، وانظر : المقاصد الحسنة (١٨٤) ، وكشف الخفاء (٦٠٧) .

وصبر على محنته ؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا ،ومظان عطبه نجاة ، وتعبه راحة ، ومؤنته معونة ، وبليته نعمة ، ومحنته منحة ، وسخطه رضى . فياخيبة المتخلفين ، ويا ذلة المتهيبين !

هذا ،وقد جرت سنة الله ـ التى لا تبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته،ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذامًا، ومن آثر مرضاته ساخطاً فلا على مقصوده منهم حصل ،ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم .

هذا مع أن رضى الخلق : لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور ، فهو مستحيل ، بل لابد من سخطهم عليك ، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك ، أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض ، فإذا كان سخطهم لابد منه ـ على التقديرين ـ فآثر سخطهم الذى ينال به رضى الله ، فإن هم رضوا عنك بعد هذا وإلا فأهون شىء رضى من لا ينفعك رضاه ، ولا يضرك سخطه فى دينك ولا فى إيمانك ولا فى آخرتك ، فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم ،وخاصة العقل : احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما ، فوازن بعقلك ثم انظر أى الأمرين خير فآثره ،وأيهما شر فابعد عنه . فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضى الله على رضى الخلق .

هذا ، مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق ، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه .

قال بعض السلف : لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة ، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها .

وقال الشافعى ﷺ :رضى الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم : أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره ، ولقد أحسن أبو فراس فى هذا المعنى ـ إلا أنه أساء كل الإساءة فى قوله ـ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعا ولا ضرا :

فليتـك تحلـو والحيـاة مريـرة ... وليتـك ترضى والأنـام غضـاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب(١)

الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ

إن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص فإنه من المهاجرين إليه فلا ينبغى أن يتخلف عن هذه الهجرة ، بل ينبغى أن يصحبها سرمدا . حتى يلحق بالله عز وجل .

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ... ويحمد غب السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس :

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلى رسوله ﷺ : بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر فى ظلم الليل ومتاهات الطريق .

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه،ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور . والله المستعان (٢).

حد الخوف

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : حد الخوف ما حجزك عن معاصى الله ، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه (٣) .

الخوف من الله عز وجل

كل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه (٤).

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٠) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٣) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٤) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

وأيضًا

قال عمر بن الخطاب ﷺ : « وددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا ، لا لِى ولا علىَّ »، يريد الخلافة ؛ خشية ألا يكون قد قام بحقوقها .

فَخَوْفُه كان يحمله على ذلك القول ، ولم يقل ذلك فى أبى بكر بل ما زال يشهد له فى القيام فى الخلافة بالحق (١) .

الاعتصام بحبل الله عز وجل

الاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل (٢) .

منازل العبودية

من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه ، بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه ؛ ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم،والواجب على أولى العزم أعظم من الواجب على من دونهم ،والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته (٣) .

ما يحبه الله عز وجل ويرضاه

لا سبيل إلى معرفة ما يحبه(٤) ويرضاه إلا بوزنه بميزان الوحى ونقده على محك الأمر،وعرضه على حاكم الشرع ، وتلقيه من مشكاة النبوة ، ثم اعتباره بدار الضرب ، فإن كان نقش سكته : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٥) فهو المحبوب المرضى لله

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٤٤٧) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٦٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٠٤) .
(٤) أى : الله عز وجل .
(٥) البخارى (٢٦٩٧) فى الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فهو مردود ، ومسلم (١٧١٨ / ١٧) فى الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، وأبو داود (٤٦٠٦) فى السنة ، باب : فى لزوم

الذى يقبله من عبده ويكرمه عليه ، وإن كان عليه ضرب السكك المحدثة الصادرة على الآراء والأفكار والرسوم والأوضاع فهو المزيف المردود ، فإذا وقع التحاكم إلى هذا الأصل تقرب كل واحد من المتنازعين من صاحبه ، وإلا رفيقك قيسى وأنت يمانى [١] .

وأيضًا

ويجب أن يعرف أن المرجع فى القرب والطاعات والديانات بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويكرهه إلى الله ورسوله ، لا إلى رأى ، ولا قياس ، ولا ذوق ولا وجد ، ولا استحسان ، ولا تقليد ، ولا منام ، ولا كشف ، ولا حدثنى قلبى عن أبى ، ولا خوطبت وقيل لى ، ولا رأيت فلانًا يفعل وهو ممن أعتقد فيه الخير ، أو كان فلان يفعل وهو ممن يحسن به الظن ، ونحو ذلك .

فليس لأحد أن يبتدع دينًا لم يأذن به الله ويقول : هذا يحبه الله ؛ لأنه يوصل إلى محبوب الله ،بل هذه الطريق بدل دين الله وشرائعه ،وابتدع الشرك وكل ما لم ينزل به سلطانًا ،وكل ما فى الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة ومشايخ الطريق من الحض على اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، ونهى عن غيره ، فهو لأجل هذا قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] وهو الخالص لله الموافق لأمره ،كما قاله الفضيل بن عياض وغيره[٢] .

الطريق إلى الله عز وجل

إن الله لا يصل إليه أحد إلا من الطريق التى فتحها ونهجها على ألسن رسله ونصبها لعباده ، وسد جميع الطرق إليه دونها ، فلم يفتح لأحد قط إلا من تلك الطريق ، فالسالك من غيرها لا يصل إليه أبدا ،وكل من لم يصل إليه فهو واصل إلى سقر . قال أبو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريق رسول الله ﷺ . وقال : يقول

= السنة ، وابن ماجه (١٤) فى المقدمة ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه كلهم بلفظ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . والحديث باللفظ المذكور فى تفسير القرطبى (٣٦٧/١) ، وفى صحيح البخارى (٣ / ٩١) فى البيوع ، باب: النجش فى الترجمة .

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٥) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٢٧٦) .

الله عز وجل : « وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » (١) (٢) .

أنواع المحبة

المحبة أنواع متعددة :

فأفضلها وأجلها : المحبة فى الله ولله ، وهى تستلزم محبة ما أحب الله ، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها : محبة الاتفاق فى طريقة ، أو دين ، أو مذهب ، أو نحلة، أو قرابة ، أو صناعة ، أو مراد ما .

ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب ؛ إما من جاهه أو من ماله ، أو من تعليمه وإرشاده ، أو قضاء وطر منه ، وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها ، فإن من وَدَّك لأمر ، ولَّى عنك عند انقضائه .

وأما محبة المشاكل والمناسبة التى بين المحب والمحبوب ، فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها (٣) .

حقيقة محبة الله عز وجل

قال أبو بكر الكتانى : جرت مسألة فى المحبة بمكة ـ أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًا . فقالوا : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته ،وصفا شربه من كأس وُدِّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ،وإن نطق فعن الله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ولله ،ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جزاك الله ياتاج العارفين (٤) .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٩) .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٧٠) .

(٤) مدارج السالكين (٣ / ١٦) .

سير العارف إلى الله عز وجل

قال شيخ الإسلام : العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل [١] .

وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : العارف لا يرى له على أحد حقًا ولا يشهد له على غيره فضلا ؛ ولذلك لا يعاب ،ولا يطالب ولا يضارب [٢] .

تعظيم الله عز وجل

من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه ،عظمت عنده مخالفته [٣] .

حجب القلب عن الله عز وجل

الحُجُب عشرة :

حجاب التعطيل ، ونفى حقائق الأسماء والصفات ، وهو أغلظها ، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجَر أن يصعد إلى فوق .

الثانى : حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله .

الثالث : حجاب البدعة القوليّة ، كحجاب أهل الأهواء ، والمقالات الفاسدة على اختلافها .

الرابع : حجاب البدعة العملية ، كحجاب أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم .

---

(١) الوابل الصيب (٩) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٢٣) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ١٤٤) .

الخامس : حجاب أهل الكبائر الباطنة ، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد ، والفخر والخيلاء ونحوها .

السادس : حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة ، مع كثرة عباداتهم ، وزهاداتهم ، واجتهاداتهم .فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك ؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها فى قوالب عبادة ومعرفة ، فأهل الكبائر الظاهرة : أدنى إلى السلامة منهم ، وقلوبهم خير من قلوبهم .

السابع : حجاب أهل الصغائر .

الثامن : حجاب أهل الفضلات ، والتوسع فى المباحات .

التاسع : حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته .

العاشر : حجاب المجتهدين السالكين ، المشمرين فى السير عن المقصود .

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحول بينه وبين هذا الشأن . وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر : عنصر النفس ، وعنصر الشيطان ، وعنصر الدنيا ، وعنصر الهوى ، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب البتة .

وهذه الأربعة العناصر تفسد القول ، والعمل ، والقصد ، والطريق ، بحسب غلبتها وقلتها ، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب . وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب . فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك . وفى هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون؛ فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه ، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] ، فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيدًا فى إيمانه ويقينه ، ومعرفته وعقله ، وجَمَّلَ به ظاهره وباطنه ، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال ، وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال . وأقام الله ـ سبحانه ـ من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه ، فيحارب الدنيا بالزهد فيها ، وإخراجها من قلبه ، ولا يضره أن تكون فى يده وبيته ، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة ، يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعى الهوى ، فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ، ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق ،

والوقوف معه،بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص .

هذا كله إذا وجد العمل منفذًا من القلب إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وإن دار فيه ولم يجد منفذًا وَثَبَتْ عليه النفس ،فأخذته وصيرته جندًا لها،فصالت به وعَلَتْ وطغت، فتراه أزهد ما يكون ، وأعبد ما يكون ، وأشده اجتهادًا ،وهو أبعد ما يكون عن الله ، وأصحاب الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السجاد العباد ، الزاهد الذى بين عينيه أثر السجود ،كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبى ﷺ ،وأورث أصحابه احتقار المسلمين ،حتى سلوا عليهم سيوفهم ، واستباحوا دماءهم .

وانظر إلى الشريب السكير ، الذى كان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبى ﷺ ، فيحده على الشراب ، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ، ومحبته لله ورسوله ، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته .

فظهر بهذا : أن طغيان المعاصى أسلم عاقبة من طغيان الطاعات .

وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد : « أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى موسى ﷺ: يا موسى ، أنذر الصديقين ، فإنى لا أضع عدلى على أحد إلا عذبته ، من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين ؛ فإنه لا يتعاظمنى ذنب أن أغفره »(١) .

ما يسأل عنه الأولون والآخرون

قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون :

ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ (٢) .

التوكل على الله عز وجل

مَنْ صدق توكله على الله فى حصول شىء ناله ، فإن كان محبوبًا له مرضيًا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ،وإن

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعته، والله أعلم (١) .

وأيضًا

لو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله(٢) .

الأخذ بالأسباب

الالتفات إليها (٣) بالكلية شرك مناف للتوحيد ، وإنكار أن تكون أسبابًا بالكلية قدح فى الشرع والحكمة ، والإعراض عنها ـ مع العلم بكونها أسبابًا ـ نقصان فى العقل ، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض وشهود الجمع فى تفرقها والقيام بها : هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة (٤) .

وأيضًا

مصالح الدنيا والآخرة وإن كانت مفروغا منها قضاء وقدرا ، فهى منوطة بأسبابها التى يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا (٥) .

كلام الله عز وجل

قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلمًا أو يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد ﷺ ، بل ورسالة جميع الرسل التى حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى (٦) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١١٤) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٨١) .
(٣) أى : الأسباب .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٢٤٤) .
(٥) طريق الهجرتين (٣٤١) .
(٦) مدارج السالكين (١ / ٧٠) .

وأيضا

الشافعى أخذ عن إسماعيل بن علية وهو من أكبر شيوخه ، وأما ابنه إبراهيم تلميذ عبد الرحمن بن كيسان الأصم فكان الشافعى يذمه ويقول فيه : « أنا مخالف لابن علية فى كل شىء حتى فى قول لا إله إلا الله ، فإنى أقول: لا إله إلا الله الذى كلم موسى من وراء حجاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله الذى خلق فى الهواء كلامًا أسمعه موسى ، وهذا هو الذى يذكر له أقوال شاذة فى الفقه وأصوله ، ويظن من لا علم عنده أنه إسماعيل وليس الأمر كذلك ، فإن أباه إسماعيل من أجل شيوخ الشافعى وأحمد وطبقتهما(١).

القَدَر

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده (٢) .

وأيضًا

الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لى فيه روزنة فتنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون مستسلمًا مع القدر(٣) .ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم (٤) .

الشفاعة

ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لا شفاعة إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله (٥) .

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٥٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤١٠) .
(٣) من كلام الشيخ عبد القادر الكيلانى .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٩٩) .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

جنة الدنيا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة (١) .

وأيضًا

قال بعض العارفين : إنه ليمر بالقلب أوقات . أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا، إنهم لفى عيش طيب (٢) .

أطيب ما فى الدنيا

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ، أو نحو هذا من الكلام (٣) .

حظ العبد من الدنيا

كل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته مالاً كان أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً أو ذوقًا ، أو وجدًا (٤) .

ومن علاجها (٥) : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط ، فحظك منها ما أحدثته لك ، فاختر خير الحظوظ أو شرها ، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا ، كتب فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا فى ترك واجب ، أو فعل محرم ،كتب فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية ، وعدم صبر، كتب فى ديوان المغبونين ،وإن أحدثت له اعتراضًا على الله ، وقدحًا فى حكمته ، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله ، كتب فى ديوان الصابرين، وإن

(١ ـ ٣) مدارج السالكين (١ / ٤٥٤) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٩٥) .

(٥) أى : المصيبة .

أحدثت له الرضى عن الله ، كتب فى ديوان الراضين ، وإن أحدثت له الحمد والشكر، كتب فى ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين ،وإن أحدثت له محبة واشتياقا إلى لقاء ربه ، كتب فى ديوان المحبين المخلصين .

وفى مسند الإمام أحمد ، والترمذى ، من حديث محمود بن لبيد يرفعه : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » (١) . زاد أحمد : « ومن جزع فله الجزع » (٢) .

قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام ، سلا سلو البهائم ،وفى الصحيح مرفوعاً :« الصبر عند الصدمة الأولى » (٣) .وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتسابًا ، وإلا سلوت سلو البهائم (٤) .

إن المصيبة كير العبد الذى يسبك به حاصله ، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبيثًا كله ، كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لا بد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل (٥) .

مصائب الدنيا

قال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس (٦) .

---

(١) الترمذى : (٢٣٩٦) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الصبر على البلاد ، وقال :« حسن غريب » ، واللفظ له، وأحمد (٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ١٩٤) فى الجنائز ، باب : فيمن يبتلى : «رجاله ثقات » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٩٢ ، ١٩٣) .

(٣) البخارى : (١٣٠٢) فى الجنائز ، باب : الصبر عند الصدمة الأولى ومسلم (٩٢٦ / ١٤) فى الجنائز ، باب : فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، والترمذى (٩٨٨) فى الجنائز ، باب : ما جاء أن الصبر فى الصدمة الأولى .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٩٣) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٩٤ ، ١٩٥) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ١٩٢) .

اقتفاء هدى النبى ﷺ

مصباح الموحد السالك على درب الرسول وطريقه : يتوقد ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ [النور : ٣٥] (١).

وأيضًا

الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ (٢) .

وأيضًا

إذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه ، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم ، ولم تؤت مفاتحه بعد . هذا فى حق نفسك، وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحى ، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص ، فمالهم تفعل ذلك فلست على شيء ، ولو . . . ولو . . . وهذا لاخلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعى ـ قدس الله روحه : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ : لم يحل له أن يدعها لقول أحد (٣) .

عصمة النبى ﷺ

إن كل واحد ـ غير المعصوم ﷺ ـ فمأخوذ من قوله ومتروك ، وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك (٤).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٠٠) .

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٩) .

فصاحة النبى ﷺ

العرب أفصح الأمم ، وقريش أفصح العرب ، وهو (١) فى نفسه كان أفصح قريش على الإطلاق (٢) .

الحق فيما جاء به النبى ﷺ

الشبلى ومن هو أكبر من الشبلى من الشيوخ لابد من عرض أحواله وأقواله على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، فيقبل منها ما وافق الحق ، ويرد منها ما خالفه، وما احتمل الأمرين جعل من المحتملات التى لا تقبل مطلقًا ولا ترد مطلقًا ، وبهذا الميزان يوزن كلام من دون رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله كائنًا من كان (٣) .

وأيضًا

مدار الأمر كله على المتابعة للشريعة النبوية فى الأقوال والأفعال والنيات ، فمهما ثبت أنه قد قاله أو فعله فهو الحق الذى لا معدل عنه ولاحق وراءه ، وما لم يقله ولم يفعله فهو من البدع التى قال ﷺ :« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ،فإن كل محدثة بدعة ،وكل بدعة ضلالة » (٤)، وفى لفظ : « وكل ضلالة فى النار » (٥) ، وثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال: « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٦) ، وروى عنه أنه ﷺ قال : « ما تركت شيًا يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به ، وما تركت شيئًا يباعدكم عن النار إلا وقد بينته لكم» (٧)، وعنه قال :

---

(١) أى : النبى ﷺ .
(٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥١) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٢٦) .
(٤) أبو داود : (٤٦٠٧) فى السنة ، باب : فى لزوم السنة ، والترمذى (٢٦٧٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤٢) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وأحمد ٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٥) أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) فى الكتب والأبواب السابقة ، وأحمد (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧) . .
(٦) سبق تخريجه ص ٣٤٩ برقم (٥) .
(٧) عبد الرزاق : (٢٠١٠٠) فى باب : القدر مرسلاً .

«تركتكم على البيضاء ، ليلها ونهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] ، وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور : ٦٣] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ الآية [آل عمران : ٣١](٢) .

وأيضًا

كل من بعد رسول الله ﷺ يجب عرض أقواله وأفعاله وأحواله على ما جاء به الرسول ، فإن كانت مقبولة لديه قبلت وإلا ردت . فأبى الظالمون المفتنون إلا عرض ما جاء به الرسول ﷺ على أقوال الشيوخ وطريقتهم فأضلهم ، فعم بذلك المصاب ، وعظمت المحنة ، واشتدت الزرية ، واشتدت غربة الدين وأهله ، وظن بهم الجاهلون أنهم هم أهل البدع ، وأصحاب الطرائق والآراء هم أهل السنة ، ويأبى الله إلا أن يقيم دينه ويتم نوره ، ويعلى كلماته وكلمات رسوله ، وينصر حزبه ولو كره المبطلون (٣) .

وأيضًا

قيل لبعض الإعراب ـ وقد أسلم لما عرف دعوته ﷺ : عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ﷺ ؟ قال : « ما أمر بشىء فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته أمر به ،ولا أحل شيئًا فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا فقال العقل : ليته أباحه » (٤) .

فضل صحابة النبى ﷺ

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص شىء على استنباط أحاديث رسول الله ﷺ من القرآن ، ومن ألزم نفسه ذلك وقرع بابه ووجه قلبه إليه واعتنى به بفطرة سليمة وقلب ذكى ، رأى

---

(١) ابن ماجه (٥) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ و (٤٣) باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وأحمد (٤ / ١٢٦) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤٧٤) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (١٤٥) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٣٥) .

السنة كلها تفصيلاً للقرآن ، وتبيينا لدلالته ، وبيانا لمراد الله منه ، وهذا أعلى مراتب العلم فمن ظفر به فليحمد الله ، ومن فاته فلا يلومن إلا نفسه وهمته وعجزه (١) .

وأيضًا

وقد قال بعض السلف: مثل أصحاب محمد مثل العين ، ودواء العين ترك مسها (٢) .

الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم

قد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]،وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :« من كان منكم مُسْتنًا فليستَن بمن قد مات ،فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد: أبَرُّ هذه الأمة قلوبًا ،وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ،قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ،فاعرفوا لهم حقهم ،وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

فلا تجد هذا التكلف الشديد ، والتعقيد فى الألفاظ والمعانى عند الصحابة أصلا.

وإنما يوجد عند من عَدَل عن طريقهم ، وإذا تأمله العارف وجده :« كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل »،فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة ، ويأتى بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلا طائلا ، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طِحنًا ، فالمتكلمون فى جعاجع الجواهر والأعراض والأكوان والألوان ، والجوهر الفرد ، والأحوال والحركة والسكون ، والوجود والماهية والانحياز،والجهات والنسب والإضافات،والغيرين والخلافين،والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف ،والعرض هل يبقى زمانين ؟ وما هو الزمان والمكان ؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان ،ويعترف بأنه لم يعرف الوجود : هل هو ماهية الشىء ، أو زائد عليها ؟ ويعترف : أنه شاك فى وجود الرب : هل هو وجود محض ، أو وجود مقارن للماهية ؟ ويقول : الحق عندى الوقف فى هذه المسألة .

---

(١) زاد المعاد (٥ / ١٢٨) .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٠٩) .

ويقول أفضلهم ـ عند نفسه ـ عند الموت : أخرج من الدنيا وما عرفت إلا مسألة واحدة، وهى أن الممكن يفتقر إلى واجب . ثم قال : الافتقار أمر عدمى ، فأموت ولم أعرف شيئًا . وهذا أكثر من أن يذكر،كما قال بعض السلف : أكثر الناس شكا عند الموت : أرباب الكلام .

وآخرون أعظم تكلفًا من هؤلاء وأبعد شىء عن العلم النافع ، وهم : أرباب الهيولى والصورة والاصطقصات ،والأركان والعلل الأربعة ، والجواهر العقلية ، والمفارقات ، والمجردات ،والمقولات العشر ،والكليات الخمس ،والمختلطات والموجهات ، والقضايا المسوارات ، والقضايا المهملات . فهم أعظم الطوائف تكلفًا ، وأقلهم تحصيلا للعلم النافع والعمل الصالح .

وكذلك المتكلفون من أصحاب الإرادة والسلوك ، وأرباب الحال والمقام ،والوقت والمكان ، والبادى والباده والوارد ،والخاطر والواقع والقادح واللامع ، والغيبة والحضور، والمحق والحق ،والسكر ،واللوائح والطوالع ،والعطش ، والدهش ،والتلبيس ، والتمكين والتلوين ،والاسم والرسم ، والجمع وجمع الجمع ، وجمع الشواهد وجمع الوجود ، والأثر ،والكون ،والبون،والاتصال والانفصال،والمسامرة والمشاهدة،والمعاينة ، والتجلى ، والتخلى،وأنا بلا أنا ،وأنت بلا أنت،ونحن بلا نحن،وهو بلا هو . وكل ذلك أدنى إشارة إلى تكلف هؤلاء الطوائف وتنطعهم .

وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه . فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم ، موقوفون على ما عندهم ، خاضوا ـ بزعمهم ـ بحار العلم ، وما ابتلت أقدامهم . وكدوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم ، وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم ، فرحين بما عندهم من العلوم راضين بما قيدوا به من الرسوم . فهم فى واد ورسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ فى واد ، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم ، بل قصرنا فيما ينبغى لنا أن نقوله ، فذكرنا غَيضا من فيض ، وقليلا من كثير .

وهؤلاء كلهم داخلون تحت الرأى ، الذى اتفق السلف على ذمه وذم أهله . فهم أهل الرأى حقا ، الذين قال فيهم عمر بن الخطاب ﷺ : « إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا » ، وقال أيضا : « أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها ،وتفلتت عليهم أن يرووها ، فاشتغلوا عنها بالرأى »،وقال أبو بكر الصديق ﷺ : « أى أرض تُقِلُّنى ؟ وأى سماء تُظِلنى؟ إن قلت

فى كتاب الله برأيى ، أو بما لا أعلم » ، وقال عمر رضي الله عنه : « يا أيها الناس ، إن الرأى كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبًا ؛ لأن الله عز وجل كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف» ،وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ،ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يرد ما هو على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل » ، وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس ، اتهموا رأيكم على الدين ، فقد رأيتُنى ، وإنى لأرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيى ، أجتهد . والله ما آلو ذلك يوم أبى جَنْدَل والكتاب يكتب،فقالوا : تكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيت ، فقال : « يا عمر ، ترانى قد رضيت وتأبى ؟ » (١) وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رويناه من طريق مسدد حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرنى سليمان بن عتيق ، عن طلق بن حبيب ، عن الأحنف ابن قيس ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون » (٢) فإن لم تكن هذه الألفاظ والمعانى التى تجدها فى كثير من كلام هؤلاء تنطعًا فليس للتنطع حقيقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم » (٣) .

فضل الصديق رضي الله عنه

ما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل ، وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه ، ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه (٤) .

مكانة السلف

لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم ولو بزر لهم هديهم وحالهم لأنكروه ولعدوه سلوكًا

---

(١) الطبرانى فى الكبير (١ / ٧٢ (٨٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٨٤) فى العلم ، باب فى القياس والتقليد : « رواه أبو يعلى ، ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة » ، وقلت : « ولم أقف عليه عند أبى يعلى » .

(٢) مسلم (٢٦٧٠ / ٧) فى العلم ، باب : هلك المتنطعون ، وأبو داود (٤٦٠٨) فى السنة ، باب فى لزوم السنة ، وأحمد (١ / ٣٨٦) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٦ ـ ٤٣٩) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .

عاميًا وللخاصة سلوك آخر كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم : « إن القوم كانوا أسلم ، وإن طريقنا أعلم » ، وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه : « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه ، اشتغالاً منهم بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه » .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم ، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم .وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها ،وضبط قواعدها ،وشد معاقدها ،وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء .

فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن و﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] (١).

وأيضًا

للسلف غَوْرٌ ودِقَّة فَهْمٍ ، لا يدركها كثير من المتأخرين (٢) .

الاستغفار

قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا : سئل بعض أهل العلم : أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دنسا فالصابون والماء الحار أنفع له ، فقال لى رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ ! (٣) .

وأيضًا

قد قيل :علامة رضى الله عنك :إعراضك عن نفسك ،وعلامة قبول عملك :احتقاره واستقلاله وصغره فى قلبك ، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ، ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل ،وشرع النبى ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) . (٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٢) .

(٣) الوابل الصيب (١٨٨) .

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه ، لم يجد بدًا من استغفار ربه منه ، واحتقاره إياه ،واستصغاره [١] .

التوبة

أكثر الناس لا يعرفون قدر « التوبة » ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علمًا وعملا وحالاً ، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه[٢] .

وأيضًا

لا ينجى من هذا [٣] إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان أن النبى ﷺ قال: « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » [٤] [٥].

الإخلاص

قيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء ، والعمل من أجل الناس : شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما [٦] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٦) .
(٣) إشارة إلى تأخير التوبة .
(٤) البخارى فى الأدب المفرد (٧١٦) ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، باب : الشرك ، والدر المنثور (٤ / ٥٤) ، وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٢٧٣) .
(٦) مدارج السالكين (٢ / ٩١) .

وأيضا

إذا غُرست شجرة المحبة فى القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت فى قرار القلب ، وفرعها متصل بسدرة المنتهى (١) .

وأيضا

من لم يكن الله مراده أراد ما سواه ، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ، ومن لم يكن عمله لله فلا بد أن يعمل لغيره . وقد تقدم هذا (٢) .

وأيضا

قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة (٣) .

المراقبة

أرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى فى الخواطر سبب لحفظها فى حركات الظواهر ، فمن راقب الله فى سره حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته (٤) .

وأيضا

قال أبو حفص لأبى عثمان النيسابورى : إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٩) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٧) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٨٣) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .

ونفسك،ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ،والله يراقب باطنك [١] .

الصبر

قد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه بالصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: « الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه » [٢] .

وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ،فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى ،معها دواعى الموافقة ، فإنه كان شابا ، وداعية الشباب إليها قوية ، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته ، وغريبًا ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكًا ، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهى سيدته ،وقد غاب الرقيب ،وهى الداعية له إلى نفسها ،والحريصة على ذلك أشد الحرص ،ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعى كلها :صبر اختيارا وإيثارًا لما عند الله ، وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه ؟

وكان يقول :الصبر على أداء الطاعات :أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإن مصلحة فعل الطاعة : أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة : أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية [٣] .

وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : بالصبر واليقين تنال

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٦٠) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٥٦) .

الإمامة فى الدين ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] (١) .

وأيضا

إن حال الصبر حال المحافظ على الصحة والقوة ، وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم (٢) .

الصدق

الشطحات ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ، ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ،ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول ﷺ (٣) .

وأيضا

إن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له؛ ولأنه قد قربها له قربانا ،ومن قرب قرباناً فتقبل منه ، ليس كمن رد عليه قربانه ، فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه (٤) .

صدق الطلب

قال بعض الصادقين : انفرادك فى طريق طلبك : دليل على صدق الطلب ، وقال آخر : لا تستوحش فى طريقك من قلة السالكين ، ولا تغتر بكثرة الهالكين (٥) .

التواضع

النفس قرينة الشيطان ومصاحبته ، وتشبهه فى صفاته . ومواهب الرب تبارك وتعالى

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٥٤) .

(٢) عدة الصابرين (١٥٠) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٧) .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ٥) .

تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب : وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها الجاهل بها : يدعها تستوفى ذلك ، فبينا هو فى موهبة القلب والروح وعدة وقوة له ، إذا صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدراً من المال بما لا نسبة بينهما : من علم أو حال أو معرفة أو كشف ؟ فإذا صار ذلك من حاصلها : انحرف العبد به ـ ولابد ـ إلى طرف مذموم من جرأة أو شطح أو إدلال ونحو ذلك .

فوالله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول : من أين أتيت ؟ ومن أين دهيت ؟ ومن أين أصبت ؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك : أن يغلق عنه باب المزيد ؛ ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر : إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة وأعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قُربوس سرجة : انخفاضا وإنكساراً وتواضعاً لربه تعالى فى مثل تلك الحال التى عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكها سرورها ، وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : من صان فتحه ونصيبه من الله ، وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به، والعاجز : من جاد لها به . فياله من جود ما أقبحه ، وسماحة ما أسفه صاحبها ، والله المستعان (١) .

وأيضا

لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيرا : مالى شىء ،ولا منى شىء، ولا فىَّ شىء ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت.

أنا المُكَدّى وابن المكدى   وهكذا كان أبى وجدى

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٤) .

وكان إذا أثنى عليه فى وجهه يقول : واللّه ، إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيدا .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطة ، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير إن يأتنا من عنده يأتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرات
وليس لى دونه مولًى يُدَبِّرنى ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء فى الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهير له ، كى يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلق أجمهم ... وكلهم عنده عبد له آتى
فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله مِلء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قديأتى [1]

الشكر

الشكر قيد النعم [2].

النصيحة

من دقيق الفطنة : أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ فتحمله رتبته على نصره الخطأ وذلك خطأ ثان ، ولكن تلطف فى إعلامه به حيث لا يشعر به غيره [3] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢٤ ـ ٥٢٥) .
(٢) عدة الصابرين (١٢٢) .
(٣) الطرق الحكمية (٤٠) .

الفراسة

لولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضه الوهم والخطأ : لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم ، ولا نجرى معهم فى مضمارهم ، ونراهم فوقنا فى مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدرارى ، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأى فى كلامنا زيغًا أو نقصًا وخطأ ، فليهد إلينا الصواب ، ونشكر له سعيه،ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم ، والله أعلم وهو الموفق (١).

وأيضا

قال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ ، ويقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته (٢) .

وأيضا

قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته : ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ [يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى : ﴿**اسْتَأْجِرْهُ**﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر فى عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه . وفى رواية أخرى ، وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ [القصص : ٩] (٣) .

الزهد

قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٣٧) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٤) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٥) .

والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين (١) .

وأيضا

العاقل يقف على البساط ويحذر من الانبساط ، وهـذا شأن عـقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم : إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم ، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجم عليهم. وقال كعب بن زهير فى مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم   قومًا وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا (٢)

وأيضا

مِنْ أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن أو غيره : ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة ـ إذا أصبت بها ـ أرغب منك فيها لو لم تصبك . فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه (٣) .

وأيضا

متى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان فى قلبك ضرك، ولو لم يكن فى يدك منه شىء . قيل للإمام أحمد : أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت ؛ ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال (٤) .

حسن الخلق

حُسْن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر والعفة

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٤) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٣) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٦٥) .

والشجاعة والعدل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالى الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم ، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال النبى ﷺ: « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١). وهو حقيقة الشجاعة ، وهى ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل : يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط . فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة (٢) .

وأيضا

قال صاحب المنازل : « الخلق : ما يرجع إليه المتكلف من نعمته » ، أى خلق كل متكلف : فهو ما اشتملت عليه نعوته . فتكلفه يرده إلى خلقه ، كما قيل :

إن التخلق يأتى دونه الخلق

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته : يرجع إلى شيمته ونعته وسجيته (٣) .

---

(١) البخارى (٦١١٤) فى الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر والصلة والآداب، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب ، وأحمد (٢ / ٢٣٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣١٦) .

المجاهدة

من ترك المجاهد بالكلية ضعف فيه باعث الدين ،وقوى فيه باعث الشهوة . ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد [١] .

فضل الصمت

الكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره [٢] .

وأيضا

لو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف [٣] .

اللسان ينبئ عن القلب

قال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها . فانظر إلى الرجل حين يتكلم ، فإن لسانه يغترف لك مما فى قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه [٤] .

آفات اللسان

أكثر آفات الناس من الألفاظ ، ولا سيما فى هذه المواضع التى يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه والتعبير المطابق ، فيتولد من ضعف التصور وقصور التعبير : نوع تغبيط ، ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم ، بحسب قصورهم وبعدهم من العلم فتفاقم الخطب وعظم الأمر ، والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة الملحدين [٥] .

(١) عدة الصابرين (٨١) .
(٢) الداء والدواء (٢٨١) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٢١) .
(٤) الداء والدواء (٢٧٦) .
(٥) مدارج السالكين (٣ / ٧٨) .

حسن اختيار الألفاظ

الأوْلى العدول عن لفظ « المسامرة » [١] إلى « المناجاة » ، فإنه اللفظ الذى اختاره رسول الله ﷺ فى هذا . وعبر به عن حال العبد بقوله :« إذا قام أحدكم فى الصلاة فإنه يناجى ربه » [٢] ،وفى الحديث الآخر : « كلكم يناجى ربه ، فلا يجهر بعضكم على بعض» [٣] ، فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ فإنها معصومة وصادرة عن معصوم ، والإجمال والإشكال فى اصطلاحات القوم وأوضاعهم وبالله والتوفيق [٤] .

وأيضا

إياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التى وقع اصطلاح القوم عليها ، فإنها أصل البلاء وهى مورد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ «اتصال وانفصال ومسامرة ومكالمة ، وأنه لا وجود فى الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره » فاسمع منه ما يملك الآذان من حلول واتحاد وشطحات .

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها ، وأرادوا بها معانى صحيحة فى أنفسها ، فغلط الغالطون فى فهم ما أرادوه ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم ، واتخذوا كلماتهم المتشابهة ترسًا لهم وجنة حتى قال قائلهم :

ومنك بدا حب بعز تمازجا   بنا ووصالا كنت أنت وصلته

ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه   وكان بلا كون لأنك كنته

فيسمع الغر « التمازج والوصال » فيظن أنه ـ سبحانه ـ نفس كون العبد فلا يشك أن هذا هو غاية التحقيق ونهاية الطريق [٥] .

---

(١) بمعنى : مناجاة القلب ربه .

(٢) البخارى (٥٣١) فى مواقيت الصلاة ، باب : المصلى يناجى ربه عز وجل .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١٢ / ٤٢٨ (١٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٦٨) فى الصلاة، باب : الجهر بالقرآن وكيف يقرأ : « وفيه محمد بن أبى ليلى وفيه كلام ، قلت : وفى الصحيح منه الاعتكاف » .

(٤) مدارج السالكين (٣ / ٩٩) .

(٥) مدارج السالكين (٣ / ١٥١) .

كلام الأولين والآخرين

كلامهم [١] قليل فيه البركة ، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة [٢] .

قبول الكلام أو رده

أكثر العقول كما عهدت تقبل القول بعبارة وترده بعينه بعبارة أخرى [٣] .

الفتوّة

قال الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية ابنه عبد الله عنه وقد سئل عن الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه [٤] .

الهمة

ولله الهمم : ما أعجب شأنها ، وأشد تفاوتها فهمة متعلقة بمن فوق العرش وهمة حائمة حول الأنتان والحش ، والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، والخاصة تقول : قيمة المرء ما يطلبه ، وخاصة الخاصة تقول : همة المرء إلى مطلوبه .

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم ، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ : « سلنى » فقال : أسألك مرافقتك فى الجنة [٥] .

وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه أو يوارى جلده .

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها ، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها فى طاعة ربه تعالى ، فأبت له تلك الهمة العالية أن يتعلق منها

---

(١) أى أئمة الطريق أمثال أبى سليمان الدارانى وسهل بن عبد الله التسترى .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣ / ٩٤٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٤١) .

(٥) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه ، وأبو داود (١٣٢٠) فى الصلاة ، باب: وقت قيام النبى ﷺ من الليل ، والنسائى (١١٣٨) فى التطبيق ، باب فضل السجود ، وأحمد ٤ / ٥٩ .

بشئ مما سوى الله ومحابه ، وعرض عليه أن يتصرف بالملك فأباه ، واختار التصرف بالعبودية المحضة ، فلا إله إلا الله خالق هذه الهمة ، وخالق نفس تحملها ، وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات (١) .

وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فى بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى : « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى همته » .

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن ،والخاصة تقول قيمة كل امرئ ما يطلب ، يريد : أن قيمة المرء همته ومطلبه » (٢) .

وأيضا

من لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر فإنه لا وقوف فى الطبيعة ولا فى السير ، بل إما إلى قدام وإما إلى وراء ، فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه ، ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه (٣) .

محاسبة النفس

هذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة ، المحدث المكاشف عمر رضي الله عنه لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شيء من أمور الدين حتى ، ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : « ولو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ، ويقول : « أيها الناس ، رجل أخطأ ، وامرأة أصابت » ، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة (٤) .

وأيضا

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٤٧) .
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٧٧) .
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٩٦) .

نفسك فتكون لها أشد مقتًا (١) .

وأيضا

قال الحسن ﷺ : إن المؤمن ـ بالله ـ لا تراه إلا قائماً على نفسه : ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكله ؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ؟ ما أردت بهذا ؟ مالى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا ، ونحو هذا من الكلام (٢) .

وأيضا

كلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله ، وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قَلَّت وصغرت عند الله وسيئاتك بالعكس . ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده وصغرت جداء فى عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه (٣) .

أعز الخَلْق

يذكر عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد ، وفقيه صوفى، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سنى .

وقال عروة بن الزبير ﷺ : رأيت عمر بن الخطاب ﷺ على عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا ينبغى لك هذا . فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسى نخوة فأردت أن أكسرها .

وولى أبو هريرة ﷺ إمارة مرة ، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره ، ويقول : طرقوا للأمير .

وركب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عم رسول الله ؛ فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال : أرنى يدك . فأخرجها إليه فقبلها . فقال : هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥١٠) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٦٥) .

وقسم عمر بن الخطاب ﷺ بين الصحابة رضى الله عنهم حللاً ، فبعث إلى معاذ حلة مثمنة فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم . فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها . فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك؟ ادفع لى نصيبى ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر ﷺ : رأسى بين يديك . وقد يرفق الشاب بالشيخ .

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه . فنزل فأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله . فأطعمهم وكساهم وقال : اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر منه .

ويذكر أن أبا ذر ﷺ عير بلالا ﷺ بسواده،ثم ندم فألقى بنفسه . فحلف : لا رَفَعْتُ رأسى حتى يطأ بلال خدى بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال .

وقال رجاء بن حيوية : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو يخطب ـ باثنى عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة .

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشى مشية منكرة . فقال : تدرى بكم شريت أمك ؟ بثلاثمائة درهم وأبوك ـ لا كثَّر الله فى المسلمين مثله ـ أنا ـ وأنت تمشى هذه المشية ؟ (١).

أعقل الخَلْق

إن أعقل الخلق على الإطلاق الرسل ، وأتباعهم بعدهم أعقل الأمم ، وأهل الكتاب والشرائع الكبار أعقلهم ، وأعقل هؤلاء المسلمون ، وأعقل المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، وأهل السنة والحديث أعقل الأمة بعدهم على الإطلاق (٢) .

البصيرة

من له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه فى أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين ، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته ـ سبحانه ـ وربوبيته وعزته وحكمته ،وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره ،وهذا يقين

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠) . (٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥١٤) .

الإيمان، وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله [١] .

وأيضا

إنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام « البصيرة » ؛ لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع والغضب على من أضاعه ، فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه وذلك عين البصيرة ، فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال معم لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله ـ إذا ضيعت ومحارمه إذا انتهكت ـ مع العين البصيرة [٢] .

لسان العلم

الكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق ، وأقرب إلى الحجة والبرهان [٢].

الاطلاع والقراءة

يا أيها القارئ له والناظر فيه [٣] ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة المسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه ، وعلى مؤلفة غرمه ، ولك ثمرته وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك عذرا ، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح ، وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد ، وولى الملامة الرجلا [٤] .

المفلس من العلم

إن كل من اعتقد عقيدة وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة وجزم بما اعتقده ، تجلت له صورة معتقده فى عالم نفسه ، فيظن ذلك كشفاً صحيحاً . وإن كان صادقاً فى طلبه

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩٧) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٠) .
(٣) يقصد : كتاب طريق الهجرتين .
(٤) طريق الهجرتين (٧ ، ٨) .

وحبه لما اعتقده : كان له فيه حال وتأثير بحسبه ، فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به (١) .

ميزان المعرفة الصحيحة

العلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما (٢) .

نشر العلم

من كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر ، ولا يبادر إلى الإنكار . فكم بين الهدهد ونبى الله سليمان ؟ وهو يقول له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢](٣) .

القدح فى العلم

قال بعضهم : متى رأيت الصوفى الفقير يقدح فى العلم ، فاتهمه على الإسلام (٤) .

تحصيل العلم

قد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبة ، ومالت إليه العبادات ، واختلفت عليه الأقوال (٥) .

العلم والعلماء

قال الحسن البصرى : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت (٦) .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٠٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٥٢) .
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٢) .
(٥) مدارج السالكين (٢/ ٦) .
(٦) مدارج السالكين (١/ ٤٤١) .

اقتضاء العلم العمل

النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به (١) .

وأيضا

قال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى : فإذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به ،وإذا نهيت عن شىء فكن أول المنتهين عنه (٢) .

آفة العلوم

لا عبرة بجدل من قل فهمه ، وفتح عليه باب الشك والتشكيك فهؤلاء هم آفة العلوم وبلية الأذهان والفهوم (٣) .

فساد العالم

قال سفيان بن عيينة : من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه (٤) .

قيام الليل

قال محمد بن ابراهيم : رأيت الجنيد فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها فى الأسحار . وتذاكروا بين يديه أهل المعرفة وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه فقال : الجنيد : العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك (٥) .

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٦) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٧) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٧) .
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤) .
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٢١) .

وأيضا

قال عمر بن الخطاب ﷺ : « لو لا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر » .

يريد ﷺ : الجهاد والصلاة والعلم النافع وهذه درجات الفضائل . وأهلها هم أهل الزلفى والدرجات العليا .

قال معاذ ﷺ عند موته : « اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » (١) .

وأيضا

كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟ (٢) .

قيمة الوقت

إن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب وينقضى الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك، فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة]، ويقال للأشقياء ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر](٣) .

وأيضا

قال الشافعى ﷺ :صحبت الصوفية ، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ؛سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨١) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٩٦) .
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٥٠) .

بالباطل [١] .

الاجتهاد والتأويل

التأويل والاجتهاد من باب المعارض فى حق بعض الناس يدفع به عنه العقوبة كما يدفع بالتوبة والحسنات الماحية ،وهذا إنما هو لمن استفرغ وسعه فى طلب الحق ما استطاع [٢] .

وأيضا

الذين حضروا هذا اللهو [٣] متأولين من أهل الصلاح والزهد والخير، غمرت حسناتهم ما كان فيهم من السيئات ،والخطأ من هذا ومن غيره ، وهذا سبيل كل صالح فى هذه الأمة فى خطئه وزلله ، قال تعالى: **﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾** [الزمر] .

وهذا كالمتأولين من صالحى الكوفيين فى النبيذ المسكر وان كان خمرا ،وكذلك المتأولون من صالحى أهل مكة فى المتعة والصرف وإن كان سبيلهما سبيل الزنا والربا ،وهم من أبعد الناس عن ذلك ،وكذلك المتأولون فى حل بعض ما حرمه الشارع من الأطعمة من أهل المدينة وغيرهم ،وكذلك المتأولون فى مسألة حشوش النساء،وكذلك المتأولون فى القتال فى الفتنة إلى أمثال ذلك مما تأول فيه قوم من أهل العلم والدين ، من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مسموع أو عقد ونحو ذلك ، مما قد علم أن الله ورسوله حرمه لم يجز اتباعهم فى ذلك ،وإن كان مغفوراً لهم أو من السعى الذى يؤجرون عليه لاجتهادهم أجراً واحداً ، فالرب ـ سبحانه ـ يمحو السيئات بالحسنات ،ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات [٤] .

التقليد

إن المقلد المتعصب لا يترك من قلده ولو جاءته كل آية ، وأن طالب الدليل لا يأتم

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٢٩) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٠٣) .

(٣) أى السماع .

(٤) الكلام على مسألة السماع (٣٢٧) .

بسواه ، ولا يُحكم إلا إياه ، ولكل من الناس مورد لا يتعداه وسبيل لا يتخطاه ، ولقد عذر من حمل ما انتهت إليه قواه ، وسعى إلى حيث انتهت إليه خطاه [١] .

وأيضا

هذا منتهى أقدام الطائفتين فى هذه المسألة [٢] الضيقة المعترك الوعرة المسلك التى يتجاذب أعنة أدلتها الفرسان ، وتتضاءل لدى صولتها شجاعة الشجعان ، وإنما نبهنا على مأخذها وأدلتها ليعلم الغر الذى بضاعته من العلم مزجاة أن هناك شيئا آخر وراء ما عنده ، وأنه إذا كان ممن قصر فى العلم باعه فضعف خلف الدليل ،وتقاصر عن جنى ثماره ذراعه، فليعذر من شمر عن ساق عزمه ، وحام حول آثار رسول الله ﷺ وتحكيمها والتحاكم إليها بكل همة ،وإن كان غير عاذر لمنازعه فى قصوره ورغبته عن هذا الشأن البعيد فليعذر منازعه فى رغبته عما ارتضاه لنفسه من محض التقليد ، ولينظر مع نفسه أيهما هو المعذور ، وأى السعيين أحق بأن يكون هو السعى المشكور ، والله المستعان وعليه التكلان ، وهو الموفق للصواب الفاتح لمن أم بابه طالبا لمرضاته من الخير كل باب [٣] .

وأيضا

ليس التحاكم فى هذه المسألة [٤] إلى مقلد متعصب ولا هياب للجمهور ، ولا مستوحش من التفرد إذا كان الصواب فى جانبه ، وإنما التحاكم فيها إلى راسخ فى العلم قد طال فيه باعه ، ورحب بنيله ذراعه ، وفرق بين الشبهة والدليل ، وتلقى الأحكام من نفس مشكاة الرسول ، وعرف المراتب وقام فيها بالواجب ، وباشر قلبه أسرار الشريعة وحكمها الباهرة، وما تضمنته من المصالح الباطنة والظاهرة ، وخاض فى مثل هذه المضايق لججها ، واستوفى من الجانبين حججها ، والله المستعان ، وعليه التكلان [٥] .

غض البصر

قيل : الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده [٦] .

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٢٢١) .

(٢) أى مسألة : هل يقع الطلاق البدعى أم لا ؟

(٣) زاد المعاد (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) .

(٤) أى مسألة : وقوع الثلاث طلقات بكلمة واحدة .

(٥) زاد المعاد (٥/ ٢٩٦) .

(٦) الداء والدواء (٢٦٨) .

وأيضا

قد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات [١] .

الطاعة

كل من استعان به [٢] على أمره وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعا له عنه ولابد [٣] .

المعاصى بريد الكفر

قال بعض السلف « المعاصى بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت » [٤] .

الفرح بالمعصية

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها ، وعظم خطرها . ففرحه بها غطى عليه ذلك كله ، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلى قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام .

وهذا النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها وهى موضع مخوف جدًا ، ومترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره وتشمير للجد فى استدراكه [٥] .

---

(١) الداء والدواء (٢٦٩) .

(٢) أى : بالله عز وجل .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢٥)

(٥) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .

فضل الطاعات والمصائب

الطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات [١] .

عقوبة السيئة

مِنْ عقوبة السيئة ، السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها [١] .

أنواع المعاصى

المعاصى ثلاثة أنواع : نوع عليه حد مقدر فلا يجمع بينه وبين التعزير ، ونوع لاحد فيه ولا كفارة فهذا يردع فيه بالتعزير ، ونوع فيه كفارة ولاحد فيه كالوطء فى الإحرام والصيام . فهل يجمع فيه بين الكفارة والتعزير ؟ على قولين للعلماء وهما وجهان لأصحاب أحمد، والقصاص يجرى مجرى الحد فلا يجمع بينه وبين التعزير [٣] .

آثار الطاعة والمعصية

مَنْ له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد فى جوه ونباته وحيوانه، وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام ، والأمراض والأسقام ، والطواعين ، والقحوط ، والجروب ، وسلب بركات الأرض وثمارها ، ونباتها، وسلب منافعها ، أو نقصانها أموراً متتابعة يتلو بعضها بعضًا .

فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى : ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [الروم : ٤١] ، ونزل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت فى الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجوراً ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل فى أغذيتهم

(١) عدة الصابرين (١١٥) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٤)

(٣) زاد المعاد (٥ / ٢١) .

وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ،ما هو موجب أعمالهم ، وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هى اليوم،كما كانت البركة فيها أعظم . وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد فى خزائن بعض بنى أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل . وهذه القصة ، ذكرها فى « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ، حكمًا قسطًا ، وقضاء عدلاً ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله فى الطاعون : « إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل»[(١)] ، وكذلك سلط الله ـ سبحانه وتعالى ـ الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام ، ثم أبقى فى العالم منها بقية فى تلك الأيام ، وفى نظيرها عظة وعبرة .

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها فى هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء ، والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس فى المكاييل والموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم فى الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت فى صور ولاتهم ، فإن الله ـ سبحانه ـ بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها ، فتارة بقحط وجدب ، وتاره بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتاره بأمراض عامة ، وتاره بهموم وآلام وغموم تحصرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم توزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم ، فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون ، وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقب لحكمه، ولاراد لأمره ، وبالله التوفيق [(٢)] .

---

(١) البخارى (٣٤٧٣) فى أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) ، ومسلم (٢٢١٨ / ٩٢) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ، ومالك ٢ / ٨٩٦ (٢٣) فى الجامع ، باب : ما جاء فى الطاعون ،وشرح السنة للبغوى ٥ /٢٥٤ .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٦٢ ـ ٣٦٤) .

الغناء

من مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والباطلين : سماع المكاء والتَّصدية ، والغناء بالآلات المحرَّمة ، الذى يَصُدُّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان . فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رُقْيَة اللواط والزِّنا ، وبه يَنالُ العاشق الفاسق غاية المنى ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة ، وحَسَّنه لها مكرًا منه وغرورا ، وأوحى إليها الشبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وَحْيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا ، فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدةً إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشْوان ، وتكسَّرُوا فى حركاتهم ورَقصهم ،أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ، وقد خالطَ خمارُه النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيًّا الكؤوس ، فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوبٌ هناك تُمَزَّق ، وأثوابُ تُشَقَّق . وأموال فى غير طاعة الله تُنْفَق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أُمنيته وأَمَله ، واستفزَّهم بصوته وحَيْله ، وأجْلَب عليهم بِرجْله وخيلهِ وخَزَ فى صدورهم وَخزًا ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا ، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدَار ، وتارة كالدباب ترقصُ وسيط الديار .

فيارحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، وياسوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام ، بالدين يزعمون أنهم خواصٍّ الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربا، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا . مزامير الشيطان أحبٍّ إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرَّك له ساكنا ، ولا أزعج له قاطنًا ، ولا أثار فيه وَجْدًا . ولا قدح فيه من لواعِج الشوق إلى الله زَنْدًا ، حتى إذا تُلى عليه قرآنُ الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت .

فيا أيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان ، عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السَّنِيَّات ، عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرئ يَصْبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله ، والجنسيَّةُ علَّةُ الضّمِّ قدرا وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعا ، فمن أين هذا الإخاء والنسب ؟ لولا التعلقُ من الشيطان بأقوى

سبب ، ومن أين هذه المصالحة التى أوقعت فى عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا ؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠)﴾[1] [الكهف] .

المعازف

الذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب : أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان [2] .

السماع وآفاته

قال عارف القوم وسيدهم بلا مدافع الشيخ عبد القادر الكيلانى بعد ذكر آداب السماع : «ولو صدق القوم فى قصدهم وتجردهم وتصوفهم لما انزعجوا فى قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله عز وجل ، إذ هو كلام محبوبهم وصفته ، وفيه ذكره وذكرهم ، وذكر الأولين والآخرين ، والماضين والغابرين ، والمحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، وعتاب المدعين لمحبته ولومهم وغير ذلك ، فلما اختل قصدهم وصدقهم وظهرت دعواهم من غير بينة وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة من غير غريزة باطنة وصدق السريرة والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة ، والاطلاع على الأسرار ، والقرب والأنس ، والوصول إلى المحبوب ، والسماع الحقيقى وهو القرآن والحديث ، والكلام الذى سنه الله مع العلماء به والخلص من الأولياء والأبدال والأعيان ، وخلت بواطنهم من ذلك كله ، وقفوا مع القوال والأبيات والأشعار التى تثير الطباع ، وتهيج ثائرة العشق بالطباع لا بالقلوب والأرواح » ، فهذا كلام من خير السماع وعلم ما فيه من الآفات [3] .

وأيضا

تزندق بالسماع طوائف لا يحصيهم إلا الله ، كما تزندق بالكلام ، ولم يكن أضر على الأمة من هاتين الطائفتين أهل السماع وأهل الكلام ، وقد ذم الشافعى رحمه الله الطائفتين ، وبالغ فى ذمهم وشهد على إحداهما بأن طريقتهم من إحداث الزنادقة ، وحكم على الأخرى بأن تضرب بالجريد والنعال ويطاف بها فى القبائل والعشائر لعلمه ﷺ بالضرر

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (١٥٠) .

الداخل على الأمة والدين من الطائفتين ، وتلغى شهادة هذا الذائق للسماع بأن من أصغى إليه بنفس تزندق [١] .

وأيضا

ليس العجب من جاهل قلبه فى غطاد عن العلم لا يفرق بين ما فعل الرسول وما يفعله هؤلاء ، ولكن العجب ممن نصب نفسه للعلم والتأليف ، ويعد نفسه من الأئمة الهداة المرشدين لا يفرق بين هذا وهذا ، ويحتج على جواز الاستماع على الوجه المذكور بسماع صوت الزمارة وسماع غناء الجويريتين ، فهلا فعلتم مثل فعل الجويريات ، وأخذتم الدفوف وضربتهم بها فى الطرقات وغنيتم بغنائهن ، واقتصرتم على ذلك ولم تضموا إليه سائر المحرمات والقبائح ؟ فلو فعلتم ذلك مع قبحه لكان أسهل وأقل إثما وأدنى إلى الخلاص[٢].

وأيضا

مجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه ، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه ، بل بما يكرهه ويسخطه لا سيما القلوب التى أشربت حب الأصوات الملحنة ، فإنها تطيب بما ينبت النفاق فى القلب [٣] .

الغنى والفقر

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ، كما فى المسند عنه ﷺ قال :« يقول الله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى له ثانياً ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » [٤] . فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ، وإقامة حق عباده بالزكاة ، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين ، فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى ، فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره ،

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٩٩٩) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٦) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٤٥) .

(٤) أحمد ٥/ ٢١٩ .

وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك . فعطل الجاهل بالله ، وبأمر الله ، وبتوحيد الله ، وبأسمائه وصفاته ، جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ، وجمعه والاستكثار منه . ومع ذلك فلم يمتلئ ، بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله ، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد ، وكذلك العلم والملك والقدرة ، كل ذلك إن لم ينفعه ضره ، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر ، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها ، فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ، لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها .

فالأقسام أربعة لا خامس لها :

أحدهما : معطل الأسباب معرض عنها .

الثانى : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها .

الثالث : متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده ـ فهؤلاء الثلاثة فى الخسران .

الرابع : متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح ، قال تعالى : **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾** [هود] .

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس ؛ حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد ، ثم اختلفوا فى معناها ، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا ، فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب . قالوا : والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسَدَمه (١) ونبته وطلبه ، جازاه الله فى الدنيا

(١) السدم : الفهم ، أو مع ندم ، أو الغيظ مع حزن . (القاموس) .

بحسناته ، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها ، وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال هؤلاء : فالآية فى الكفار بدليل قوله : ﴿ **أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود] . قالوا : المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فى رواية أبى صالح عنه : نزلت فى أهل القبلة .

وقال مجاهد : هم أهل الرياء

وقال الضحاك : من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا .

واختار الفراء هذا القول وقال : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس .

وهذا القول أرجح ، ومعنى الآية على هذا : من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً ؛ فإن العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله ، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته . فأما من لم يرد بعمله وجه الله ، وإنما أراد به الدنيا وزينتها ، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان .

وهذا هو الذى فهمه معاوية من الآية ، واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة : القارىء الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ ، والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد ، والغازى الذى قتل فى الجهاد ليقال هو جرىء [١] [٢] .

وأيضا

إن الغنى وصف ذاتى للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ والفقر لى وصف ذات لازم أبداً ، كما الغنى أبداً وصف لله ذاتى [٣] .

---

(١) مسلم (١٩٠٥ / ١٥٢) فى الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

(٢) عدة الصابرين (٢٠٣ ـ ٢٠٥) . (٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠) .

البدعة

قال بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها [١] .

وأيضا

قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى[٢] .

وأيضا

قال شيخنا : تَزَوَّجَتِ الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة [٣] .

السنة والبدعة

إن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ولا تقوم لها ، وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمه كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » [٤] ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان [٥] .

---

(١) الداء والدواء (٢٥٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٢٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٢٢٣) .
(٤) البخارى (٦٦٨٩) فى الأيمان والنذور ، باب : النية فى الأيمان ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الاعمال .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٧٤) .

أقسام الصوفية

قد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق . قال :

فأما أصحاب السوابق : فقلوبهم أبداً فيما سبق لهم من الله ؛ لعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل . ففكرهم فى هذا أبداً ، ومع ذلك : فهم يجدون فى القيام بالأوامر واجتناب النواهى ، والتقرب إلى الله بأنواع القرب ، غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ، ويقول قائلهم :

من أيـن أرضـيك إلا أن توفقنـى ... هيهات هيهات ما التوفيق من قبلى

إن لم يكن لى فى المقدور سابقة ... فليس ينفـع ما قدمـت مـن عمـلى

وأما أصحاب العواقب : فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بأواخرها ، والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة ، كما قيل :

لا يغـرنك صفـا الأوقات ... فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره ، وتفتحت أزهاره ، وزهت ثماره ، لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية ، فصار كما قال الله عز وجل : **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [يونس : ٢٤].

فكم من مريد كبا به جواد عزمه ... فخر صريعاً لليدين والفم

وقيل لبعضهم ـ وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه : ما الذى أصابك ؟

فقال : حجاب وقع ، وأنشد :

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالـى فاغتررت بهـا ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك ؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا ؟.

تعجـــبين مـــن سقـــمى ... صـــحتى هـــى العجـــب !!

الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة :

خذ مـن الألــف واحــدا ... واطــرح الكـل مــن بعــده

وأما أصحاب الوقت : فلم يشتغلوا بالسوابق ولا بالعواقب ، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت وما يلزمهم من أحكامه . وقالوا : العارف ابن وقته ، لا ماضى له ولا مستقبل .

ورأى بعضهم الصديق ﷺ فى منامه ، فقال له : أوصنى . فقال له : كن ابن وقتك .

وأما أصحاب الحق : فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما ، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات ، لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان كما قيل :

لست أدرى : أطال ليلى أم لا ... كيف يدرى بذاك من يتقلى ؟

لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعى النجوم كنت مخلى

إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله من العشق شغلاً

قال الجنيد : دخلت على السرى يوماً فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشأ يقول :

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج ... فلا أبالى أطال الليل أم قصرا

ثم قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار . يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات ، بل هو مع الذى يقدر الليل والنهار [1] .

عبادة الصوفية

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يحكى عن بعض العارفين أنه قال: الناس يعبدون الله ، والصوفية يعبدون أنفسهم .

أراد أنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم ، وهذا عين عبادة النفس. فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل ، فإنه محك وميزان ، والله المستعان [2] .

الكِبْر

سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : التكبر شر من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره [3] .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٣٢) .

وأيضا

لولا مانع الكبر والحسد ، والرياسة والمعاداة فى الكفار ، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال (١) .

علاج الكبرياء

كثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ تدفع الرياء ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٤] تدفع الكبرياء (٢) .

العُجْب

لا ريب أن هذا الذنب (٣) خير عند الله وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المان بها وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويغضوا له، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً ؛ ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه ، متطلبا لعيبه فى قالب حمية لله وغضب له ، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا ، فتح له باب المعازير والرجاء وأغمض عنه عينه وسمعه وكف لسانه وقلبه وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود ، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه فى ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفى به عباده وشره ، وينكسر به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال (٤) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧١) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٤) .

(٣) أى : الذنب المقترن بالتوبة .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٩٩) .

تلازم الظاهر والباطن

فى الغالب يكون بين جمال الظاهر والباطن تلازم ، وبين قبح الظاهر والباطن تلازم ، فإن لكل باطن عنوانا من الظاهر يدل عليه ويعرف به ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ بين الخلق والخلق والظاهر والباطن ارتباطًا والتئامًا وتناسبًا ، وم هاهنا تكلم الناس فى الفراسة، واستنبطوا علمها وهو من ألطف العلوم وأدقها ، وأصله معرفة المشاكله والمناسبة والآخرة التى عقدها الله سبحانه بين المتشاكلين ، ومن لم يكن له نصيب منها لم يكد ينتفع بنفسه ولا بغيره .

وأنت إذا تأملت العالم فقل أن ترى خلقا مشوها إلا وثم خلق قبيح وفعل يناسبه ، وقوله يناسبه ، اللهم إلا لمعارض من تأدب وتعلم يخرجه من مقتضى طبعه ، كما يحصل لكثير من الحيوان البهيم من التعليم والتأديب والتمرين ما يخرجه عن مقتضى طباعه ، وقل أن ترى خلقا جميلا إلا وثم خلق وفعل وقول يناسبه ، اللهم إلا لمعارض سوء أخرجه عن مقتضى طبعه، كالطفل الذى ولد على الفطرة فلو خلى لما نشأ إلا على فطرة الإسلام ، لكن معارض الكفر أخرجه عن فطرته ، والنبى ﷺ ذكر « إن الله جميل يجب الجمال »(١) للفرق بين الكبر الذى يبغضه الله وأنه ليس من الجمال ، وبين الجمال الذى يحبه ، فإنه لما قال : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قالوا : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنًا أفمن الكبر ذلك ، فقال : « لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) فأخبر أن تحسين الثوب والنعل قد يكون من الجمال الذى يحبه الله كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١]، فإذا كان الظاهر جميلا والباطن جميلا أحبه الله ، وإذا كان الباطل جميلا والظاهر غير جميل لم يضره عند الله شيئًا وإن كان كاسدًا عند الناس ، فإنه عند الله عزيز غال ، فإذا كان للعبد صوت حسن ولو من أحسن الأصوات وبذا بصوته واستعمله فى الغناء أبغض الله ورسوله كما يبغض الصورة المستعملة فى الفواحش ولو كانت من أجمل الصور وأحسنها (٣) .

(١ ، ٢) مسلم (٩١ / ١٤٧) فى الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه .

(٣) الكلام (٣٧٤ ـ ٣٧٦) .

وأيضا

قال بعض العارفين : حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن (١) .

ذنب أفضل من حسنة !

إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته ، حتى يقول عدو الله : يا ليتنى تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة ويدخل بها النار . قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ، ناكس الرأس بين يديه ، منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه ، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة .

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ، ويتكبر بها ، ويرى نفسه ، ويعجب بها ، ويستطيل بها ، ويقول : فعلت ، وفعلت ، فيورثه ذلك من العجب والكبر ، والفخر والاستطالة ، ما يكون سبب هلاكه . فإذا أراد الله بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه ، ويصغر به نفسه عنده ، وان أراد به غير ذلك ، خلاه وعجبه وكبره ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه (٢) .

الموت

وروى أنه لما حضرت الخطيئة الوفاة قال :

لكل جديد لذة غير أننى ‏ ‏ ‏ ‏ وجدت جديد الموت غير لذيذ (٣)

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢١) .
(٢) الوابل الصيب (٨) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢١١) .

ذم الكلام

ذكر قول الإمام فخر الدين الرازى[(١)] فى آخر كتبه ـ وهو كتاب « أقسام اللذات » الذى صنفه فى آخر عمره وهو كتاب مفيد :

ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة : الحسية كالأكل والشرب والنكاح واللباس واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والأمر والنهى والترفع ونحوها . واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف وتكلم عن كل واحد من هذه الأقسام إلى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والتعلق بها فلهذا السبب نقول ياليتنا بقينا على العدم الأول وليتنا ما شهدنا هذا العالم وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وفى هذا المعنى قلت :

نهايــة إقــدام العقــول عقــال ... وأكثــر سعى العالمين ضـــلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصـل دنيانــا أذى ووبـــال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالـوا

وكم قد رأينا من رجال ودولــة ... فبادوا جميعًا مسرعـين وزالـــوا

وكم من جبال قـد علت شرفاتها ... رجــال فزالـوا والجبـال جبــال

واعلم أنه بعد التوغل فى هذه المضايق والتعميق فى الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق رأيت الأصواب الأصلح فى هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم وهو ترك التعمق ، والاستدلال بأقسام السموات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة فى التعظيم من غير خوض فى التفاصيل فاقرأ فى التنزيه قوله تعالى :

﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ [محمد : ٣٨]، وقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى : : ١١]وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ① ﴾ [الإخلاص] وقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ⑤ ﴾ [طه] ، واقرأ فى الإثبات قوله : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ** ﴾ [فاطر : ١٠] وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٧٨] وفى تنزيه عما لا ينبغى وقوله : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٧٩] الآية وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب[(٢)].

---

(١) أى قوله فى إثبات الصفات ، والفوقية وعلو الله على عرشه .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٣٠٤ ـ ٣٠٦) .

مخالطة الخَلْق

حدثنى بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال : كان فى بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوة ما يرد عليه ، فتبعته يوما ، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى فى قصيدته الطويلة :

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خاليًا

وصاحب هذه الحال : إن لم يرده الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم (١).

طغيان النعمة

كثرة النعم تطغى العبد وتحمله على أن يصرفها فى وجوهها وغير وجوهها ، وهى تدعو إلى أن يتناول العبد بها ما حل وما لا يحل ، وأكثر المُنْعَم عليهم لا يقتصرون فى صرف النعمة على القدر الحلال ، بل يتعداه إلى غيره (٢) .

العوارض والمحن

قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مرة : العوارض والمحن هى كالحر والبرد ،فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما،ولم يغتم لذلك ولم يحزن(٣) .

الوسطية

والعدل يحمله (٤) على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والتهور على خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٥٩) .

(٢) مدارج السالكين (٣ / ٣٤٣) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٨٩) .

(٤) أى الشخص المتصف بالعدل .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٨) .

وسطية الإسلام

ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو . ودين الله وسط بين الجافى عنه والغالى فيه كالوادى بين جبلين ، والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافى عن الأمر مضيع له ، فالغالى فيه مضيع له .. هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه الحد (١) .

غلبة الطبع

إن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها ، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها ، واستولى على مملكة الطبع (٢) .

بمَ يُدرك النعيم

أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة فى دار الراحة ، فإن قدر التعب تكون الراحة .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكريم الكرائم

ويكبر فى عين الصغير صغيرها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم (٣)

الدعوى الكاذبة

إن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟ (٤) .

قبول العمل

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣١١) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٦٦) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ١١٠) .

فى قلبك وانشراحا فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور ، يعنى أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله فى الدنيا من حلاوة يجدها فى قلبه ، وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول (١) .

آفات العمل

يعرض للعامل فى عمله ثلاث آفات : رؤيته ، وملاحظته ، وطلب العوض عليه ورضاه به وسكونه إليه (٢) .

آفات العبد

قال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه . ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور (٣) .

العفو عن الخطأ

لو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه ،لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها (٤) .

المرء على دين خليله

صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره، ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقا وأفعالا ، وتعود له تلك طباعا، ويتعذر ـ أو يتعسر ـ عليه الانتقال عنها .

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقا وأفعالاً شريفة ، تصير له كالطبيعة ، فإن العوائد والمزاولات تعطى الملكات والأخلاق (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٩٢) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٨) .

المريد

قال أبو على الدقاق : المريد متحمل والمراد محمول ، وقد كان موسى ﷺ مريداً إذ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه : ٥٢]، ونبيا ﷺ كان مراداً إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح] (١) .

وأيضا

المريد الصادق هو الذى قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فَهْماً فى كتابه وسنة رسوله ، يغنيه عن تقليد فهم غيره (٢) .

الإمامة فى الدين

إذا تزوج الصبر باليقين ، ولد بينهما حصول الإمامة فى الدين ، قال الله تعالى ـ وبقوله يهتدى المهتدون : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة] (٣) .

مفاسد الفهم القاصر

ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة ، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً (٤) .

أنفع الأدب

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ، وسئل الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عن أنفع الأدب ، فقال : التفقه فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٣) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٦٨) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٧) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٣١) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

تَحرِّ الحق

الصادق الذكى يأخذ من كل منهم [١] ما عنده من الحق فيستعين به على مطلبه ، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره فى الحق الآخر ويهدره به ، فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا له مقام معلوم [٢] .

اتهام النفس

إن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه [٣] .

دواعى النفس

إن فى النفس ثلاثة دواع متجاذبة : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان : من الكبر والحسد والعلو والبغى والشر والأذى والفساد والغش .

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان ، وهو داعى الشهوة .

وداع يدعوها إلى أخلاق المَلَك : من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة .

فحقيقة المروءة : بغض ذينك الداعيين ، وإجابة الداعى الثالث . وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين والتوجه لدعوتهما أين كانت .

فالإنسانية والمروءة والفتوة : كلها فى عصيان الداعيين وإجابة الداعى الثالث كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة ، فمن غلب عقله شهوته : التحق بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله : التحق بالبهائم [٤] .

---

(١) أى من أرباب البصائر ممن تكلم فى السير وصفة المنازل ، وممن تكلم فى الآفات والقواطع ، وممن تكلم فى التوحيد وحقائق الأسماء والصفات .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٩١) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٥١) .

فضل المجاهدين

قال الأوزاعى وابن المبارك : « إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعنى أهل الجهاد ،فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)** ﴾ [العنكبوت] (١) .

الكبائر والصغائر

قال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة ، قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة .

فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع ، وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها (٢) .

الأيمان الكاذبة

أهل الريبة يكذبون ويحلفون ؛ ليحسب السامع أنهم صادقون ، قد ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)** ﴾ [المنافقون] (٣) .

النفاق

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة ، فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحلم نبات النفاق وبنيانه ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكشف المستور ، وبعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق : إن حواصله التى حصلها كانت كالسراب ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** ﴾ [النور](٤).

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥١١) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٢٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٣٥٣) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٣٥٨) .

أثر الغذاء على الطبع

كل من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى ، فإن الغاذى شبيه بالمغتذى (١) .

أنفع الدعاء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء ، فإذا هو سؤال العون على مرضاته،ثم رأيته فى الفاتحة فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾(٢).

جحد الحق

إن كل من أعرض عن شىء من الحق وجحده وقع فى باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولابد ، حتى فى الأعمال من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتلى بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك ، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله فى طاعة الله ابتلى بإنفاقه لغير الله ، وهو راغم ، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلى بالتعب فى خدمه الخلق ولا بد ، وكذلك عن رغب من الهدى بالوحى ، ابتلى بكناسة الآراء ، وزبالة الأذهان ، ووسخ الأفكار (٣) .

الاستدراج بالنعم

كم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله ، حوائجه وستره عليه : وأكثر الخلق عندهم : أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم (٤) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٠٣) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٧٨) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٦٥) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٧١) .

الجفاء

قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا (١) .

الأعمال بالخواتيم

الخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم (٢) .

البخل

الفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك(٣).

المال الحرام

إذا كان أكثر مال الرجل حراما فلا يعجبنى أن يؤكل ماله ، وهذا على سبيل التحريم(٤).

كثرة الاختلاف فى المتأخرين

كلما تأخر الزمان كثر النزاع ، وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن فى الذين قبلهم(٥) .

حب التفرّد

شأن النفوس أنها موكلة بكل غريب تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه ، حتى إذا كثر ورخص وناله المثرى والمقل زهدت فيه ، مع كونه أنفع لها وخيرا لها ، ولكن لرخصه وكثرة الشركاء فيه وتطلب ما تتميز به من غيرها للذة التفرد والاختصاص (٦).

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٧٧) .
(٣) عدة الصابرين (١٥٠)
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٤١) .
(٥) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥٣) .
(٦) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٤٩) .

من آثر الأدنى على الأعلى

قد جرت عادة الله ـ سبحانه ـ أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى ويجعله عبرة العقلاء[(١)] .

اتباع الهوى

كل ما الناس فيه فإما طاعة للرسول وإما هوى لنفوس ، لا يخرج عن الأمرين ، وكل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفس .

قال تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)** ﴾ [القصص] .

والقلب متى لم يكن على قلب الرسول وأصحابه فى القصد والعلم والمحبة والكراهة والتصديق واستحسان ما استحسنوه وإيثاره ، واستقباح ما استقبحوه واجتنابه ، كان فيه من الانحراف عن الإيمان بقدر انحرافه عن ذلك حتى تعود القلوب كما قال : حذيفة بن اليمان ﷺ : القلوب على أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن ، فإنه أجرد أى متجرد من هذا الانحراف فى قصده وحبه وعلمه ، متجرد عن شهوات الغى وشبهات الباطل ، متجرد عن معارضات أمـر الله بالتأويل والشهوات ، وعن معارضات خبره بالتقليد والشبهات ، وفيه من الإيمان ومباشرة روحه له سراج يزهر ، فهذا هو القلب السليم . . . (٢).

ما يُذَمّ به العبد

إن الله ـ سبحانه ـ لا يذم العبد على ما ليس من كسبه وفعله كما لا يذمه على دمامته وقبح شكله ،وإنما يذم العبد بأفعاله الاختيارية دون ما لا اختيار له فيه، وإنما ذم ـ سبحانه ـ ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفيع المنكر ، كما يوجد ذلك فى أهل الغلظ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٣٣) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٩٩) .

والجفاء من الفدادين الصخَّابين بالأسواق ، كما قال النبى ﷺ : « الجفا والغلظ وقسوة القلب فى الفدادين من أهل الوبر » (١) وهم الصياحون صياحًا منكرا ، وفى صفة النبى ﷺ: « ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق » (٢) (٣) .

الطب

كل طبيب لا يداوى العليل ، بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية روحه وقواه بالصدقة ، وفعل الخير ، والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب ، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة ، ولهذه الأمور تأثير فى دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها فى ذلك ونفعه(٤) .

صلاح حال العبد فى الدارين

لا يتم صلاح العبد فى الدارين إلا باليقين والعافية ، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا فى قلبه وبدنه (٥) .

رياضة الأعضاء

أى عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصًا على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه (٦) .

الروح تميل إلى ما يناسبها

الأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ،

---

(١) البخارى (٣٣٠٢) فى بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها سعف الجبال ، ومسلم (٥١ / ٨١) فى الإيمان باب : تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ، وأحمد (٤ / ١١٨) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١ / ٢٩١) فى جماع أبواب صفة رسول الله ﷺ ، باب حديث هند بن أبى هالة .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٥٣) .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٤٤) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢١٦) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ٢٤٧) .

والطيبون للطيبات ، وهذا وإن كان فى النساء والرجال ، فإنه يتناول الأعمال والأقوال ، والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، وإما بعموم لفظه ، أو بعموم معناه (١) .

فضل يوم الجمعة

إنه (٢) اليوم الذى يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة وهو فى الأيام كشهر رمضان فى الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان ، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق (٣) .

احتمال المشقة لخير منتظر

العمال فى الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذى طردت به العادة وإن لم يجزموا به ، فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها ، فالتاجر يحمل مشقة السفر فى البر والبحر، بناء على أنه يسلم ويغنم ، فلو طرد هذا القياس الفاسد ، وقال : السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم ، لتعطلت أسفار الناس بالكلية ، وكذلك عمال الآخرة لو قالوا : تعب العمل ومشقته أمر متحقق وحسن الخاتمة أمر موهوم ، لعطلوا الأعمال جملة ، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية ، لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر(٤) .

ارتكاب أخف الضررين

العقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل ، كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن ، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبط الخراج ونحوه (٥) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧٩) .
(٢) أى : يوم الجمعة .
(٣) زاد المعاد (١ / ٣٩٨) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨ ، ٩٩) .
(٥) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨) .

المشاحنة فى الاصطلاحات

المشاحنة فى الاصطلاحات لا تنفع طالب الحق ،ولا تجدى عليه إلا المناكدة والتعنت[١].

حبك الشىء يعمى ويصم

لو تَجَرَّدتْ [٢] من حب من ولدته ، وبغض من خالفته ، وجردت النظر ، وصابرت العلم ، وتابعت المسير فى المسألة إلى آخرها ، لأوشك أن تعلم الحق من الباطل ولكن حبك الشىء يعمى ويصم ، والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوى. هذا فى إدراك البصر مع ظهوره ووضوحه ، فكيف فى إدراك البصيرة ، لا سيما إذا صادف مشكلا فهذه بلية أكثر العالم .

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى لا إخالك ناجيا [٣]

الشهادة بالقسط

فليتأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر المقالات والتعصب لها ، والتزام لوازمها ، وإحسان الظن بأربابها ، بحيث يرى مساويهم محاسن ، وإساءة الظن بخصومهم ، بحيث يرى محاسنهم مساوئ .كم أفسد هذا السلوك من فطرة ، وصاحبها من الذين ﴿ **يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة] ، ولا يتعجب من هذا ، فإن مرآة القلب لا يزال يتنفس فيها منها حتى يستحكم صداؤها ، فليس ببدع لها أن ترى الأشياء على خلاف ما هى عليه ، فمبدأ الهدى والفلاح صقال تلك المرآة ، ومنع الهوى من التنفس فيها وفتح عين البصيرة فى أقوال من يسىء الظن بهم ، كما يقبحها فى أقوال من يحسن الظن به وقيامك لله وشهادتك بالقسط ، وألا يحملك بغض منازعيك وخصومك على جحد دينهم، وتقبيح محاسنهم،وترك العدل فيهم، فإن الله لا يعتد بتعب من هذا ثناء ولا يجدى علمه نفعاً أحوج ما يكون إليه، والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين [٤] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٦٥) .
(٢) أى : العقول .
(٣) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧١) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧٥) .

فعل العبد من الحقيقة والصورة

إن استواء الفعلين فى الصورة لا يوجد استواءهما فى الحقيقة ، ومدعى ذلك فى غاية المكابرة ، وهل يدل استواء السجود لله والسجود للصنم فى الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض على أنهما سواء فى الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ، ويكفى فى فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذى هو ظلم وبغى وعدوان ، وحسن القتل الذى هو جزاء وقصاص وردع وزجر ، والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح ، بل أعظم وأظهر ، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح فى الأرض والإفساد فيها ، فما تعارض فى عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره (١) .

لا عصمة للولىّ

ليس من شرط ولى الله العصمة ، وقد تقاتل أولياء الله فى صفين بالسيوف ، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة ، وكون ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأولاً أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله (٢) .

التوفيق فى ترتيب الدليل

ما كُلّ من علم شيئا أمكنه أن يستدل عليه ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره والجواب عن المعارض (٣) .

باب جامع

من أراد من العمال أن ينظر قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه . وحدّ زيد وما رأى الرسول ، وكفر ابن أُبىّ وقد صلى معه القبلتين . لما تقدم اختبار الطين المنهبط صعد على

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٧) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٨٧) .

النار المرتفعة فكانت الغلبة لآدم فى حرب إبليس . سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية ، فسبق تابوته إلى بيتها ، فجاء طفل بلا أم إلى امرأة بلا ولد . يا من هو من جملة عسكر الرسول أيحسن بك كل يوم هزيمة . الحيوانات تذل فى طلب القوت ، والفيل يتملق حتى يأكل :

إن كان يوجب صبرى رحمتى فرضى   بسوء حالى وحل للضنا بدنى
منحتك القلب لا أبغى به ثمنا   إلا رضاك ووافقرى إلى الثمن

قال غيره :

أحن بأطراف النهار صبابة   وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

غيره :

سأتعب نفسى أو أصادف راحة   فإن هوان النفس أكرم للنفس

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفت قيمة نفسك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك . يا من غذى بلبان البر ، وقلب بأيدى الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى ، وصدف وأنت الدر ، ومخيض وأنت الزبد ، منشور اختيارنا لك واضح الخط ، ولكن استخراجك ضعيف ، متى رمت طلبى فاطلبنى عندك ، ويحك لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصى ، إنما أبعدنا إبليس لأنه لم يسجد لك وأنت فى صلب أبيك . فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ [الكهف : ٥٠] ،لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها على جسدك . عجب ربنا من رجل ثار عن وطائه ولحافه إلى صلاته . تأمل معنى ثار ولم يقل : قام لأن القيام قد يقع بفتور ، فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع حذرا من فائت ما . انتفع آدم فى بلية وعصى بكمال وعلم ، ولا رد عنه عز اسجدوا ، وإنما خلصه ذل ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** ﴾ [الأعراف : ٢٣]، لما عشقت للبلاء به الشجر تعلقت طلبا للعناق ، فقيل لها مع الكثافة : لا يمكن ، فرضيت بالنحول والتفت .

تلقى قلبى فقد أرسلته عجلا   إلى لقائك والأشواق تقدمه
ولا تكلنى على بعد الديار إلى   صبرى الضعيف فصبرى أنت تعلمه

قال الشاعر :

إذ لم يكن بينى وبينك مرسل ... فريح الصبا منى إليك رسول

ملؤوا مراكب القلوب متاعا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبت رياح السحر أقلعت تلك المراكب قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد ، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر فاعتنقتهم الراحة فى طريق التلقى ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد .

فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة ، فأقاموا العيون تحرس تارة وترسق الأرض أخرى . سرادق المحبة لا تضرب إلا فى قاع فارغ نزه .

فرغ لى بيتا أسكنه أعرف مقدار ما ضاع منك ، وابك بكاء من يدرى مقدار الفائت . لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك . لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق قلبك المخمور . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا ... طوال الليالى أو بعيد المفاوز

أما علمت أن الصادق «إذا هم ألقى بين عينيه عزمه » . إذا نزل آب فى القلب سكن آذار فى العين . من قبل فم اللذة لا ينكر عض أسنان الندامة . هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بمسمع الملك « رفيقك قيسى ، وأنت يمانى » . إذا كنت كلما لاحت لك شهوة طفيل العرائس فانتظر قبلة وضاح اليمن . من لاح له كمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا . إذا لاح للباشق الصيد نسى مألوف الكف . يا أقدم الصبر احملى بقى القليل . تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة . قد علمت أين المنزل فأحد لها نسر. قال أبو يزيد : ما زلت أسوق نفسى إلى الله وهى تبكى حتى سقتها إليه وهى تضحك . الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر عند القدوم ﴿**وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ**﴾ [البقرة : ٢٢٣] . الجنة ترضى منك بأداء الفرائض والنار تندفع عنك بترك المعاصى ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [التوبة :١١١] بدم المحب يباع وصلهم ، فمن الذى يبتاع بالثمن، لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضى على أرض الاشتياق .

زرناك شوقا ولو أن النوى بسط ... فرش الفلا بيننا جمرا لزرناك

ما سافر الخليل سفرا ، ولا سلك طريقا أطيب من الفلاة التى دخلها حين خرج من كفة المنجنيق ، رآه جبريل قد ودع بلد العادة فظن ضعف قدم التوكل ، فعرض عليه زاد : ألك حاجة ؟ فرده بأنفة : أما إليك فلا . لما تكاملَ وفاؤه ما أمر به جاءته خلعته ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** (٣٧) ﴾ [النجم].

قالـت لطيـف خيـال زارهـا ومضـى … باللـه صـفه ولا تنقـص ولا تـــزد
فقال خلفته لـو مـات مـن ظـمـــأ … وقلت قف عن ورود الماء لم يـــرد
قالت صدقت الوفا فى الحب شيمته … يا برد ذاك الذى قالت على كبـــدى

وقال غيره :

إن قومى بانوا فرقوا بينه وبينـــى … فإذا كنت أنا الرهن فمن يقبض دينى

وقال غيره :

وكم مغرم بين تلك الخيا … م تحسبه بعض أطنابها

للنفس حظ وعليها حق ، فلا تميلوا كل الميل ، وزنوا بالقسطاط المستقيم . وإن رأيتم منها فتوراً فاضربوها بسوط الهجر فى المضاجع فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . ارفقوا بمطايا الأبدان ، فقد ألفت الترف ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن تتمكن المحبة فلها حينئذ حكمها . شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق .من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة . يا معرقلا فى شرك الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة ، لابد من نفوذ القدر ، فاجنح للسلم أى تصرف ،بقى لك فى قلبك وهو بين أصبعين .يا منقطعين عن القوم سيروا فى بادية الدجى ،وانتحوا بوادى الذل ، فإذا فتح باب للواصلين فدونكم فاهجموا هجوم اللوانين ، وابسطوا أكف ﴿**وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا**﴾ [يوسف : ٨٨] . لعل هاتف الرحمة يقول ﴿**لا تَثْرِيبَ**﴾ [يوسف : ٩٢] . ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران : ١٨٩] . واستقرض منك حبة فبخلت بها ، وخلق سبعة أبحر واستقرض دمعة فقحطت عينك بها . إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور والقلب كعبة ، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام . لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك ، والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن،غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت فى عين البصيرة فخفيت الجادة تدور عينك على المحرمات كأنك قد ضاع منك شىء ، ورواحل همتك فى الهوى ما تحمل لها قتب . إن قهر نفسك حب الفانى فذكرها العيش الباقى فإن أبت إلا بيع الغبن فاحجر عليها حجر السفيه وغط بصر باشقك إلى أن ينسى ما رأى ، واغسل باطن عينيك بطهور المدامع ، وكلما تذكرت ما أبصرت فاطرق بدمعة ، لعل فرط البكاء يدفع فساد البصر فيصلح لرؤية الحبيب .

وكيف ترى ليلى بعين ترى بهـا   سواهـا وما طهـرتها بالمدامـع

وتسمع منها لفظة بعد ما جرى   حديث سواها فى خروق المسامع

قال غيره :

إذا لم أنل منكم حديثا ونظرة   إليكم فما نفعى بسمعى وناظرى

تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهور . تعرّف رب العزة المحبين فعملوا على اللقاء ، وأنت مشغول بالجيف ما يساوى ربع الدينار ، خجل الفضيحة فكيف بألم القطع . المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم ، والحب غدير فى صحراء ليس عليه جادة ؛ فلهذا قل وراده . المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والتعلق بذكره ، كهرب الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه .

وأخرج من بين البيوت لعلنى   أحدث عنك النفس بالسر خاليا

لو رأيت المحبين فى الدجى تمر عليهم زمر النجوم مر الوصائف إلى أن تقبل هوادج ، هل من سائل فينثرون عليه الأرواح نثر الفراش على النار . ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد ، فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله . كنوز الجواهر مودعة فى مصر الليل فتتبع آثار المحبين ، لعلك تظفر بكنز.أنت طفل فى حجر العادة مشدود بقماط الهوى فمالك ولمزاحمة الرجال، أين أنت والمحبة وأنت أسير الحبة . تمسكت بالدنيا تمسك الرضيع بالظئر والقوم ما أعاروها الطرف . أف لبدوى لا يطربه ذكر حاجر . انقسم الصالحون عند السباق، فمنهم من أخذه القلق فكان يقول : ويل لى إن لم يغفرها ، أنا أمضى إلى النار أو يغفر .ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال ، كانت زوجته تقول : واحزناه ، وهو يقول : واطرباه ، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

واهاً لبلال علم أن الإمام لا ينسى المؤذن . اشتغل به فى الحياة يكفلك ما بعد الموت . دق كؤوس الرحيل فسار الركب وتأهبوا للمسير ،وعكمت أحمال الزاد وسار رفقة المجدين،وأنت فى الرقدة الأولى بعد كيف تطيق السهر مع الشبع ، أم كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل ؟ هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السرى ،ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب .

وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى   سم الخياط مع المحبوب ميدان

لو رأيت أهل القبور فى وثائق الأسر فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة ، وحيل بينهم

وبين ما يشتهون ، يا منفقا بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه ليس فى أعدائك أشد شرا عليك منك .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

غيره :

هذا المحب لديك فانظر هل ترى قلباً فإن صادفت قلباً فاعذل

غاية العاذل إيصال اللوم إلى الأذن فأما القلب فلا سبيل له إليه . سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة . تمر النجائب فى الأول وحاملات الزاد فى الآخر ، ولو وردت ماء مدين لوجدت عليه أمة من الناس يسقون . إقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب . لو أحببت المخدوم حضر قلبك فى خدمته .

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

العروس تلبس عند العرض تحت الثياب شعار الخوف من الرد ، وفوق الثياب حلة الانكسار ، وحمرة الخجل تغنيها عن تخمير مستعار ؛ لأنها لا تدرى على ماذا تقدم ، فكيف يسكن من لا يعرف العواقب . مداراة قيس ممكن ولكن لا مع ذكر ليلى . انقسم العباد ثلاثة أقسام : فمنهم من لاحظ الحصاد فزاد فى البذر ، ومنهم من رأى حق المخدوم فقام بأدائه ، ومنهم من خدم حبا وشوقا فتلذذ بالخدمة ، وهذه الخدمة لا ثقل لها ؛ لأن محركها الحب وغيرها ثقيل على البدن . نوق أبدان المحبين لا تحس بالنصب وأسماعها مشغولة بصوت الحادى،وقلوبها معلقة بالمنزل . من عبده خوفا أمنه ، ومن عبده رجاء أعطاه أمله ، ومن عبده حبا فلا تعلم نفس ما أخفى لها .

يراها بعين الشوق قلبى على النوى فتحظى ولكن من لعينى برؤياها

وهبكم منعتم أن يراها بعينه فهل تمنعون القلب أن يتمناها

كم دخل المجلس عاص فى باطنه باطية خمر ، فما زالت تعمل فيها حدة شمس التذكير حتى انقلبت خلا فحلت .

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى نشركم فيطيب (١)

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٣ ـ ٢١٩) .

وأيضا

متى رأيت العقل يؤثر الفانى على الباقى فاعلم أنه قد مسخ ، ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضى بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به ، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب . وأبعد القلوب من الله القلب القاسى . ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلح له . ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تطلب ، ويستدنى سواك وأنت لا تقرب ، فإن تحركت لك قدم فى الزيارة تخلف قلبك فى المنزل ، فاعلم أنه الحجاب والعذاب . مزاج الإيمان منحرف عن الصحة ، ونبض الهوى شديد الخفقان . تحكمت أخلاط الشهوات فى أعضاء الكسل فثبطت عن الحركة ، فتولدت الأمراض المختلفة ، هذا وما يسهل عليك شرب مسهل ، فإن تداركت المرض وإلا قتل . لو احتميت ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة . من ركب ظهر التفريط والتوانى نزل به دار العسرة والندامة . ربك يحب حياة نفسك وأنت تريد قتلها .يريد بك اليسر وأنت تريد العسر. يريد بها الكرامة وأنت جاهد فى إهانتها.

ما يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

من أدلج فى غَيَاهِب الليل على نجائب الصبر صبح منزل السرور . ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقى بوادى الأسف . الجد كله حركة ، والكسل كله سكون . فتورك عن السعى فى طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم . إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة فعلقه بمنقاره فإن تحرك فديك وإلا فدجاجة .

الدنيا كامرأة بغى ، لا تثبت مع زوج ، فلذلك عيب عشاقها .

ميزت بين جمالها وفعالها   فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى

حلفت لنا ألا تخون عهودها   فكأنما حلفت لنا ألا تفى

ما حظى الدينار بنقش اسم الملك فيه حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار ، فنفت عنها كل خبث ، ثم صبرت على تقطيعها دنانير ، ثم صبرت على ضربها على السكة، فحينئذ يظهر عليها رقم النقش فكيف يطمع فى نقش كتب فى قلوبهم الإيمان من كله خبث . مكابدة البادية تهون عند ذكر البيت المضحى بوادى الجوع ، والمعشى بوادى

السهر ، إلى أن تلوح أعلام المنزل . إذا ونت الركاب فى السير فبثوا حداة العزم فى نواحيها يطيب لها السرى . إذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك . الحيوان البهيم يتأمل العواقب،وأنت لا ترى إلا الحاضر .ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد ، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر .والذر يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر ، فهلا بعثت فراش ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** (٤٤) ﴾ [الروم] .وهذا اليربوع لا يتخذ بيتا إلا فى موضع صلب ليسلم من الحافر ، ويكون مرتفعا ليسلم من السيل ، ويكون عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه ، ثم يجعل له أبوابا ويرقق بعضها فلا ينفذه ، فإذا أتى من باب مفتوح دفع برأسه ما رقّ من التراب وخرج منه ، وأنت قد ضيقت على نفسك الخناق ، فما أبقيت للنجاة موضعا . النفس كالعدو إن عرفت صولة الجد منك استأسرت لك ، وإن أنست عنك المهانة أسرتك أتمنعها ملذوذ مباحاتها ليقع الصلح على ترك الحرام ، إذا احتجت لطلب المباح ﴿ **فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ [محمد : ٤] . الدنيا والشيطان عدوان خارجان عنك والنفس عدو بين جنبيك . ومن سنة الجهاد ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم** ﴾ [التوبة : ١٢٣] .أليس المبارز بالمحاربة كالكمين الذى يطلع عليك من حيث لا تشعر . أقل ما تفعل النفس معك أنها تمزق العمر بكف التبذير والبطالة ،اخل معها فى بيت الفكر سويعة ، ثم انظر هل هى معك أو عليك؟ ثم عاملها بما تعامل به واحدا منهما . من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه. سينقشع غيم التعب عن فجر الآخرة . كم صبر بشر عن شهوة حتى سمع : كل يا من لم يأكل . يا من حسد سجاف نعم العبد على قبة ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ** ﴾ [مريم : ٥٣] حتى وصل على قدر ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ [ص : ٤٤] كيف يفلح من يشكو الليل إلى ربه من طول نومه والنهار من قبيح فعله . كيف يفلح من هو جيفة بالليل قطرب بالنهار، ينصب بميزان البخس وميكال التطفيف ، والقدر ثالثة الأثافى . لو فكر الطائر فى الذبح ما حام حول القمح . لولا صبر المضمرات على قلة العلف ما قيل لها سوابق .

مما أضـــر بأهـــل العشـــق أنهـــم ... هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنـــى نفوسهـم شوقـا وأعينهـم ... فـــى أثـــر كل قبيـح وجهه حسن

تحمـــل حميلكم كـــل رابحـــة ... فكـــل بين على اليوم مؤتمـــن

ما فى هوادجكم من مهجتى عوض ... إن مت شوقا ولا فيـها لها ثمـن

سهرت بعد رحيل وحشة لكم ... ثم استمر مريرى وارعوى الوسن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام تصحب فيه روحك البدن

فما يديم سرورا قد سررت به ... ولا يرد عليك الغائب الحزن

إذا لم تكن من أنصار الرسول فتنازل الحرب فكن من حراس الخيام ، فإن لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين ، ولا تكن الرابعة فتهلك . إذا رأيت الباب مسدود فى وجهك فاقنع بالوقوف خارج الدار مستقبل الباب سائلا مستعطيا فعسى ، ولكن لا تول ظهرك وتقول : ما حيلتى وقد سد الباب دونى . لما نادى منادى الأفضال ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام : ١٦٠] سارت نجائب الأعمال قام الجزاء يصبح بالدليل ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ [الإسراء : ٧٤] فقال ما منكم من ينجيه عمله إن لم تقدر على مشارع أرباب العزائم فرد باقى الحياض ، فمن لم يكن عنده ابن لبون قبلت منه ابنة مخاض، لا تحتقر معصية فكم أحرقت شررة : أما عرفت سر ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة : ٣٥]. لو قنع آدم لاكتفى ،ولكن المحنة كانت فى الشره. الخلوة شرك لصيد المؤانسة . أخفى الصيادين شخصا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطا للصيد . ما صاد هرنوا ، أى صوت .

أبدًا نفوس العاشقـ ... ـين إلى ربوعكم تحن

وكذا القلوب بذكركم ... بعد المخافة تطمئن

غيره:

طلولى إذا يشكو إليها متيم ... شكى غير ذى نطق إلى غير ذى فهم

غيره :

وإنما عمر الفتى سوق له ... يصدر عنه غانما أو خاسرا

غيره :

نراع إذا الجنائز قابلتنا ... ونلهو حين تخفى ذاهبات

كروعة ثلة لظهور ذئب ... فلما غاب عادت راتعات

خذ نفسك بالعزائم لا ترخص .حائط الباطن خراب فعلام ذا تجصص . العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة . والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل . أيها المعلم، تثبت على المبتدى وقدر فى السرد ، فللعالم رسوخ وللمتعلم قلق .ويا أيها الطالب ، تواضع فى

الطلب ، فإن التراب بيننا هو تحت الأخمص صار طهورا للوجه . تجلى عليك عروس المعرفة ،ولكن على غير كفؤ . وإنما يحل النظر إذا كان العقد جائزا . فغض الطرف إنك من نمير . ليس العالم شخصا واحدًا ،العالم عالم تصانيف . العالم أولاده المخلدون دون أولاده . من خلق للعلم شف جوهره من الصغر . طول السهر مفض إلى طيب المرقد، والهوان فى ظلل الهوينا كامن . وجلالة الأخطار فى ركوب الأخطار . مياه المعانى مخزونة فى قلب العالم ، يفتح منها للسقى سيحا بعد سيح ، ويدخر أصفاها لأهل الصفا، فإذا تكاثرت عليه نادى للسبيل فيبقى علمه سيح ولهذا يتضاعف عليه زكاة الشكر. كل وقت تسافر بضائع فكره من مدينة قلبه إلى قلوب الطالبين ، فينادى عليها دلال لسانه وهو يعرضها فى مواسم النصح على تجار الطلب والإرادة ، من يشترى حكمة وعلما بتخبير الثمن . فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج . كم خاض بحرا ملحا حتى وقع بالعذب ، وكم تاه فى مهمه قفر حتى سمى بالدليل ، وكم أنض مراكب الجسم ، وفض شهوات الحس ، وواصل السرى ليلا ونهارا ، وأوقد نار الصبر فى دياجى الهوى ، فإن وثقتم بأمانته فهذا تخبير السرى . فالدنيا تفوق سهامها نحو بنيها وتقول : خذوا حذركم ، فلهذا دم قتلاها هدر . غاب الهدهد عن سليمان ساعة ، فتوعده ، فيا من أطال الغيبة عن ربه هل أمنت غضبه . تخلف الثلاثة عن الرسول فى غزوة واحدة فجرى لهم ما سمعت ، فكيف بمن عمره فى التخلف عنه . إذا سكر الغراب بشراب الحرص تنقل بالجيف ، فإذا صحى من خماره ندم على الطلل . خالف موسى الخضر فى طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بيد هذا ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ [الكهف : ٧٨] أفما تخاف يا من لم يف لربه قط أن تقول فى بعض زلاتك ﴿ **هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ .أعظم عذاب أهل جهنم جهلهم بالمعذب . لو صحت معرفتهم بما لمالك هنالك لما استغاثوا بمـالك ﴿ **يَا مَالِكُ** ﴾ [الزخرف : ٧٧] . وقع بينهم شخص ليس من الجنس كان فى باطنه ذرة من المعرفة ، فكلما حملت عليه النار اتقاها بدرع : يا حنان ، يا منان . كان موته فى المعاصى سكنة فقير فى جهنم ، فلما تحرك الروح فى الباطن أخرج من القبر . حرص العصفور يخنقه ،وقنع العنكبوت فى زاوية الضعف يسوق إليها الذباب قوتا لها . رب ساع لقاعد . أرسلت قلبك مع كل مطلوب من الهوى ثم تبعث وراءه وقت الصلاة ، فربما لا يلقاه الرسول فتصلى بلا قلب .

خلفت قلبك فى الأظعان إذ نزلت ... بالمأزمين غداة النفر بالنفر
ورحت تطلب فى أرض العراق ضحى ... ما ضاع عند منى فاعجب لذا الخبر
لما طرقنا منى كان الفؤاد معى ... فضل عنى بين الضال والسمر

بأرجل العيس تنبيك الرمال فما أمشى بوجدى غدا إلا على الأثر

يا من فقد قلبه لا تيأس من عوده .

فقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كلّ الظن ألا تلاقيا

الهوى قاطن والصواب خاطر ، وطرد القاطن صعب وإمساك الخاطر أصعب . إنك لم تزل فى حبس ، فأول الحبوس :صلب الأب ، والثانى : بطن الأم ، والثالث : القماط والمهد ، والرابع : المكتب ، والخامس : الكد على العيال ،والسادس : مرض الموت ، والسابع : القبر ، فإن وقعت فى الثامن نسيت مرارة كل حبس تقدم ، ادخل حبس التقوى باختيارك أياما ليحصل لك الإطلاق على الدوام ، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحب ، فإنه يؤثر حبس الأبد. العذل على حمل العشق علاوة . ومريخ قطب الشم يوجده ، فروى له خبر التعذيب فعزضا متى تركت المعصية ، وما حللت عقد الإصرار لم يفد شيئا ، كما لو سكن المرض من غير استفراغ ، فإنه على حاله ، إن لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق شيئا . يمين المكره لا تنعقد ، ويحك نفسك سلعتك وقد استامها المشترى بأفخر الثمن ، فاجهد فى إصلاح عيوبها لعله يرضى بها منام المنى أضغاث ، ورائد الآمال كذوب ، ومرتع الشهوات وخيم . العجز شريك الحرمان ، التفريط مصائب الكسل ،قفل قلبك رومى ما يقع عليه غش : متى خامر من جنود عزمك عليك واحد ،لم يأمن قلبك الهزيمة عليه . وإذا كان فى الأنابيب خلف وقع الطيش فى رؤوس الصعاد ، كن قيما على جوارحك ورعيتك إذا وفيتها المحظوظ فاستوف منها الحقوق . تأمل قوله تعالى : ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** (١١٧) ﴾ [طه] كيف شرك بينما فى الخروج ، وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش ، والمرأة فى خدرها .

تزود من الماء القراح فلن يرى بوادى الغضا ماء نقاحا ولا بردا

فهل من نسيم البان والرند نفحة فهيهات واد ينبت البان والرندا

وكر إلى نجد بطرفك إنه متى تسر لا تنظر عقيقا ولا نجدا

انظر يمنة فهل ترى محنة ، ثم اعطف يسرة فهل ترى إلا حسرة ، أما الربع العامر فدرس ، وأما أسر الممات فغرس . وأما الراكب فكبت به الفرس ، ساروا فى ظلم ظلامتهم فما عندهم قبس ، وقفت بهم سفن نجاتهم ، لأن البحر يبس . وانقلبت تلك الدور كلها فى تعس . وجاء منكر بآخر سبأ ونكير بأول عبس . أفلا يقوم لنجاته من طال ما قد جلس .

يا نفــس ما هــى إلا صــبر أيام　　كان مدتها أضغــاث أحــلام

يا نفس جودى عن الدنيا ولذتها　　وخل عنها فإن العيش قدامى

ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة ، وإنما هى ساعة ويصل إلى برج أمنه وكم فيه من حبة .

وإن حننت للحمى وروضه　　فبالغضا ماء وروضات أخر

حامل الكتب من الطير أقوى عزيمة ، فلعل وضعك على غير الاعتدال . لا تكون الروح الصافية إلا فى بدن معتدل ، ولا الهمة العالية إلا فى نفس نفيسة ، إذا حمل الطائر الرسالة صابر العزيمة ، ولازم بطون الأودية فإن خفيت عليه الطريق تنسم الرياح ، وتلمح قرص الشمس وتستر ،وهو مع شدة جوعه يحذر الحب الملقى ، خوفا من دفينة فخ توجب تعرقل الجناح ، يضيع ما حمل ، فإذا بلغ الرسالة أطلق نفسه فى أغراضها داخل البرج . فيا حاملى كتب الأمانة أكثركم على غير الجادة ،وما يستدل منكم من قد راقه الحب فنزل بما حمل فارتهن وربح ، فيسلم تعرقل جناحه وينتظر الذبح ، فلا الحبة حصلت ، ولا الرسالة وصلت .

قطاة غرها شرك فباتــت　　تجاذبه وقــد علــق الجنــاح

فلا فى الليل نالت ما تمنت　　ولا فى الصبح كان لها سراح

لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر فتوطنتم مستريحين فى جنات عدن ، ويا مهملى النظر فى العواقب أسلفوا فى وقت الرخص ، فما يؤمن تغير الأسعار . لا ترم بسهام النظر فإنها والله فيك تقع ، رب راع مقلة أهملها فأغير على السرح .

كل الحوادث مبدؤها مـن النظــر　　ومعظم النــار مـن مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت فى قلب ناظرهـا　　فعل السهام بـلا قـوس لا وتـــــر

غيره :

وأرى السهام نام من يرمى بها　　فعلام سهم اللحظ يصمى من رمى

اعرف قدر لطفه بل وحفظه لك . إنما نهاك عن المعاصى حماية لك وصيانة لك ، لا بخلا منه عليك ، وإنما أمـرك بالطاعة رحمة وإحسانا ، ولا حاجة منه إليك ، لما عرفته بالعقل حرم ما يزيله وهو الخمر ؛ صيانة لبيت المعرفة ، يا متناولا للمسكر لا تفعل ، يكفيك سكـر جهلك فـلا تجمع بين سكـرين . سلعة ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ** ﴾ [طه : ٨٢] لا تبذل إلا

بثمن﴿ لِمَن تَابَ﴾ [طه:٨٢] لمن تاب يا خارجا من سبيله وأمن عن سكه وعمل صالحا . من دار ضرب ثم اهتدى، إن لم تقدر على الجد فى العمل فقف على باب الطلب . تعرض لنفحة من نفحات الرب ، ففى لحظة أفلح السحرة .

لا تجزعن من كل خطب عرى ‏ ‏ ‏ ولا ترى الأعداء ما يشمت

واصبر فبالصبر تنال المنى ‏ ‏ ‏ إذا لقيتم فئة فاثبتوا

ثمن المعالى الجد ، والفتور داء أمر من السلوة . أفى عينيك آيات وآثار ، إذا ما برد القلب فما تسخنه النار . الوجود بحر، والعلماء جواهره ،والزهاد عنبره ،والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه ، والجهال على ظهره كالزبد . لو كشفت لك الدنيا ما تحت نقابها لرأيت المعشوقة عجوزا وما ترضى إلا بقتل عشاقها ، وكم تدللت عليهم بالنشوز . أذاقتهم برد كانون الأمانى ، وإذا هم فى وسط تموز . تطلب مشاركة الغانمين ، وما شهدت الحرب . تحل الغنيمة لمن شهد الوقعة . البلايا تظهر جواهر الرجال ، وما أسرع ما يفتضح المدعى.

تنام عيناك وتشكو الهوى ‏ ‏ ‏ لو كنت صبا لم تكن هكذا

يا مؤثرا ما يفنى على ما يبقى ، هذا رأى هواك ، فهلا استشرت العقل لتعلم أنصحهما لك . لا تحقرن يسير المعصية ، كالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن . أو ما نفذت فى سد سبأ حيلة جرذ . العمر ثوب غير مكفوف ، وكل نفس خيط يسل منه . أنت أجير وعليك عمل ، فأخر ثياب الراحة إلى انقضاء العمل . كم غرقت سفينة فى بحر شوق ، ساروا وما يسألون ما فعل الفجر ، ولا كيف مالت الشهب . عودهم هجرهم ، مطالبة الراحات أن يظفروا بما طلبوا . الشجاع يلبس القلب على الدرع،والجبان يلبس الدرع على القلب . أعظم البلايا تردد الركب إلى بلد الحبيب يودعون الدمن .

ومعال لو ادعاها سواهم ‏ ‏ ‏ لزمته جناية السراق

نالوا السماء وحطوا من نفوسهم ‏ ‏ ‏ إن الكرام إذا انحطوا فقد صعدوا

لو صدق عزمك قذفتك ديار الكسل إلى بيداء الطلب . الناقد يخاف دخول المبهرج عليه واختلاطه بماله ، والبهرج آمنة . هذا الصديق يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد ، وعمر يناشد حذيفة : هل أنا منهم ، والمخلط على بساط الأمن . إذا جن الليل وقع الحرب بين النوم والسهر ، فكان الشوق والخوف فى مقدمة عسكر اليقظة ، وصار الكسل والتوانى فى كتيبة الغفلة ، فإذا حمل الغريم حملة صادقة هزم جنود الفتور والنوم فحصل الظفر والغنيمة ، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان ، وما عند النائمين خبر.

قام المتهجدون على أقدام الجد تحت ستر الدجى ، يبكون على زمن ضاع فى غير الوصال ، ما زالت مطايا السهر تذرع بيداء الدجى ، وعيون آمالها لا ترى إلا المنزل وحادى العزم يقول:

يا رفقة الليل طاب السير فاغتنموا المسرى فمن نام طول الليل لم يصل

إلى أن هب نسيم السحر ، فقام الصادح يبغى ظلام الليل ، فلما هم بالرحيل تشبث القوم بأذياله يبكون على فراق المحبوب ، فلما طلع الفجر حدى حاديهم عند الصباح : يحمد القوم السرى. يا من يستعظم أحوال القوم تنقل فى المراقى تصل . من جمع بين العلم بالسنة ومتابعتها انتحى له المعانى البديعة ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد : ولدت من نكاح لا من سفاح . ومن قرن بين البدعة والهوى انتحى له ضروب الهذيان ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد: أيها الفطن لا تغتر إذا فتحت الوردة عينها فرأت الشوك حولها، فلتصبر على مجاورته قليلا ، فوحدها تقصد وتقبل وتشم . إذا تكلم من يريد الدنيا بكلامه فإنه كلما حفر فى قليب قلبه ، وأمعن فى الاستنباط انهار عليه تراب الطمع فطمه . إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلص عنك فاعلم أنه لطف بك ؛ لأن المنعم لم يقبضه بخلا أن يتمزق ، ولكن رفقا بالساعى أن يتعثر . فتش على القلب الضائع قبل الشروع ، فحضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة ، فكان أول قرى ضيف اليقظة كشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا يخرج إلى البادية بعد . إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم ﴿**اخْرُجْ عَلَيْهِنِ**﴾ [يوسف : ٣١] استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وما شعرن ،فكيف بالحال يوم المزيد . لو أحببت المعبود لحضر قلبك فى عبادته . قيل لعامر بن عبد القيس : أما تسهو فى صلاتك ؟ قال : أو حديث أحب إلىّ من القرآن حتى أشتغل به . وكان مسلم ابن يسار لا يلتفت فى صلاته حتى انهدمت ناحية من نواحى المسجد فزع لها أهل السوق ، فما التفت وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلى تكلموا وضحكوا علما منهم بالغيبة . وقيل لبعضهم : إنا لنوسوس فى صلاتنا . قال : بأى شىء ، بالجنة ، أو الحور العين ، والقيامة ؟ قالوا : لا بل بالدنيا . فقال : لأن تختلف فىّ الأسنة أحب إلىّ من ذلك ، تقف فى صلاتك بجسدك ، وقد وجهت وجهك إلى القبلة ، ووجهت قلبك إلى قطر آخر . ويحك ،ما تصلح هذه الصلاة مهرا للجنة ، فكيف تصلح ثمنا للمحبة . رأت فأرة جملا فأعجبها ، فجرت خطامه فتبعها ، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف فنادى بلسان الحال : إما أن تتخذى دارا تليق بمحبوبك أو محبوبا يليق بدارك . وهكذا أنت إما

أن تصلى صلاة تليق بمعبودك ، وإما أن تتخذ معبودا يليق بصلاتك . تعاهد قلبك ، فإن رأيت الهوى قد أمال أحد الحملين فاجعل فى الجانب الآخر ذكر الجنة والنار ليعتدل الحمل، فإن غلبك الهوى فاستعنت بصاحب القلب يعينك على الحمل ، فإن تأخرت الإجابة فابعث رائد الانكسار خلفها ، تجده عند المنكسرة قلوبهم . اللطف مع الضعف أكثر فتضاعف ما أمكنك . لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد أخرج كاسيا ، ولما كانت النملة ضعيف البصر أعينت بقوة الشم ، فهى تجد ريح المطعوم من البعد . ولما كانت الخلد عمياء ألهمت وقتِ الحلجة إلى القوت أن تفتح فاها،فيبعث إليها الذباب فيسقط فيه فتتناول منه حاجتها . الأطيار تترنم طول النهار فقيل ، للضفدع :مالك لا تنطقين ؟ فقالت : مع صوت المزمار يستبشع صوتى ،ولكن الليل أجمل بى . لا تنس العناية بالسحرة جاؤوا يحاربونه ويحاربون رسله ، وخلع الصلح قد فصلت ، وتيجان الرضى قد وضعت ، وشراب الوصال مروق ، فمدوا أيديهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى ، فإذا بها قد انقلبت خلا ، فأفطروا عليه فسكروا بشراب المحبة ، فلما عربدت عليهم المحبة صلبوا فى جذوع النخل . واعجبا لعزمات ما ثناها لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، سجدوا له سجدة واحدة فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة ، فغلبهم الوجد وتمكن منهم الشوق ، فقالوا: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [طه : ٧٢] .

تمر الصبا صبحا بساكن ذى الغضا   ويصدع قلبى أن يهب هبوبهـا
قريبـة عـهـد بالحبـيـب وإنمـــا   هوى كل نفس أين حل حبيبها

قطعت نياق جدهم بادية الليل ولم تجد مس التعب ، فالطريق إلى المحبوب لا تطول .

بعيــد عـلى كسـلان أو ذى ملالــة   وأما على المشتاق فهـو قريـب

يا حاضرين معنا بنية النزهة لستم معنا ، عودوا إلى أوكار الكسل،فالحرب طعن وضرب . ويا مودعين ارجعوا فقد عبرنا العذيب ، وعن قريب تأتيكم أخبارنا بعد قليل ، ويا أيها الحادى ، عرس بالخيف من منى تعلمك الدموع كيف ترمى حصا الجمار . ضيف المحبة ما له قرى إلا المهج. إذا رأيت محبا.ولم تدر لمن وضع يدك على نبضه وسم له من تطبه به ، فإن النبض ينزعج عند ذكـره . ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال:٢] . حر الخوف صيف الذوبان ،وبرودة الرجاء شتاء العطلة ،ومن لطف به فزمانه كله فصل الربيع .

عين تسر إذا رأتــك وأختــها   تبكى لطول تباعد وفراق
فاحفظ لواحدة دوام سرورها   وعد التـى أبكـيتها بتـلاق

إذا رزقت يقظة فصنها فى بيت عزلة ، فإن أيدى المعاشرة نهابة ، واحذر معاشرة البطالين ، فإن الطبع لص . لا تصادقن فاسقا ولا تثق إليه ، فإن من خان أول منعم عليه لا يفى لك . يا فرح التوبة ، لازم ذكر الخلوة ، فإن هر الهوى صيود .إياك والتقريب من طرف الوكر والخروج من بيت العزلة حتى تتكامل نبات الخوافى ، وإلا كنت رزق الصائد . الأنس بالخلوة دبق ، أول ما يعلق جناح الطير ، والمخالطة توجب التخليط ، وأيسرها تشتيت الهمة وضعف العزيمة .

أقل ما فى سقوط الذئب فى غنم إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنم

إن لم تكن من جملة المستحقين للميراث ،فكن من رفقة: ﴿**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى**﴾ [النساء : ٨] .ويحك لا تحقر نفسك ،فالتائب حبيب ،والمنكسر صحيح . إقرارك بالإفلاس عين الغنى. تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة . اعترافك بالخطأ نفس الإصابة . عرضت سلعة العبودية فى سوق البيع فبذلت الملائكة نقد: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ [البقرة:٣] فقال آدم :ما عندى إلا فلوس الإفلاس ،نقشها : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [الأعراف : ٢٣] فقيل: هذا الذى ينفق على خزانة الخاص. أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين . إن كان يأجوج الطبع ومأجوج الهوى قد عاثوا فى أرض القلوب فأفسدوا فيها،فأعينوا الملك بقوة ، يجعل بينكم وبينهم ردما .اجمعوا له من العزائم ما يشابه زبر الحديد ، ثم تفكروا فيما أسلفتم ليثور صعد الأسف فلا يحتاج إلى أن يقول لكم : انفخوا . شدوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد ،وقد استحكم البناء ، فحينئذ أفرغوا عليه : قطر الصبر.وهكذا بنى الأولياء قبلكم فجاء العدو ،﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** (٩٧) ﴾ [الكهف]. ضاقت أيام الموسم، فأسرعوا بالإبل . لا تفتكم الوقفة إذا لم تخلص فلا تتعب . لا تحد ومالك بعير. لا تمد القوس وما لها وتر . كم بذل نفسه مراء ليمدحه الخلق فذهبت نفسه ، فانقلب المدح ذما . ولو بذلها لله لبقيت ما بقى الدهر . عمل المرائى بصلة كلها قشوره المرائى يحشو جراب الزوادة رملا يثقله فى الطريق وما ينفعه . ريح الرياء جيفة تجافاها مشام القلوب . لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تشبهه ، وقالت : لك نسج ولى نسج ، فقالت دودة القز : ولكن نسجى أردية الملوك ، ونسجك شبكة الذباب ، وعند مس الحاجة يتبين الفرق .

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبين من بكا ممن تباكا

شجرة الصنوبر تثمر فى ثلاثين سنة ،وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين ،فتقول للصنوبرة : إن الطريق التى قطعتها فى ثلاثين سنة قطعتها فى أسبوعين ، ويقال: لى شجرة ولك شجرة . فقالت لها الصنوبرة : مهلا حتى تهب رياح الخريف ،فإن ثبت لها تم

فخرك . كان التصوف والفقر فى مواطن القلوب ، فصار فى ظواهر الثياب . كان خرقة فصار حرفة . غير ذيك أيها المرائى ، فإنه يصيح بك : خذونى . السيف والدرع لتزيين هيئتك ، فضيحة البهرج تبين عند المحك . لو أبصرت طلائع الصديقين فى أوائل الركب ، أو سمعت استغاثة المحبين فى وسط الركب ، أو شاهدت ساقة المستغفرين فى آخر الركب ، لعلمت أنك قد انقطعت تحت شجر أمّ غيلان . واحسرتا لمنقطع دون الركب يعد المنازل .

أعد الليالى ليـلة بعـد ليـلة وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كـل الظن أن لا تلاقيا

إلام الرواح فى الهوى والتفليس ، وحتام السعى فى صحبة إبليس وكم بهرجة فى العمل وتدليس . أين أقرانك ؟ هل تسمع لهم من حسيس . أعلمت أنهم اشتد ندمهم وحسرتهم على إيثار الخسيس . تالله لقد ودوا أن لو كانوا طلقوا الدنيا قبل المسيس .

عين المنية تغضى غير مطرقة وطرف مطلوبها مذ كان وسنان

جهلا تمكن منه حين مولده فالنطق صاح ولب المرء سكران

لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب . لو سقى الحنظل بماء السكر لم يخرج إلا مرًا ، شجر الأثل والصفصاف والحور ونحوها ، ولو دام الماء فى عروقها لا تثمر أبدا . سحاب الهوى قد طبق بيداء الأكوان ، وأمطر مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن قيعان أرض قلبك قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، ومع هذا فلا تيأس ، فقد يستحيل الخمر خلا ، ولكن إنما ذلك لطيب العنصر . خلا الفكر فى القلب فى بيت التلاوة ، فجرى ذكر الحبيب وأوصافه ، فنهض الشوق على قدم السعى ، يا من لم يشاهد جمال يوسف لم يعرف ما الذى آلم قلب يعقوب .

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكباد

يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة ، فتكاثفت عليه غيوم الغفلة ، فأظلم أفق المعرفة. لا تيأس فالشمس تحت الغيم . لو تصاعد منك نفس أسف ، استحالت شمالا فتقطع السحاب ، فبانت الشمس تحته . لما كان رزق الطائر اختلاسا لم يجعل له أسنان ، لأن زمن الانتهاب لا يحتمل المضغ ، وجعل له حـوصلة كالمخـلاة ينقل إليها ما يستلب ، ثم تنقله إلى القانصة فى زمن الإمكان ، فإن كانت له أفراخ أسهمهم قبل النقل . كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه ليمكنه تناول الأطعمة من الأرض . رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء ، فإن لم تطق رفعها فانقب حولها ، لعل ينابيع الماء تتفجر .

لو بعت لحظة من إقبالك على الله بمقدار عمر نوح في ملك قارون،لكنت مغبونا فى العقد. عشاق الدنيا بين مقتول ومأسور﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[الأحزاب:٢٣] .

يا طالبى العلم قد كتبتم ودرستم ، فلو طلبكم العلم فى بيت العمل فلستم ،وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم. شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾[القصص] .وأما شجرة الدباء فإنها تجتث عند نسمة «من كان يعبد شيئا فليتبعه » (١) .رياء المرائين صير مسجد الضرار مزبلة ،وخربه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة : ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث « رب أشعث أغبر » (٢) قلب من ترائيه بيد من أعرضت عنه يصرفه عنك إلى غيرك فلا على ثواب المخلصين حصلت ،ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت ،وفات الأجر والمدح ، فلا هذا ولا هذا لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك، فإنه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد .المخلص يتبهرج على الخلق بستر حاله وببهرجته يصح له النقد .والمرائى يتبرطل على باب الملك ، يوهم أنه من الخواص وهو غريب ، فسله عن أسرار الملك يفتضح ، فإن خفى عليك فانظر حاله مع خاصة الملك ، يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف يتعين عليه بكاء يعقوب .فإن لم يطق فذل أخوته يوم ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٨٨] إذا طاب لبث الطين على حافات الأنهار تكامل ريه ،فإذا نضب عنه الماء استلبت الشمس ما فيه من الرطوبة فيشتد شوقه إلى الماء . فلو وضعت منه قطعة على لسانك لأمسكه وعلق به شوقا إلى الورد . فيا من نضب ماء معاملته ، هل أحسست بالعطش .

مداراة الضعفاء باللطف ، فإذا قووا شدد عليهم . مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر . كان الإسلام فى بدايته كالنطفة ، فاقتنع بكلمة التوحيد ، فلما نفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة ، فلما تحرك وجبت الهجرة ، فلما اشتد وجبت الزكاة ، فلما قربت الولادة لزم الحج ، فلما ظهر طفلا حبى بلطف ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ [الزمر : ٥٣] فلما ترعرع قال المؤدب : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] فلما بلغ أشده واستوى جاء ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .المتعبدون بالليل يقربون إلى نوق الأبدان خيط الرقاد ، فإذا تناولت سد الفاقة رفعت رؤوسها ، فإذا الدليل على الجادة فتأخذ فى السير . من النجوم الجوارى مؤذن ومنها مقيم ، فأرباب العزائم يؤذن فى محلتهم بليل ،ويقاوم لهم أول الوقت ،ومن دونهم يصلون فى أول الوقت ،وأهل الفتور فى آخره . إذا هجمت جنود الرقاد على العيون ، صاح حارس اليقظة بالمتعبدين: الصلاة خير من النوم ،وهتف

---

(١) السنة لابن أبى عاصم (٤٧٥) ،وصححه الألبانى .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٨٦١)،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٧) فى الزهد ،باب : فيمن لا يؤبه له : « فيه عبد الله بن موسى التيمى ،وقد وثق ، بقية رجاله الصحيح ».

رقيب المعاتبة كذب من ادعى محبتى حتى إذا جنه الليل نام عنى ، فيصيح المشتاق :

سلوا الليل عنى مذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت بالغمض لى فيه أجفان

ثم تمر بالمتهجدين سيارة النجوم فيبعثون مع كل فج رسالة ، فتسلم أخباره إلى الركب السحر ، فتهب لمجيئها رياح الأسحار ، فيقول المنتظر :﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾[يوسف : ٩٤]، سبحان من أنعم على الموجودات بإيجادها من غير طلب ، فلما وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها . فالأجنة فى بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق ، والبذر تحت التراب يطلب قوته من الرى . ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ، ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح . وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم . وطلاب العلم يسألون فتح منغلق الفهم .وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع . والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر . والمريض يتململ بين يديه طلبا للطفه . والمكروب ينتظر كشف ما به . والخائف يترقب بريد الأمن والأبدان المتمزقة فى اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات . وعرائس الجنان يسألن سلامة بعوالتهن وتعجيل اللقاء . فإذا قام الخلق من أطباق التراب بأنعاش البعث يسألنى نكس صاحب الزلل رأس الندم طلبا للعفو . ومد العابد يد التقاضى بالمسلم فيه عند حلول الأجل ، وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر . وأشرف المحب على أطلال الشوق إلى الحبيب . وصاح العارف بلسان الوجد إذا لم يبق وقت للصمت :

لى عندكم ديـن فواعجبا ... الديـن لـى وفـؤادى الرهـن

من شاء باهلنى باهلته بهم ... وبعد عند ورود الحوض نستبق

غيره :

عدمـت دوائـى بالعـراق وربمـا ... وجدت بنجد لى طبيبـا مداويـا

ويا جبـل الريـان إن تعـر منهـم ... فإنى سأكسوك الدمـوع الجواريا

ومن حذرى لا أسأل الركـب عنهم ... وإغلاق وجدى باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كـل غائب ... فلا بد أن يلقـى بشيـرا وناعيـا(١)

وأيضا

من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريت به يوقد عليه . الحجر المغصوب فى البناء أساس الخراب . أتراهم نسوا طيّ الليالى لمن تقدمهم﴿**وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ**﴾[سبا:٤٥] ،

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٢٤ ـ ٢٣٩) .

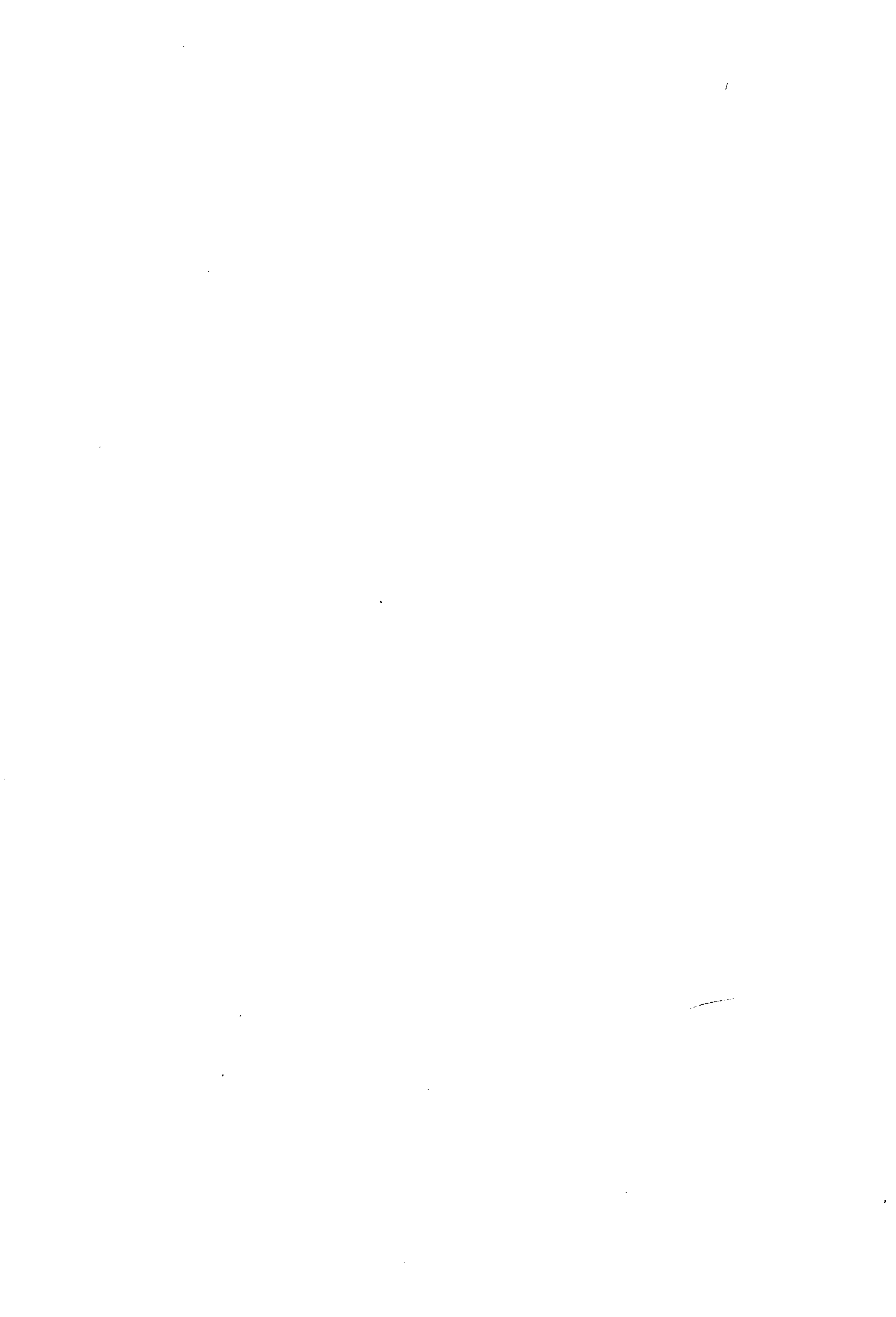
فما هذا الاغترار ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ [الرعد:٦] ، ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يونس:١٠٢] ،من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون سبحان الله،كم بكت فى تنعم الظالم عين أرملة،واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين، ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المرسلات]، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص] ، ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم .وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه .لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك . ويحك نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت .قوسه قلبه المقروح ، ووتره سواد الليل ، وأستاذه صاحب «لأنصرنك ولو بعد حين» ،وقد رأيت ولكن لست تعتبر ، احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلب وجهه فى السماء .يرمى سهامًا ما لها غرض سوى الأحشاء منك ، فربما ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها . ما تساوى لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس . كم فى يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص . ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك .

إذا التقى كل ذى دين وماطله   ستعلم ليلى أى دين تداينت

من لم يتتبع بمنقاش العدل شوك الظلم من أيدى التصرف أثر ما لا يؤمن تعديه إلى القلب . يا أرباب الدول ، لا تعربدوا فى سكر القدرة فصاحب الشرطة بالمرصاد . سليمان الحكم قد حبس عاصف العقوبة فى حصن ﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم] وأجرى رحا الرخا ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾[النساء :١٦٥] فلو هبت سموم الجزاء من مهب ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ [الأنبياء: ٤٦] .قلعت سكرى ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] فإذا طوفان التلف ينادى فيهم ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣].فالحذر أن تقول نفس ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦].وأنت أيها المظلوم فتذكر من أين أثبت،فإنك لا تلقى كدرا إلا من طريق جناية﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]. ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠].كان لبان يشوب الماء باللبن فجاء سيل فذهب بالغنم ، فجعل يبكى فهتف به هاتف :اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوقدتا ، وفوك نفخ . اذكر غفلتك عن الأمر والأمر وقت الكسب . ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق ، فإذا انقض غاصب فسمعت صوت سوطه يضرب عقد المكسب جزاء لخيانته العقود فلا تستعظم ذاك ، فأنت الجانى ،والبادى أظلم [١] .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣) .



فهرس الموضوعات

كتاب العلم والعلماء

كتاب لطائف الكلم